297.04:J21mA

الجديلي، محمد عبد الرحمن.

محاضرات اسلامية ...

297.04
J21mA

-7 May 69

297.04
J21mA
C.1

قررت وزارة المعارف هذا الكتاب لتلاميذ السنة الثالثة بالمدارس الثانوية

محاضرات إسلامية

من الإذاعة اللاسلكية

في حكم التشريع ، وأسرار التنزيل ، وجلائل العقائد ، وكرائم السير
وذخائر التاريخ ، وتصوير البطولة ، وروائع العظات

بقلم

محمد عبد الرحمن الجديلي بك

المراقب العام للشئون الدينية برياسة مجلس الوزراء

[المجموعة الأولى]

مكتبة العرب
لصاحبها
الشيخ يوسف توما البستاني
شارع الفجالة
بمصر

الطبعة الثانية
بزيادات وتنقيحات
١٣٦٨ هـ — ١٩٤٩ م

مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية

أمحمدٌ أشرق بنورٍ محمدٍ

فالشمس من هذا البيان شعاعُ

"الصاوى"

CAIRO UNIVERSITY LIBRARY

تقدير ملكي سامٍ

لما رفع الكتاب إلى السدة الملكية السامية :

تلقى المؤلف الخطاب الكريم التالي من حضرة صاحب المعالي

كبير الأمناء :

صاحب العزة محمد عبد الرحمن الجديلي بك :

أتشرف بإبلاغ عزتكم شكر حضرة صاحب الجلالة الملك

على الجزء الأول الذي أهديتموه لمقامه السامي الكريم من مجموعة المحاضرات

التي أذعتموها من محطة الإذاعة المصرية .

وتفضلوا عزتكم بقبول وافر الاحترام .

كبير الأمناء

عبد اللطيف طلعت

كتب قيمة فى التعريف بهذه المحاضرات

لأئمـــة الدين . وكبار المفـــكرين

قبس من نور الوفاء

هذا هو الكتاب الذى تفضل فبعث به الينا ، رجل الوفاء الصادق ، والوطنية الرفيعة حضرة صاحب الدولة ابراهيم عبد الهادى باشا :

رياسة مجلس الوزراء

مكتب الرئيس

أخى عبد الرحمن

إنك لتعرف - دائماً - تقديرى لإذاعاتك اللاسلكية - كما تدرك رغبتى الصادقة فى أن يعم انتفاع المستمعين - بتلك الإذاعات - قراءة وتأملا بعد إقبالهم عليها سماعاً وإصغاءً .

واليوم - وأنت تخرج لهذه الإذاعات كتاباً قيماً قد جمع الى طرافة الأسلوب وجمال العرض شرف الموضوع إذ هو يبسط (حكم التشريع وأسرار التنزيل وجلائل العقائد وكرائم السير وذخائر التاريخ وأعلام الإسلام وروائع العظات) فيجد الشباب لديه عوناً على سلامة العقائد وغذاءً روحياً تستقيم عنده الأفكار وتسمو الأرواح .

اليوم - أجد لزاماً على أن أحييكم وأحيى صدق جهادكم فيما توفرتم عليه وعنيتم به .

وفقنا الله جميعاً لاتباع الحق . وتعرف سواء السبيل .

رمضان سنة ١٣٦٨
يوليه سنة ١٩٤٩

ابراهيم عبد الهادى

كتاب كريم

للمصلح الدينى الكبير الأستاذ الأكبر المرحوم

الشيخ محمد مصطفى المراغى

حضرة الأستاذ الجديلى :

سمعت بعض محاضراتك فى « المذياع » وقرأت بعض ما بعثت به الىَ . فرأيت من الواجب أن أشعرك بما تستحقه هذه المحاضرات من الاعجاب والثناء ، وبما تستحقه أنت من الشكر والاطراء ، وقد أحسنتَ فى تخير الموضوعات ، وأجدت فى تهذيب الأسلوب ، وتجويد العبارات فخدمت دينك وأمتك ، وأرضيت ربك ورسولك ، أسأل الله أن يتولى جزاءك ويديم لك التوفيق .

والسلام عليكم ورحمة الله .

شيخ الجامع الأزهر

محمد مصطفى المراغى

خطـــاب بارع

لسعادة الوزير العالم

عبـد العزيز محمـــد باشا

وزير الأوقاف الأسبق

الى الأستاذ العبقرى النابه عبد الرحمن الجديلى — زاده الله علما :

أحييك تحية المعجب بك ، العارف لفضلك وأدبك ، المستفيد من علمك .

وبعد فاذا كان من حق الاحسان ، أن يقابَل بالاحسان ، ومن مقتضى الاتقان أن لايبقى فى طى الكتمان ، وأن يشاد بهما للحض على الاستزادة منهما ، والمثابرة عليهما — فانك لعمْر الحق فى عملك من أفضل من أحسنوا وأتقنوا ، وأجادوا وتفننوا ، تبينتُ ذلك يقينا ، عند ما أتيحت لى أثناء ولايتى لوزارة الأوقاف فرصة استماعى لمحاضراتك القيمة البليغة حينما كنت تتلوها علىّ قبل القائها الى « المذياع » الذى هو أعجب مخترعات هذا العصر ، لابلاغها مسامع الدهماء فى جميع الأرجاء ، التى بلغتها دعوته ، وانتهت اليها رحلته .

كنت حينما أصغى اليها — وكلى آذان تصغى — لايخلص الى سمعى ولا الى قلبى شىء مما عداها ، فكانت تملك علىّ جميع مشاعرى ، وتستأثر بنوافذ فطنتى فتتسابق الى وجدانى منها المعانى الرشيقة فى زخرف الألفاظ العذبة ، والأساليب البارعة ، فتهيج شجونى ، وتفيض شؤونى وتثير ذكريات مجد غابر ، وعز داثر .

لقد ملكتَ أيها الأديب قياد الفصاحة وأنت ربيبها ، وامتطيت صهوة البلاغة وأنت غذيُّها ، فأتيت فى محاضراتك الشيِّقة من بدائع القول وروائع

البيان ، فى شرح أسرار التنزيل ووصف آثار بعثة الرسول الأكرم (صلوات الله عليه) فى العـالم وأحوال سلفنا الصالح رضوان الله عليهم ، وكرائم أخلاقهم وجلائل مآثرهم ومفاخرهم ، وما حفظه لهم التاريخ من أعمالهم المجيدة ، وآثارهم الخالدة — أتيت فى شرح ذلك كله ووصفه بما دل على غزارة علمك ، وثقوب فهمك . ودقة فقهك . ونور بصيرتك .

فلله أنت ولله صنيعك ، فقد أهديت أحسن العبر للمعتبرين ، وقدمت أكمل المُثل العليا للمحتذين ، وان فيها لموعظة وذكرى « لمنْ كان لهُ قلب أو ألْقى السمْع وهو شهيد » .

ولقد كان فى عزمى كما علمتَ لو طالت مدتى فى الوزارة ، أن أقرر طبع هذه المحاضرات النفيسة ونشرها للناس كتابا يقرأ على مر الأيام لما احتوته من الفوائد الجمة ، وأن تترجم الى بعض اللغات الأجنبية لتعريف غير المسلمين حقيقة الاسلام ومحاسنه وآثاره الفضلى فى تهذيب النفوس ، وتطهير الأخلاق فانهم منها فى أمر مريج — كنت معتزما ذلك ، وأن أكافئك على مابذلتَ من جهد فى نسج بردها على هـذا النمط الحسن ، وتنسيق موضوعاتها بهذا الشكل البديع ، حتى أتت معجزة فى البلاغة والأدب .

ولئن فاتنى ما كنتُ قد قصدت اليه بالتخلى عن الوزارة فأرجو ألا يفوت ذلك حضرة صاحب المعالى وزيرها الحاضر فانه خير من يعرف للعاملين أقدارهم .

ولن يفوتنى أن أسدى لك عظيم شكرى على ما أبديت من فرط غيرتك على دينك ، وما أديت من واجب النصح لايقاظ قومك ، والله سبحانه من وراء ذلك يجزل لك مثوبة العاملين المخلصين ، انه ولى الاحسان ، وهو الغفور الشكور . . .

والسلام عليكم ورحمة الله .

من محبك

عبد العزيز محمد

كتاب عزيز

لفضيلة الأستاذ العلامة المرحوم

الشيخ عبد المجيد اللبان

شيخ كلية أصول الدين ـ سابقا ـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الى حضرة الأستاذ المحترم عبد الرحمن الجديلى . حيّاه الله وحباه .

أما بعد فانى أوليك تحية من يحترم فضلك وأدبك . ويجل مواهبك ويقدر عملك ، وأن من خير ما صنعت تلك المواعظ الحسنة التى نشرها على العالم مذياع ارشادك ، ودعوتك الحكيمة فى محاضرات قيمة ، سمعتها الآذان فأصغت اليها ووعتها النفوس فطهرت بها،وتذكرتها الألباب فصفت وأخلصت، لقد قرأتها فكنت حين سرحت الطرف فى نواحيها ، كمن جاب روضا يانعا بهج المنظر اذا سره زوج من أزهاره أغراه منها زوج آخر .

أعجبنى ما شرحت من عقيدة اسلامية حنيفية ، وسيرة شريفة نبوية ، وزاد فى اغتباطى ما ضممته الى ذلك من قيّم المبادىء فى شتى المواضيع ، خلقية واجتماعية ، بأسلوب جزيل سهل يسر للناس فهمها ، سواء منهم من رقى الى رتبة أهل العلم ومن نزل عنها .

فأصارحك أيها الأستاذ بأنك قد سلكت فى هدايتك طريق المصلحين ، وتأسيت بما ورد فى قوله صلى الله عليه وسلم : (نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم) فكنت حكيما فى صنعك ، بثثت روح التربية الصحيحة فى النفوس ، وأشربتها حب الخير ، وعودتها عمل التقوى واسداء

المعروف ، عسى أن تسعد بها أمة تطلب منك المثابرة فى هذا العمل المبرور حتى تؤدى رسالتك تامة فترضى ربك وتقر عين نبيك . وختاما ندعو الله لك بخير ما يرجوه لولده البار ، الوالد الشفيق .

شيخ كلية أصول الدين

عبد المجيد اللبان

من مستشار الإذاعة اللاسلكية
إلى وكيل وزارة الأوقاف

حضرة صاحب العزة وكيل وزارة الأوقاف بالقاهرة :

أتشرف باخبار عزتكم، أن المحاضرات التى يلقيها الأستاذ «محمد عبد الرحمن الجديلى» المفتش بوزارة الأوقاف هى محاضرات قيمة . نالت اعجاب رجال الاذاعة ، وحسن تقدير المستمعين لها .

لذلك نتقدم لعزتكم شاكرين، ونرجو أن يستمر ندبه طويلا للفائدة الجزيلة التى تؤديها مثل هذه المحاضرات الدينية الخفيفة الظل والمحببة الى الجمهور .

واقبلوا يا سعادة الوكيل فائق الاحترام .

مستشار الراديو

سعيد لطفى

نشرت جريدة الأهرام الغراء المقال الآتى

بعنوان

محاضرات إســـلامية

أذاع هذه المحاضرات حضرة الأستاذ محمد عبد الرحمن الجديلى من محطة الاذاعة اللاسلكية مندوبا عن وزارة الأوقاف ، فلقيت من الاعجاب وحسن التقدير ، ما دعا الى الاهتمام بطبعها ، نشرا للثقافة الدينية ، وتمكينا من زيادة الانتفاع بهذه الدراسات القيمة ، فى حكم التشريع ، وأسرار التنزيل وجلائل العقائد ، وكرائم السير وذخائر التاريخ وروائع العظات .

وليس الأستاذ الجديلى فى حاجة الى من يقدمه الى القراء فقد قدمته من قبل أبحاثه الرائعة التى أذاعها على القراء فى الصحف العربية ، وامتازت بجمال الأسلوب وحرارته وامتلائه ودلت على ثروة الأستاذ الثقافية وعلى روح البحث العلمى العميق . وقدمته أيضا محاضراته التى أذاعها فكان لها صدى طيب من فرط الاعجاب وحسن التقدير .

كتب عنها حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى (سمعت بعـض محاضراتك فى المذياع ، فرأيت من الواجب أن أشعرك بما تستحقه أنت من الشكر والاطراء وقد أحسنت فى تخير الموضوعات وأجـدت فى تهـذيب الأسلوب وتجويد العبارات فخدمت دينك وأمتك وأرضيت ربك ورسولك) .

وأسلوب المحاضرات أسلوب بليغ سهل ولكن فى امتلاء وهو يميل الى الاختصار حيث قد حدد لكل محاضرة جزء من الوقت لاتعدوه ولاتقصر

عنه ، على أن هذا الايجـاز أبلغ فى العظة ، وأبعد عن الاملال ، وأدعى الى الاصغاء والانتباه .

وللأستاذ الجديلى طريقته فى الوعظ فهو لا يهجم بمواعظه ولا يلح على النفس بسرد نصائحه علما منه بأن النفس الانسانية كثيرا ما تضيق بالوعظ وتتبرم بالنصيحة ، وهو لذلك يسلك اليها سبيلا هينا ، ويدخل نصائحه اليها خلسة حتى لا تمل ولا تتبرم .

ففى حديثه عن (الرجل المؤمن) مثلا يخفى شخصية الواعظ فى شخصية رجل مؤمن صادق الايمان معتز به يحاوره فتى ضيق التفكير رقيق الايمان ويجد المستمعون قلوبهم مبهورة تتتبع المحاورة فى شوق ولهفة ، وتستقبل الموعظة وهى لا تكاد تدرى .

ومحاضرات الأستاذ الجديلى عن أبطال الاسلام منهج للثقافة الاسلامية الضرورية ، فان الكثيرين لايعرفون ما لابد من معرفته عن الدعوة الاسلامية وأطوارها وأبطالها .

ونحن نرجو أن يجد الاستاذ الجديلى من حسن تقـدير القراء بعض المكافأة على جهوده المشكورة الموفقة .

ونشرت جريدة « المقطم » الغراء لباقعة الأدب واللغة ، وسليل السادة العارفين ، « السيد حسن القاياتى » عضو المجمع اللغوى تحت عنوان :

إلى الأستاذ الجديلى

طلع الأديب الكبير (الأستاذ الجديلى) مدير المساجد بوزارة الأوقاف على جمهرة الأدب بمحاضراته الخلقية المتخيَّرة البارعة ، فهذه كلمة تحية له ، وتقدير لكتابه المتخير :—

تجلّى بهديك نورُ السبيلِ ... سرى « فى المُذيع » كوحى الرسولِ
طراز[1] الهدى ، من طِراز النُّهى ... « جديلةُ » رُشدٍ معا « والجديلى »

حسن القاياتى

---

(١) الطراز — أول ما صنع من الشىء وابتكر ، وقد تخيروا أن توضع الكلمتين (الطراز) أو (الجديلة) بازاء كلمة المودة المتعارفة . وفى موضعها . ا هـ « الشاعر »

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة وتعريف

نحمدك اللهم ، لك الخلق والأمر ، ونستخيرك بيدك الخير ، ونستلهمك الرشد والتوفيق ، ونستكفيك عوادى الأيام ؛ ونرغب اليك أن تصلى وتسلم على سيدنا ومولانا « محمد » صاحب الشريعة السمحة ، والقول الفصل ، والخلق العظيم ، اللهم أدبنا بأدبه المحفوف بالعصمة ، وثقفنا بكلماته الجوامع فى حديثه الشريف :— « من أحب أن يكون أعز الناس فليتق الله ، ومن أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله ، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما فى يد الله أوثق منه بما فى يده [1] » .

(وبعد) فهذه فصول فى التشريع ، والأصول ، والفقه ، والتاريخ ، والسير ، والتراجم ، والعظات ، أذعتها تارة مندوبا عن وزارة الأوقاف وتارة تلبية للمستمعين ومساهمة فى الخير العام . وقد جعل لها ذوو الشأن فى الاذاعة جزءاً مقسوما من الوقت لا تعدوه ولا تقصر عنه ، فجاءت من الايجاز فى القالب الذى صنع لها ... لا كما ينبغى أن تكون من البسط والاستقصاء ... على أن النفوس فى هذا الباب الى القصار أميل ، وبالموجز أشغف ، ولعلها تكون على القلوب أندى . وجعلت نصب عينى أن أستثير شوق المستمعين ، وأن أبلغ نوازع الخير فيهم — وقد أكون — بعون الله — قاربت المحز ، ثم أدع

---

(١) رواه محمد بن كعب عن ابن عباس رضى الله عنهما .

بعد هذا لمن شاء أن يَكشِف عن كنوز الشريعة التى أشرتُ اليها ، وأن يستخرج ذخائر التراث الاسلامى الذى طفتُ حوله .

هذا — وأستقيل الله هفواتى ، « انه أهل التقوى وأهل المغفرة » .

محمد عبد الرحمن الجديلى
مراقب الشـؤون الدينية
برياسة مجلس الوزراء

المحاضرة الأولى *

أثر العقائد

فى إصلاح المجتمع والأفراد

كيف اختير موضوع المحاضرة ـ خير العظات ما وعظك أولا ـ حادثة وقصة ـ أثر البيت الدينى فى تكوين الخلق ـ الطالب التقى فى أوربا ـ تأثير القرآن فى نفوس المتقين ـ ذكاء نادر وصلاح باهر ـ غرائب القضاء ـ الحاد وايمان ـ نفاذ الأقدار ـ الحياة مزيج من الخير والشر ـ الأولاد زهرة الحياة ـ ابتلاء الله لعباده ـ حنان الأمهات ـ فطرة الله التى فطر الناس عليها ـ ضراعة الملحدين ـ رحمة الله تسع كل شىء ـ النعاس أمنة من الله ـ رأفة الله بالمؤمنين ـ كفى بالموت واعظا ـ الدمع مروحة الحزين ـ صبر المؤمنين ـ اليأس صنو الالحاد ـ الجبن رفيق الجحود ـ العقيدة تسعد الفرد والمجتمع ـ العقيدة تبعث الشجاعة ـ المؤمنون أحرار ـ أسس العقيدة ـ الايمان بالله ـ البعث والجزاء ـ حياة الانسان وحياة الحيوان ـ الحياة الأخرى تكمل النقص الدنيوى ـ الايمان بالقدر خيره وشره ـ فساد المجتمع الجاحد ـ وثوب الأمة العربية بعقيدتها ـ أسرار الفتوحات الاسلامية ـ رجالات أنجبتهم العقائد .

* * *

أيها المستمع الكريم :

كنتُ على أن أختار الموضوع الأول لسلسلة المحاضرات الدينية التهذيبية الخلقية ، التى تساهم بها وزارة الأوقاف فى الاصلاح العام . والتى اقتضى الأمر أن يكون منبرها هذا (المذياع) المحمود الآثار .

---

* أول الأحاديث الدينية التى أذاعها المؤلف ممثلا لوزارة الأوقاف ، وقد ألقى فى يوم الجمعة ٢ من المحرم سنة ١٣٥٤ — ٧ أبريل سنة ١٩٣٥ من الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة والثلاثين مساء .

تكاثرت على الموضوعات ، وكل واحد منها يعجلنى عن الآخر ، الا موضوع اليوم فانه لم يكن قد نجم بعدُ ولا نبت فى نفسى ، لكن القدر الآلهى — وله الحكمة البالغة — صرفنى فيما شاءه . فهيأ لى موضوع اليوم ، واختاره لى ، والخيرة فيما اختاره الله .

أخذنى القدر المتاح الى حيث يعظنى أنا أولا . فأجرى بين سمعى وبصرى حادثة من الأحداث العنيفة : وقد كانت هذه الحادثة ختامَ قصة مؤثرة .

وعظتنى الحادثة : وراعتنى القصة : واذا هما يلهمانى أن أتحدث اليوم فى « أن العقيدة الصالحة أساس صلاح المجتمع والأفراد » والى حضراتكم القصة الرائعة والحادثة الواعظة :

كان لى صديق هو من أكرم الأصدقاء همامة نفس ، ونبالة خلق . ومتانة دين ، ونصاعة عقيدة (وكان نجىَّ نفسى لأنى نجىُّ نفسه) وكان أبواه من أولئك الذين أعرقتْ فيهما المعانى الدينية ، قد نمتهما بيئة كلها بر وصلاح وتقوى فنشأ صاحبى على ما كان أبواه قد عوداه . حتى اذا ما أتم دراسته بمصر تهيأ له أن يرتحل الى أوربا ، فكان فى الجامعة أعجوبة بين رفاقه . وكان محل اعجابهم أيضا . كانت الصلاة على صاحبى كتابا موقوتا ، فهو يبادرها حيثما كان ، ولا يشغله عنها شأن من الشئون . وكان صومه حديثَ رفقائه ، فهو يرتقب رمضان ويُعِدُّ نفسه له . ويخلق حوله جوا (رمضانيا) فى صميم بلاد الفرنجة !!! . وكان اذا استيقظ من النوم فانتهى من صلاته عمد الى القرآن الكريم ، فشرع يرتل لنفسه بصوت عذب مؤثر لا يتجاوزه . ولكنه كان يجذب اليه الأسماع ويجمع عليه الرفاق حتى الذين لا يفقهون العربية !! وكان أكثر ما يبهرهم منه أن عينه كانت تفيض بالدمع خشوعا ورهبة كلما تدبر معنى من معانى الآيات التى يقرؤها . وكان الى جانب ذلك كله فى درسه وبحثه وجامعته وعلومه آيةً أو أعجوبة من الأعاجيب : فهو لا يُسأل الا وهو على علم بما يجيب . ولا يَسأل الا وقد فتح أبوابا طريفة للبحث بين يدى أساتذته ومعلميه .

لمحت تلك الظواهرَ كلها فتاة" طالبة معه فى الجامعة . وكانت (ملحدة) فى نفسها ، ولكنها مسيحية فى ظاهرها فعُنِيَت بتتبع حال (صاحبى) عناية كادت تشغلها عن دراستها ، وكانت كثيرا ما تناجى نفسها : أوَ يجتمع هذا العقل السليم وذلك العلم الجم . وتلك المواهب النادرة الى جانب عقيدة دينية قوية تصرّف الفتى ذلك التصريف العجيب ؟ ثم كانت لا تجد من نفسها جوابا لذلك على ثقافتها ولباقتها وما تعلمه من ظاهر الحياة الدنيا !!! .

شاء الله لصاحبى أن يمرض ، وشاء الله أن تمرضه الفتاة الطالبة ، وشاء الله أيضا أن تتوثق بينهما الصداقة ، وأن تنتهى الى رباط الزوجية وكان الأمر عجيبا فالفتاة كانت تجهر بجحود العقائد وعداوة الأديان !!! وكان صاحبى ينفر ويغضب ساعة يسمع كلام الجاحدين . اذن . ما الذى جمع هذين القلبين وألف بينهما ؟ انها الأقدار والحكم سوّت الزوجين على تلك الصورة لتُبدع العظة ، وتحكم الحجة ولكى تتم كلمة ربك « صِدْقا وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ » .

* * *

عاد صاحبى الى مصر وهو زوج وله شأنه الدينى . وجاءت معه الفتاة وهى زوجة ولها شأنها « اللادينى » وفيما عدا ذلك ، فقد كان بيتهما مضرب الأمثال نظاما واحكاما . وكان يرى عليه آثار النعمة وتشيع فى جنباته المباهج ، غير أن الحكمة الالهية قد قضت بأن تكون الحياة مزيجا من الخير والشر : وعند صفو الليالى يحدث الكدر : فقد تعاقبت الأشهر وكرّت السنون ولم يتهيأ للزوجين أن يُعْقِبا لا بنتا ولا ولدا على شدة حرصهما وفرط تلهفهما — هنا : ظهر الغيم فى أفق تلك الأسرة وأخذت سحب الأكدار تغشى الدار فكانوا لا يَدَعُون وسيلة من وسائل الطب ، ولا علاجا من التجارب الا التمسوه ، فلما أذن الله للعظة أن تتكلم وللحكمة أن تتجلى وللقضاء أن ينفذ حملت الزوجة على يأس من الحمل وولدت على استبعاد

للولادة ، وجاءت به غلاما كان قرة أعين أبويه . أعاد عليهما بشاشة الدنيا ، وأراهما زهرة الحياة فلما ترعرع واكتمل له السن ، كان حديث الاخوان فى لباقته وفصاحته .

ولما ناهز الثامنة ، كانت الليلة الموقوتة فى صحائف الغيب . أوى الغلام الى فراشه فى ضجر وفتور ، ثم شكا الحمى ، ثم أسرع نبضه ، فجعلت أمه تعالجه بما تستطيعه وجعلت تقرّبه من صدرها ، مِرجَل" فوق مرجل ، وسعير يتقلب فى سعير ، فالغلامُ تتأجج حرارته ، والأم تشوى كبدها على تلك الحرارة . وحانت البرهة المرهوبة ، فهبط النبض ، وهبطت الحرارة الى حيث لادرجات ! واذا الغلام جثة هامدة !!! . واذا الأم من فرط الذهول لا تصدق ماتراه من صورة الموت ، وهو حق اليقين .

فكانت تلك الثكلى لاتزال تحدث غلامها ، وتجثو أمام سريره ، وهى وان لم تكن ممن يركنون الى الأديان ، ولم تكن من ذوات العقائد . فان فطرة الله التى فطر الناس عليها قد ألهمتها ساعةَ مَسّها الضر :— فاذا هى ضارعة شاخصة الى السماء تصيح « يارب ارحمنى » !!! .

* * *

رأتها خادمتها « فاطمة » فعجبتْ لهذا المشهد الذاهل . وجعلت تتمتمُ وتحدّث نفسها : أين سيدتى من السماء ؟ وأين هى من العقيدة والدعاء ؟ ، وهى فى حياتها ما عرفت سبباً يربطها بسماء ولا بدعاء . وكأن « فاطمة » الخادمة قد استعظمت رحمة الله أن تنزل بسيدتها ، واستبعدت أن يكون لها من حنان الله نصيب ، ومادرت « فاطمة » المسكينة ، أن رحمة الله قد وسعت كل شىء . وان الله تعالى يقول : « قلْ يا عبادِىَ الذينَ أسرَفوا على أنفسِهم لا تقنَطوا من رَحمةِ اللهِ » ...

فما هى الا لحظات مرّت على الأم . وهى مشدوهة قد سُكّر بصرها بالسماء حتى بعث الله عليها أمَنةً نُعاساً ، فراحت مستغرقة فى نومها . ولعل

هذا الشعاع الربانى من الرحمة الذى أنام الأم ، كان براً بالوالد المؤمن قبل أن يكون براً بالأم الجاحدة . فلقد وصل الأب الى بيته متأخراً على غير عادته ، ولما همّ بتعهد زوجه وولده ، شعر بالسكون يملأ جوانب الحجرة فرأى ألا يزعج النائمين ، وانعطف الى مخدعه حتى الصباح .

طلع النهار وتفتحت عين الأم على الحقيقة الهائلة . على الموت ماثلا فى جثمان الغلام الجميل . فراحت تصرخ ، ثم تصرخ ، وتقطّع فى ثيابها وتلطم وجهها ، ولا تجد لها من مسعف !! حتى الدموع كانت تطلبها فلا تجدها :—

والدمعِ مروَحَةُ الحزيـــن وراحة المُتَمَلْمِلِ

وتسألنى أيها المستمع الكريم ، وأين ذهبت الدموع ؟ فأقول : انها تبخرت بنار الالحاد الحامية ..!!

تداعى الجيران ، وهبّ الوالد من نومه على صوت الفاجعة وهو يقول : « لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم » . « انا لله وانا اليه راجعون » ثم قطرت قطرات من عينه ، كانت برداً وسلاماً على حُشاشته ، ثم أخذ يستمنح الثبات من ايمانه . ويستلهم الرضا من عقيدته ، فاذا هو يردد فى سريرته . « له ما أعطى وله ما أخذ » لم يقطعه عن تلك الكلمة الا أنه تذكر لساعته قوله تعالى « فأردْنا أنْ يُبدلِهما ربهما خيراً منه » .

أقبل الأب على زوجته يُنَهْنِهُ من حدة الجزع ، ويدفع روعة المصاب ، ولكن هيهات هيهات !! فقد كانت المسكينة لاتسمع لغير صوت الحادها .. ولا تركن الا الى نوازع قلبها .. وقلبها مقفر ممْحِلٌ من يوم ظهرت جاحدةً ملحدةً منكرةً .

ضاقت على المسكينة الأرض بما رحبت . وأعياها — كما كان يُعييها دائما — الركون الى قضاء الله . وشرعت تسأل فى صراخ عنيف . أين ولدى ! من أخذه ؟ والجواب حاضر ، والعظة تتكلم ، ولكنّ للملحدين قلوبا لا يفقهون بها وأعينا لا يبصرون بها ، وآذانا لا يسمعون بها . يئست الأم . وحق لها أن تيأس فاليأس صنو الالحاد . وجُبنت الأم أمام المصاب ، وحق

لها أن تجبن . فالجبن أخو الجحود . « ولا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون » .

فما كادوا يحملون الغلام الى مقره حتى كانت الأم الجاحدة تعدو ، ثم تعدو وكأنما يسوقها ويلهبها صوت الالحاد !!! فصعدت سلالمَ البيت ، حتى بلغت الطبقة الثامنة ، وجاوزتها الى السطح . وفى غاشية من غاشيات الجحود واليأس قذفت بنفسها . تريد الانتحار فخرت أثيمة الالحاد .

« أما صاحبى » بعد أن نزلت به المصيبتان ، فقد كان شفاءُ نفسه كلما جاشت : أن يردد قوله تعالى : « فصبرٌ جميلٌ ، واللهُ المستعان » فأعاضه الله زوجةً تقية بارة ، وولدانا اذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثورا ...

وهكذا كتبت لنا العظة ، لقد صحب الجبن الالحاد . حين ترديها الى حيث تروْن ، ولقد صحبت العقيدة الصبر والاحتمال ، حتى سعد المجتمع ، وسعدت الأفراد .

أيها المستمع الكريم :

تنتظم العقيدة : الايمان بالله وحده ، ايمانا خالصا من شائبة الشرك .

ومن آثار تلك العقيدة أنك ترى المؤمنين (أحراراً)لا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً ، وتراهم (شجعاناً) فلا يرهبون فى الحق انساناً . ثم تنتظم العقيدة الايمان (بالبعث) و (الحساب) (والجزاء) وهذه العقيدة انما هى فى الحق تمجيدٌ للانسانية ، وتشريف للعقل . فلقد أذكر أن « فلانا » كان يكذّب بيوم الدين ، وكان كثيراً ما يقول لصاحبه وهو يحاوره : العقلَ . العقلَ . أين البعث من العقل !! فكنا نقول له يا هذا :

انك أنت الذى يمتهن العقل ، ويحقّر الكرامة الانسانية ، فانك بجحودك يومَ الدين انما تجعل الحياة (عبثا) لامعنى لها ، وليست « فى نظرك » غير اخلاد للشهوات . ولوناً من ألوان معيشة الحشرات . أكلٌ . وشربٌ . وسِفادٌ . ثم بغىٌ من القوى على الضعيف ، ثم فناءٌ وكأنْ لم يكن بنو الانسان شيئا مذكورا .

« أفَحسِبْتُمْ أنما خلَقْناكُم عَبَثاً وأنَّكُمْ الينا لا تُرْجَعونَ »
لا . لا . ان نتيجة الجحود بيوم الجزاء لأهول من هذا . فهى تجعل الحيوان والحشرة أسعدَ حالا من الانسان ، فليس للحيوان فكر ولا تأمل ، ولا عقل، وليس له أسف على لذة فاتت ، ولا فرح بلذة آتية ولا خوف" ، ولا حزن" ، ولا أمل مما أختُص به الانسان ، وكان له مبعث التكريم والتأهيل للاستخلاف فى الأرض !!

أفرأيت لو أن الانسان والحيوان والحَشرة كلها سواسية" !! تنتهى جميعاً الى الفناء ؟ أو ليس الانسان يصير أشقى من الحيوان بِعقله ، وأتعس من الحشرة بتأمله وفكره .؟!

أيها المستمع الكريم :

تنتظم العقيدة أيضاً الايمانَ بالقدر خير وشره حلوِه ومرِّه . ما دام كل نقص فى تلك الحياة سيكمل فى الحياة الأخرى ؛ وتلك عقيدة تَهَبُ المؤمنين (سمواً) فى المقاصد ، (وفناءً) فى سبيل المجد، وتعلمّهم الصبر والاحتمال ، وتدفع بهم فى صدور الأحداث . واليكم أثرَ تلك العقائد فى سعادة المجتمعات :—

كان المجتمع البشرىُّ من قبل أن تشرق عليه أنوار تلك العقائد ظلاما فى ظلام ، وشراً ليس وراءه شر ... كان (الروم) و (الفُرس) يسيطران على العالم سيطرة كلها جور واذلال وطغيان ، وكان الفسق والفجور قد عبثا بكل كرامة ، وهتكا كلَّ ستر ، وجرحا كل عزة ، وكان المجتمع العربى قد أخذ بنصيبه من هذا الفساد . على ما يتفق مع عيشته عيشةِ البداوة والضَّراوة والفتك والعداوات والتِّرات .

هنا ظهرت سنة الله فى الأرض اذا ما استشرى الفساد فيها ، فقام رسول الله الأكرم « محمد بن عبد الله » صلى الله عليه وسلم ، يدعو الى تلك العقائد والمبادىء ، فوثبت بها الأمة العربية وثبة رجفت لها أقطار الأرض ، فلم يبق سهل ولا وعر ، ولا تاج ولا سرير الا تبدل خلقاً آخر .

وما كانت قوتهم التى أرغمت الأنوف ، وأخضعت الهامات — ما كانت فى وميض السيوف ، ولا فى عديد الجنود ، ولا فى محكم التدبير لا . لا . لم تكن فى شىء من ذلك ، فما من أمة ناهضتهم الا وكانت أشدّ منهم قوة ، وأوفر عدداً انما الأمر الذى كان لهم وحدهم وقد فقده أعداؤهم ، قد كان مركزه فى قلوبهم ، فى ايمانهم ، فى عقائدهم . عقائد تُهيب بهم الى احدى الحسنيين « اما حياة ماجدة عزيزة ، واما موت » ، فلقاء لربهم ، واستبشار بما أعده لهم فى جناته » .

لقد خلقت تلك العقيدة من العرب أبطالا وشجعانا حتى لترى المرأة العربية لا تلبث بعد أن تَشِيع العقيدةُ فى قلبها أن تسبق الرجال فى ميادين الفخار ، وهذه « أمُّ أيمن » عندما رأت بعض الناس ينفضُّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « يوم أحد » أخذت تعيرهم ، وتتهكم بهم وتقول :— « هاكم المغزل وهلم سيوفَكم » .

وانظروا ما خلقت العقيدة الصالحة من « عمر بن الخطاب رضى الله عنه » لقد كان ناشئاً على القسوة والعُنف . حتى لقد وأد بنتاً من بناته فى الجاهلية . فلما أسلم ، وخالطت العقيدة شغاف قلبه صار من أرأف الناس وأرحمهم بعباده ، فهو يُنضج الطعام للأطفال الجياع ، وينفخ النار لامرأة فقيرة .

أيها المستمعون الكرام :

ألا انها العقائد والايمان تذكى النفوس ، وتشفى العالم من أمراضه الاجتماعية وتدفع أصحابها الى حيث معاقل المجد . الى حيث العزة التى عبَّر عنها القرآن الكريم بقوله: «ولله العِزّةُ ولِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِين»

ان صاحب العقيدة ليرسل عقيدته فى أقطار الدنيا وهو يَهْتِفُ :

ولست أبالى حين أقْتَلُ مسلماً على أى جَنْب كان فى الله مصرعى

وان صاحب العقيدة ليأتى بجلائل الأعمال ، ويقتحم ميادين البطولة ، وهو يُرتِّل « قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا الا مَا كَتَبَ الله لنا » .

المحاضرة الثانية :

أسرار العظمة والبطولة

فى على بن أبى طالب كرم الله وجهه

ليلة الهجرة تؤرخ لبطولة على ـ ظلام الليل وظلام الكيد ـ فى دار الندوة ـ تبييت الشر ـ الجود بالنفس ـ على يفدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ على يبيت على الفراش المحروس ـ السيوف المشهرة من حوله ـ التربية الاسلامية تكون الفتى عليا ـ الخليفة على بن أبى طالب ـ قوة الخلق ـ سمو الحق فوق القرابة والرحم ـ الوازع الدينى يمقت المحاباة ـ بين على وأخيه عقيل ـ حادث رائع فى النزاهة الاسلامية ـ فقه على ـ بداهته المعجزة ـ قبس من الاسلام ينشىء الدستور الأول ـ يقرر حقوق الرعية ـ يحصن القضاء ـ يحمى القضاه ـ شذرات من الكتاب الخالد ـ مفاخر المسلمين الأولين .

* * *

أيها المستمعون الكرام :

شاء الله لليلة من الليالى الخوالد — هى ليلة الهجرة — أن تكون بدءاً لتاريخ ، وفاتحة لعصر انسانى بهيج . فحشدت الأقدار فى تلك الليلة من الأحداث ما يؤرخ للبطولة ، ويترجم للعظمة ، ويجعل للفكرة الاسلامية الخلود على الدنيا .

كانت الظلمة — فى تلك الليلة — ظلمة غدافية . بل ظلمات بعضها فوق بعض — اجتمع الى غلس الليل ظلام الكيد ، وسواد الحقد . وحلكة الغدر . فكأنما تراكمت كل أولئك الظلمات فى تلك الليلة الفريدة ، لتتكاثف فتمحو آية الحق ، فما كان الا أن شد عليها الحق فمزقها شر ممزق ،

وقذف بفلولها وراء الأفق لا الى رجعة ، ثم سطعت شمسه على العالم متألقةً متوهجة .

* * *

تواعد رؤوس الشرك فى دار ندوتهم ، وتشاوروا فيما عسى أن يكون الكيد « لمحمد » صلى الله عليه وسلم . بعد أن أعياهم شأنه ، فمن قائل نحبس « محمداً » فى الحديد ، ونغلق عليه بابا ، ثم نتربص به أن يموت كما مات أمثاله : فقال شيخ منهم : ما هذا لكم برأى . لئن حبستموه ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه ، فيوشك أن يثب عليكم أصحابه فينتزعوه من أيديكم . فقال آخر : نخرجه من بيننا فننفيه ، فاذا خرج عنا فلا نبالى أين ذهب .

فقال الشيخ : ما هذا لكم برأى . ألم تروا حسنَ حديثه ، وحلاوة منطقه، وغلبته على قلوب الرجال !!!. فقال : « أبو جهل » ابن هشام : ان لى لرأيا فيه . ماأراكم وقفتم عليه : « ان رأيى أن نختار من كل قبيلة شابا فتا جَلْد : نسيباً وسيطاً فينا ، ثم نعطى كل فتى منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمدوا الى «محمد» فيضربوه ضربة رجل واحد ، فانهم اذا فعلوا ذلك . تفرق دمُ « محمد » فى القبائل كلها ، فلم يقدر « بنو عبد مناف » على حرب العرب جميعاً ورضوا بالفداء ففدينا » .

تقبل أتباع الضلال رأى شيخهم ، وعينوا الفتيان وكانت الليلة الموقوتة ؟!

* * *

وقف الفتيان الأشداء بباب « محمد » صلى الله عليه وسلم . يترصدونه وينظرون من ثقوب الباب الى فراشه لكى يبوءوا بالاثم — بالدم الذكى الماجد — دم رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومختاره لهداية الناس .

وأذِنَ الله لرسوله فى تلك الليلة أن يهاجر الى المدينة مع صديقه

« أبى بكر » رضى الله عنه ، ولقد شاءت الحكمة النبوية أن يتم الأمر فى حَذر وفى كتمان ، حتى لا يترامى الخبر الى قريش . فيأخذوا السبيل على دار الهجرة ، فرأى صلى الله عليه وسلم — وله الرأى الموفق — أن يكون الحراس المترصدون بحيث يخيل اليهم أن « محمداً » عليه السلام لا يزال فى فراشه بهذا البيت المحروس .

انه لرأى حازم سديد . بل هو الحزم والسداد جميعاً ، ولكن من ذا الذى يقوم هذا المقام الرهيب ؟ من الذى يفدّى رسول الله صلى الله عليه وسلم سخيةً نفسه بالفداء ؟ من الذى ينام على فراش من خلفه الأسياف المسلولة ؟ ، ومن أمامه العزائم المشبوبة ؟ من ذا الذى يُقدِم على الموت وهو ماثل ؛ ويستصغر غُول الحوادث وهو جاثم ؟ لم يكن غير أن أمر رسول الله « صلى الله عليه وسلم » فأتمر الفتى (على بن أبى طالب) ونام فى الفراش مكان ابن عمه ، فياله من موقف يقلقلُ الأجبال ، ويزلزل الأبطال !

فتى فى الحادية والعشرين من عمره ، متوثّب الصِّبا ، عريض الأمل ، فسيح الرجاء تجرى الحياة فى عروقه كجريان السيل ، يطوى مباهج الحياة ، ويُغضى عن زهرة الدنيا ، ويستقبل الموت لتحيا عقيدته ، فى شخص ابن عمه الكريم « محمد » .

يجود بالنفس اذ ضن الشجاع بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود

* * *

الله أكبر . أنقول ما هـذا بشراً ان هذا الاّ ملك كريم ! .. لا . انه الانسان الكامل ، انه « على بن أبى طالب » وانها الشجاعة الاسلامية ، وانها التربية النبوية ، وليس وراء ذلك عظمة ولا بطولة !!!

* * *

ننتقل بعد ذلك الى تعرُّف سر من أسرار العظمة يوم صار

« علىٌّ » الى الحكم خليفة واماما بعد عثمان بن عفان .

أيها المستمع الكريم :

قد يكون المُلكُ ومباهجه ، والسلطان وجاهه ، والخلافة وجلالتها ، قد يكون كل أولئك غاضا من الكمال الانسانى ، كاشفاً عن مظاهر الضعف البشرىّ ، فاذا المحاباة ، والملق ، والرُّشا ، تتمشى فى أقطار المجتمع فتفسد الذمم ، وتعصف بالفضيلة ، وتُغِيرُ على معالم الحق ، قد يكون ذلك !! ولكن متى يكون ؟؟ يكون يوم يضعف الوازع الدينى — ويوم يطرح الناس الهدْى النبوى ، ويوم يعرضون عن كتابه الأقدس ، الذى يخاطبهم بلسان الحق الأزلى : — « انَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ » — والآن فلنتساءل؟؟ — هل غضّ المُلكُ والجاه ، والسلطان من كمال « على بن أبى طالب » هل وجدت المحاباة ، أو المَلَق أو ضعف الخُلُق سبيلا الى نفسه التى هذبها الاسلام ؟؟ لا . لم تجد سبيلا الى ذلك ، واليكم ما كان من هذا العظيم الذى شاع فى وجدانه الوازع الدينى — اليكم كريمةً من كرائم « على » وهو يوم ذاك خليفة ، له جاه الخلافة ، وعز السلطان ، اليكم ما كان بينه وبين « عقيل بن أبى طالب » أخيه مِما سمَّا فيه الحقُّ والعدل والمساواة ، حتى ارتفعت فوق القرابة وفوق الرحم .

* * *

كتب عقيل الى أخيه « على » رضى الله عنه ينصره ويؤازره ويفدّيه بنفسه وولده ، ويقول له : (أمَّا بعد ، فان الله جارُك من كل سوء ، وعاصمُك من المكروه ، وقد بلغنى أن بعض أنصارك قد خذلوك ، فاكتبْ الىّ ، يابن أمّ برأيك ، فان كنت الموتَ تريد ؟؟ تحمّلتُ اليك ببنى أبيك وَوَلَدِ أخيك ، فعشنا ما عشتَ ، ومتنا معك . فوالله ما أحب أن أبقى بعدك (فُواقا) [1] . وأقسم بالله الأعز الأجل ؛ ان عيشاً أعيشه فى هذه

(١) الفواق : ما بين فتح اليد وقبضتها على ضرع الناقة للحلب .

الدنيا بعدك ، لعيش" غير هنىء والسلام .

يصوِّر لنا هذا الكتاب ، كيف كانت وشائج القرابة بين الأخوين ، وكيف يُظَنُّ أنْ ربما طغت على النزاهة . وعلى قوة الخلق ؟!

أراد « عقيل » أن يَثِب من فوق قرابته وأخوته — الى مال المسلمين ، فجاء أخاه « عليًا » يستعطيه فوق عطائه ، وها هو « عقيل » نفسه يتحدث فيقول :

. جمعتُ صبيانى وجئت بهم « عليا » ، فقال ، ائتنى عشيةً لأدفع اليك شيئاً . فجئت يقودنى ولدى — وكان قد ضعف بصرى . فأمر « علىٌّ » أن يتنحَّى ابنى ، ثم قال : ألا فدونك ؟! فهويْت ، على ما أمامى ، وقد غلبنى الجشع أحسبها صُرَّةً ، فوقعتْ يدى على حديدة تلتهب ناراً . فلما قبضتُها نبذتها وخُرْتُ ، كما يخور الثور تحت يدىْ جازره ، فقال لى « على » : ثكلتك أمُّك ، أكل هذا من حديدة أوقدتُ لها نار الدنيا ؟! فكيف بى وبك غداً ان سُلكنا فى سلاسل جهنم ثم تلا قوله تعالى :

« اذ الأغلالُ فى أعناقِهِم وَالسّلاسِلُ يُسْحبُونَ فى الحَمِيمِ . ثمّ فِى النّار يُسْجَرُون » ثم قال لى ، ليس لك عندى فوق حقك الذى فرضه الله لك الا ما ترى ، فانصرفْ الى أهلك » .

أيها المستمع الكريم :

مَن شاء أن يعرف كيف تُكوِّن الثقافة الدينية أبطالا ، وكيف تنشِّىء الشمائل المحمدية أعزاء الرجال ؟ فلينظر شمائل « على بن أبى طالب » .

* * *

لقد بُعث « محمد صلى الله عليه وسلم » . و « علىٌّ » حَدَثٌ ، فكان ربيبَ النبوّة ، وعضواً فى الأسرة المحمدية ، أستاذُه القرآن الكريم ، وقدوتُه الرسول الأمين .

فأما شجاعته ونزاهته وصلابته فى الحق ، فقد بحثنا فيها عن وَشَل

من فيض . وأمّا علمه وفقهه ، فشيء قد انطوت عليه الصحائف ، وأودعته الكتب ، وحسبك من علم « علىّ » أن يقول « عمرُ » بن الخطاب فيه « لولا علىّ لهلك عُمَرُ !!! » . ويقول فيه « لا يُفتِى أحد فى المسجد وعلىّ حاضر » .

غير أننا نذكر « لعلى » بديهة من بدائهه العلمية : لولا أن شهودها هم شهود المسجد الجامع لكدنا نشك فيها .

* * *

وقف على يخطب ، ويعظ الناس فى المسجد الجامع بالكوفة ، فلما بلغ فى خطبته الى قوله : (والى الله المآب والرجعى) قام اليه رجل من طرف المسجد ، وصاح يستفتيه فى الميراث : ما نصيب زوجة كان معها بنتان وأم وأب ؟؟.. فتفهم « علىّ » الجواب وأجابه فى أسلوبه الخطابى . كأنما سياق الخطبة باقيا ، لم تؤثر فيه المقاطعة !! « صار ثمنُ الزوجة تسعا[1] !! » وذلك لايكبر على سليقة القاضى ، ونفوذ رأيه ، وحدّة فهمه .

* * *

أيها المستمع الكريم :

يتفاخر العلم الحديث ، وتذهب صيحاته كلّ مذهب فى حقوق الانسانية ، وفى مبادىء الدساتير . وانّ من الوفاء للحق أن نعرف لآبائنا ما كان لكتاب الله فيهم من تثقيف ، وعلم ، وخلق ، أجدَتْ على الانسانية أجيالا طويلة ، سعادة ونعيما وحقاً وعدلا .

ان (لعلى بن أبى طالب) دستوراً ، هو فى الحق أبو الدساتير . فهو يقرر حقوق الرعية . ويحدد السلطات ، ويحصّنُ القضاء ويحمى القضاة — حتى منع العزل — الذى يهتفون به اليوم ، كان مقرراً فى دستور

(١) حسبها (على) وعرف أن المسألة قد (عالت) على ما يعرفه الميراثيون الحاذقون .

« علىٍّ » منذ ثلاثة عشر قرنا — وهو الى ذلك صورة عُلْيا للسياسة الرشيدة — لم يدع شيئاً من فضائل الحُكم ، ولا كرائم الولاية . الا أتى عليها ، فيضاً مما تجيش به الفطر السلمية ، مطبوعا بالطابع الدينى الأسمى . هذا الدستور بعث به « علىُّ بن أبى طالب » الى واليه على مصر ، ليعمل به فى حُكْم البلاد ، وان شئت فهو دستور السياسة الاسلامية لرجل الاسلام « علىّ » . يقول : « علىّ » لواليه فيما يجب على الوالى لرعيته : —

« أشعرْ قلبك الرحمة بالرعية ، والمحبةَ لهم ، واللطفَ بهم ، ولا تكونن عليهم سبُعا ضاريا . تغتنم أكلهم . وأنصف الناس من نفسك ، ومن خاصة أهلك ، وممن لك فيه هوى من رعيتك ، فانك الا تفعلْ تظلم ، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمَه دون عباده » .

واستمعوا الى الفصل الذى عُقِدَ فى هذا الدستور لمقت الوقيعة والتجسس على الحكام انه يقول :

« وليكن . أبعدُ رعيتك منك وأشنأهم عندك . أطلبَهم لمعائب الناس ، فان فى الناس عيوبا ، الوالى أحق من سترها . فلا تكشفن عما غاب عنك ، ولا تَعْجَلَنَّ الى تصديق ساع ، فان الساعىَ غاشٌّ وان تشبَّه بالناصحين . ولا يكونن المحسن والمسىء عندك بمنزلة سواء ، فان فى ذلك تزهيدا لأهل الاحسان، وتدريبا لأهل الاساءة على الاساءة » . فيالها من أحكام دستورية ، امتزج فيها القانون بالخلق !!!

* * *

بعد هذا ، ننتقل الى ما عُنى به المشرع فى دستوره من رعاية خراج الدولة والرفق فى جباية الضرائب اذا ما أزمت آزمة .

اسمعوا اليه يقول :

« وتفقد أمر الخراج بما يُصلح أهله . فان فى صلاحه وصلاحهم صلاحا لمن سواهم . ولاصلاح لمن سواهم الا بهم ، لأن الناس كلهم عيال

على الخراج وأهله . وليكن نظرك فى عمارة الأرض أبلغ من نظرك فى استجلاب الخراج ، لأن ذلك لا يُدْرَكُ الا بالعمارة . ومن طلب الخراج بغير عمارة . أخرب البلاد ، وأهلك العباد ولم يستقم أمره الا قليلا . فان شكى الناس ثِقلا أو علة ، أو انقطاعَ شِرب ، أو غرقا اغتمر الأرض ، أو عطشا أجحف بها . خففتَ عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرُهم . ولا يثقلنَّ عليك شىء خففت به المؤونة عنهم فانما يؤتى خراج الأرض من اعواز أهلها » .

أيها المستمعون الكرام :

هل رأيتم سياسة عمرانية أنزه من تلك السياسة الاسلامية البارة !! وهل رأيتم حنانا من الراعى على رعيته . أبلغ من ذلك الحنان !!. اللهم أشهد !!!

ولننتقل من هذا الى ما يبهر علماء العدالة !!! حتى يتلفتوا الى الاسلام من وراء القرون ، وهو يبنى للعدالة وللقضاء الحصون المنيعة ، وينسج للقضاة دروعا واقيات !.

حصَّنَ علىٌّ القضاء ، وحمى القضاة ، من قبل أن تُعرف تلك المبادىء فى النُّظُم الحديثة . وتلك لعمر الحق عظيمة من عظيمات الاسلام . فاستمعوا الى « علىّ » وهو يقول :

« واختر للحكم بين الناس أفضلَ رعيتك فى نفسك ، ممن لا تضيق به الأمور ، ولا يكتفى بأدنى فهم دون أقصاه . وليكن القاضى أوقفَ الناس عند الشبهات ، وآخذَهم بالحجج ، وأقلَّهم تبرما بمراجعة الخصوم وأصبرَهم على كشف الأمور ، وأصرمَهم عند اتّضاح الحق . ممن لا يزدهيه اطراء ولا يستميله اغراء . وأولئك قليل . ثم أكثرْ بعد ذلك تعهد قضائه ، وأفسح له فى البذل . ما يزيل علته ، وتقل معه حاجتُه الى الناس ، وأعطه من المنزلة لديك مالا يطمع فيه غيره من خاصتك ، ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك ، فانظر فى ذلك نظرا بليغا » .

* * *

أيها المستمع الكريم :

أليس « علىّ » البطل الاسلامى أولَ من سن للمتشرعين قداسة القضاء وسموّه فوق جميع المراتب ؟. اللهم اشهد !! فانك تحصى والناس ينسون .

تلك بعض آيات الدستور العلَوِى ، وهذه عناوين كتبه ، وبالعناوين تعرف الكتب .

أفلا يحق لكل مسلم أن يرسل صيحته فى أقطار الدنيا وهو يهتف :

(أولئك آبائى فجئنى بمثلهم)

أيها القارىء الكريم :

وقد كان « علىّ » يوصى من يستعمله على الصدقات فيقول له :

« انطلقْ على تقوى الله وحده ، لا شريك له ، ولا تروعنّ مسلما ، ولا تجتازنّ كارها ، ولا تأخذن منه أكثر من حق الله فى ماله . فاذا قدمت الحى فانزل بمائهم ، من غير أن تخالط أبياتهم ، ثم أمض اليهم بالسكينة والوقار ، حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم ثم تقول : عباد الله ، أرْسَلَنى اليكم ولى الله وخليفته ، لآخذ منكم حق الله ، فى أموالكم . هل لله فى أموالكم من حق فتؤدوه الى وليه ؟ فان قال قائل : لا ، فلا تراجعه ، وان أنعم لك مُنْعِم فانطلق معه من غير أن تخيفه أو توعده ، أو تعسفه ، أو ترهقه فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة ، فان كان له ماشية ، أو ابل فلاَ تدخلها الا باذنه ، فان أكثرها له ، فاذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ، ولا عنيف به ، ولا تنفرن بهيمة ولا تفزعنها ، ولا تسوأن صاحبها فيها » .

* * *

تلك أثارة من سياسة « علىّ » ومن شاء أن يستزيد ، فالى آثار « على » وانها لجليلة ، وانها لخالدة .

المحاضرة الثالثة :

أين الرجل المؤمن
وكيف نعرفه ؟

في مجلس شيخ جليل ـ التثقيف الناقص ـ نظر المحدثين الى رجال الدين ـ انحراف عن خلق المؤمنين ـ عزة المؤمن ـ لماذا تفرقت الأهواء ؟ ـ حقيقة المؤمن ـ الاسلام والايمان ـ بذل النفس فى سبيل الايمان ـ فناء المؤمن لحياة مجتمعه ـ المؤمن سيّد ـ مثل عليا لذوى الايمان ـ بسالة محمد عليه السلام ـ جبن أبى جهل قبحه الله ـ رهبة الايمان ـ صفات المؤمنين من الموالى والأتباع ـ تكاليف الايمان ـ مقاييس المؤمنين ـ صراحة المؤمنين ـ ألا بذكر الله تطمئن القلوب .

* * *

أيها المستمعون الكرام :

حديثنا اليوم حديث اتّصل بين رجل صادق الايمان ، وبين فتى مهذّب ، ولكنه ضيّق التفكير ، وكان الحديث فى مجمع حاشد ، رأينا عنده كيف تتفجر ينابيع الحكمة من حكماء المؤمنين ، وكيف تأخذ الحجَجُ القوية كلَّ ضعيف اليقين ، رقيق الإيمان من أولئكَ الّذينَ « يَظُنُّون باللهِ ظَنَّ السَّوْء ، عَلَيهِم دَائِرَةُ السَّوْءِ » « وَما ظَلمهُمُ اللهُ وَلـكِنْ أنفُسَهُمْ يظْلِمُون » .

* * *

سمعتُ الحديث ، ووعيته ثم جعلت أتساءل : — أين نحن وأوصافَ المؤمنين من الرجال ؟ بل وأين انقطع الخلف وراء السلف ، نعم جعلت أتساءل أين ؟ أيْن ... واليكم أسوق مادار من الحديث :—

اعتدنا أن نسمرُ كل أسبوع عشيةً فى دار « شيخ » من الاشياخ المؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه .

كان هذا الشيخ فى مجلسه مهيب الطلعة حسن السَّمْتِ ، نافذ النظرة ، وانه من حلاوة شمائله ليجتذب الى حديثه أخلاطا وزمَراً يختلفون طرائق ، ولكنهم فى حضرته يعقدون الاجماع على أن « الشيخ » بقية السلف الصالح، وأن عنده لكل سائل سؤلا ، ولكل حيرة هدى — وفيه لكل نفس رَوْحٌ ونعيم — سمرنا على عادتنا ، وانعقد المجلس ، وتزاحم الوارد (والمنهل العذب كثير الزحام) فشرع الزائرون يأخذون بأطراف الحديث بينهم والشيخ يُصغى ولا يتدخل فى الحديث ، حتى أخذ الفتى المتهذّب يقصُّ على السامعين حكاية رجل ينتسب الى الدين فى أسلوب ناقد لاذع ، ختمه بقوله :—

آه ؟ لقد هان أمر المؤمنين على كثرة عديدهمْ وانفساح أوطانهم ، ولم يبق فيهم غير رجولة مسلوبة ، وأخلاق منهوبة ، فلا صدق فى القول !!! ولا سلامة فى الصدر !! ولا عفة عن الشهوات ، ولا حميَّة عند الحق !! حتى لقد اختاروا الحياة فى الباطل . على الموت فى نصرة الحق ، فمن أين أتاهم ذلك ؟ أمن ايمانهم ! وما انتهى الفتى الى هذا المقطع ، حتى اهتاج «الشيخ» فى مقعده ، وغضب غضبة ظهرت آثارها فى وجهه وصاح فى الفتى :—

كذب الظان ، وأخطأ الواهم ، وصدق الله العظيم :

(ولله العزةُ ولرسوله وللمؤمنينَ ولكنَّ المنافقين لا يَعلمُون) فما هان مؤمن وهو مؤمن ، ولا ذل صاحب ايمان بايمانه ، ثم جعل الشيخ يتدفق كما يتدفَّق النَّبْع الصّافى لا تأخذه حُبْسة ، ولا يقصرُ به بيان ، فلما سكت عنه الغضب قطع الحديث لِيَسْتجِمَّ . فقال الفتى أوَ هل يسمح شيخنا فيعرفنا :—

(لماذا وَهى بناء المؤمنين ، ولماذا تفرقت أهواؤهم ، وانفصمت عراهم ، وانصرفت عزائمهم عما يحفظ وجودهم ؟) فقطع الشيخ حديث الفتى وقال :

رأيتك أول الأمر وآخره تذكر المؤمن والمؤمنين والايمان . وأنت لا تحقق ما لتلك الالفاظ من معان علوية . معان تسيطر على النفوس ، وتصعد بها الى عروش العزة ، معان تهون صعاب الدنيا ، وتقرب الاقصى ، وتصغر العظائم وترخص كل عزيز حتى يصل المؤمن بايمانه الى أقصى حدود المجد والسؤدد !!!

قال الشيخ : — ومالك يافتى تلوك كلمات المؤمنين والايمان ، وتصغر من أمرهما عظيما خطيراً ، وأنت !!! أفلم تتدبر كيف تبجح الأعراب غداة أسلموا بادى الرأى . فانقادوا لمظاهر الاسلام ، وصلوا وصاموا ، ولكنهم لم يمتحنوا فى ايمانهم ولم يختبروا بشدائد الفتنة ، وتكاليف الأمانة العظمى ، ولم تمحص نفوسهم فى ميادين الجهاد . تبجحوا وتلك حالهم فقالوا « آمنا » فرد عليهم العليم الحكيم بقوله :

« قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم » ذلك بأن للمؤمنين أوصافاً ونعوتاً . فعلامة المؤمن أن يرخص نفسه ابتغاء مرضاة الله . فلا يعمل الا صالحا . ولا يقول الا حقاً ، ولن ترى ذلة ولا مسكنة ضربت على مؤمن ، ولا تلاقت مع ايمانه وليس يكفى أن تشاهد رجلاً يصلى ويصوم . ثم هو لا يشعر بوجود غير وجوده ، ولا يحس بأفق غير أفقه ، ولا يدرك واجبا عليه لأمته . ومع هذا كله تظنه أنت أو يظن نفسه هو مؤمنا ؟!! انما المؤمن من يعرف أن وجوده أوسع ، وعمله أشمل وأنفع . فهو بايمانه مسوق الى نفع الناس ، ودفع الأذى عنهم ، وهو يبادر الى المساهمة فى صيانة ملته واعزاز أمته بالمال والأعمال ، والدعوة الى الخير ومقاومة الشر ، ولو تطلب الأمر أن يبذل روحه فى هذا السبيل ...

قال الشيخ :— ولعلك يافتى قد عرفت شيئاً من جواب ما سألت ؟؟ على أنى باسط لك الأمر بسطا . فاعلم يابنى أن أخص صفات الايمان السيادة ، فالمؤمن سيد فى نفسه لا يخضع للقهر خضوع العبيد . وذلك

يجعله وفيا لعقيدته وفاء لا يتقلقل ولا يتخلخل ، وان شئت أن تتمثل وفاء المؤمن لعقيدته فتمثل « رسول الله محمدا صلى الله عليه وسلم » وقد ساوموه ليخون عقيدته ، وبذلوا له مباهج الدنيا ليترك دعوته ، فأباها عليهم ، نعم أبى وفاؤه الا فناءً فى الحق ، ولم يزدد الا صلابة فى منازلتهم وان اضطرب نظام الكون ، وان مادتْ الأجرام فى أفلاكها ، وان انتثرت الكواكب ، وان صارت الشمس فى يمينه والقمر فى يساره ... ما ترك هذا الأمر أو يظهره الله ...

قال الشيخ :— ان رأيت أيها الفتى الرجل يصمد للأحداث ويسخر بالأرزاء ويصبر على الايذاء صبر العزيز لا خضوع الذليل ، ويتحمل الآلام احتمالَ الشجاع لا رضوخ الجبان ، ان رأيت هذا الرجل فاعلم ، أنك ترى المؤمن حقا وتشاهدُ الايمان صدقاً . ثم تدبر يافتى قوله تعالى :

« الٓمٓ أحسِبَ النَّاسُ أنْ يُترَكُوا أنْ يقولُوا آمَنا وَهمْ لا يُفْتَنونَ ، ولَقَدْ فَتَنَّا الذينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الذينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبينَ » واذا أحببتَ أن تبصر مشهداً من مشاهد الأذى والابتلاء . يلقاها الدعاة المؤمنون . لتتعرف أىَّ شىء هو الايمان ؟ ومن هو الرجل المؤمن ؟ فأحضر قلبك صورة من الصور التى ابْتُلِىَ بها رأس المؤمنين ، وأكرم الخلق على الله سيدنا « محمد » عليه الصلاة والسلام .

حكى « ابنُ مسعود » من رواية البخارى قال : كنا مع رسول الله فى المسجد فقال « أبو جهل » ألا رجلٌ يقوم الى فَرْثِ جزور فيلقيه على « محمد » وهو ساجد ؟؟ فقام « عقبة بن أبى مُعَيْط » وجاء بذلك الفرث . فألقاه على « النبى » صلى الله عليه وسلم وهو ساجد ، فلم يقدر أحد من الذين كانوا بالمسجد على القائه عنه لضعفهم عن مقاومة عدوهم ، ولم يزل عليه السلام ساجداً حتى جاءت فاطمة « كريمته » فأخذت القَذَرَ ، وقذفت به عن ظهر « أبيها » .

فهل رأيت يابنىّ جبانة فى الأذى كجبانة هؤلاء ؟؟ الرسول الأكرم

منصرف الى صلاته مستغرق فى حضرة ربه ، ونظام الصلاة يحجزه عن الناس ولكنّ أعداءه يرضون بأن يكونوا من الحقارة بحيث يؤذونه على تلك الصورة المزرية . ولقد تتوق يابنى الى تعرف سطوة الايمان وخور البطلان، فاستمع : يوم كان « أبو جهل » يخطِر بين قريش فى كبريائه ، ويخرج عليهم فى جبروته وهو مع هذا ذو نفس ذليلة ، وفؤاد هواء استمع . تعلم أن المؤمن لا يتردد فى مطاردة الباطل مهما عظم شأنه ، وجلجل صوته . استمع لتلك القصة :—

ابتاع « أبو جهل » أجمالا من رجل يقال له « الأراشىّ » ثم مطله بأثمانها فجاء الرجل مجمع قريش يريد منهم العون على « أبى جهل » ليأخذ ماله عنده ، فأحبوا أن يسخروا من الرجل ، وأن يسخروا من « محمد » رسول الله — سخر الله منهم — فقالوا دونك « محمدَ بنَ عبد الله » فهو وحده ينصفك من « أبى جهل » وينصرك . وما أرادوا بهذا غيرَ الاغراء والايذاء .

جلس القوم يشهدون المعركة بين الفضيلة والرذيلة ، ويتعجلون السرور بظَفر الرذيلة ، ثم ذهب الرجل الى سيدنا « رسول الله » عليه الصلاة والسلام وشكا اليه « أبا جهل » فبادر ، واصطحب الرجل الى دار « أبى جهل » غير مبال بِلَدَدِ الخصومة وشدة العداء . دق « عليه السلام » الباب فصاح « أبو جهل » فى رعونة وارهاب . من الطارق ؟ فأجاب الطارق « محمد » فما انبعثت تلك الأحرف حتى كانت شُواظا من سعير ، يسفع ناصية « أبى جهل » أو صواعق أخرست لسانه ، واحتبست أنفاسه ، فخرج متخاذلا مُمْتَقَعاً لونُه فقال « عليه الصلاة والسلام » : أعط هذا حقه . وقد كانت تلك الكلمات من أمر الله الذى يقول للشىء كن فيكون !!! فما عاد «أبوجهل» المُمْطِل المخلاف !! بل خاطب الرجل فى لغة ليِّنة وقال : ابق هنا فى مكانك حتى تأخذ دينك ! عجبتْ قريش لما كان .!! وقالت « لأبى جهل » : ويلك يا أبا الحكم ما رأينا مثل ما صنعت . قال : ويلكم !!! « والله ما هوَ الا أن

ضَرب « محمد » على بابى ، حتى سمعتُ صوتاً ملئتُ منه رعبا . وكأنَّ فوق رأسى غولاً لا أريم معه » .

* * *

قال الشيخ : — أعلمتَ يافتى أن الايمان رهيبٌ رهبةً تتقطع لها نياط القلوب !!! وأن المبطل جبان خوّار . وان تبجح بالقوة ، وتظاهر بالجبروت؟ واليك يابنى صورة أخرى لأذيّة من الأذى كادت تمتد الى الحياة الشريفة. حياة سيدنا « رسول الله » عليه الصلاة والسلام ، فتلقّاها هازئاً بخصمه . محتقِراً لصنيعه . ايمانا بوعد الله الذى يقول : واللهُ يَعْصِمُك من الناس » .

روى البخارىّ فى صحيحه قال : بينما النبى صلى الله عليه وسلم فى حِجْر الكعبة اذ أقبل « عقبة بن أبى مُعَيْط » فوضع ثوبه فى عنق « رسول الله » فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل (أبو بكر) حتى أخذ بمَنْكبه ، ودفعه عن « النبى » صلى الله عليه وسلم وقال :— « أتَقْتلون رجُلاً أنْ يقولَ ربّى الله . وقدْ جاءَكم بِالبيِّنات من ربِّكم ؟! » فهل رأيت يافتى صنيع هذا الأحمق مع الرسول الأكرم كيف كانت لغة الحوار والجدل ؟ انها لغة وقحة آثمة ، لغة تتحدث بالأيدى والأرجل . لا بالدليل والبرهان .

سكت الشيخ برهة فقال الفتى المتهذب — قد رأيتُ وعلمت صوَر الايمان وصفات المؤمنين ولكن ياسيدى ، ذلك ايمان النبوّة ، وانى لأعرف كيف تتصل أسباب النبوات بالسموات ، فاذا أرْعَدَت السماء أو أبرقت غضباً للنبوة فليس على وجه الأرض الا مكبوب على وجهه ، أو صعق فى مكانه ، ولقد يطيب لى أن أعرف صفات المؤمنين الذين لم يتساموا الى مراتب النبوات .

قال الشيخ : ان الذى سمعتَ ورأيتَ صفةٌ لكل مؤمن ، وآثارٌ لكل ايمان . فليس مؤمناً الا من ابتُلىَ فى عقيدته فكان أنِفاً ، وأوذى فكان

مستعصياً على أنى مبادرك بصور لايمان الموالى والأتباع ، فستعرف أن الايمان متى حل فى القلوب ، وان كانت قلوب عبيد ، فقد حلّت معه فيها السيادة ، وقد يجعل الايمان منهم قادة أعزة صناديد .

* * *

كان « عمّار بن ياسر » و « صُهَيب » و « بلال » وأمثالهم يعذَّبون ليرجعوا عن دينهم ، فمنهم من كان يُكوى بالنـار حتى لتحسب أن تلك الأجسام قد تعاظمت على النواميس الطبيعية ، فيمرُّ بهم سيدنا « رسول الله » عليه الصلاة والسـلام . وهم أباة صابرون لا يشكون ولا يضرعون . فيقول لهم :— صبراً .. صبراً ، فان موعدكم الجنة » . وقد بلغ من فداحة التنكيل أن مات « ياسر » أبو عمّـار » أثناء العـذاب وسُلِّمَت أمَة « لأبى جهل » كى يعذبها ، فلم يألها عذاباً وايذاء حتى فى كرامتها . شتما وامتهاناً . الى أن ماتت مؤمنة تحت أثقال العذاب .

وكان « أمية بن خلف » يعذِّب بلالا عذاباً يُنضج الجلد . ويشوى اللحم : ثم يضع على ظهره صخرة ثقيلة ويقول له :— لا تزال هكذا حتى تموت ، أو تكفرَ بمحمد !!! وتعبد اللات والعُزَّى . فلا يزيد « بلال » على أن يقول : الله أحد ، الله أحد ...

* * *

قال الشيخ :— تلك يابنىَّ صُور المؤمنين ، وهذه بعض تكاليف الايمان . وانك فى صدر الكلام كنت تتحدث عن ايمان ، وعن مؤمنين فدونك . هذه المقاييس والموازين . فزِن كلَّ مدعى الايمان منهم ، امتحنْ بالأحداث ايمانهم ، وتَلَمَّح كيف تهون عليهم فى سبيل الله والحق أموالُهم وأنفسهم ؟ وكيف يتلقى الشدائد والأرزاء يَقينُهم ؟ فاذا ثَقُلت الموازين ، فلن ترى يومذاك غير المؤمِن عزيزا ، ولن تشهد غير المؤمنين أعزة . ولئن أعطيتنى

« يافتى » ايمانا من طراز ما سمعتَ ، ومؤمنا على مثـال ما علمت ، بطل عجبك ، وذهبتْ حيرتك ، ورأيتَ أمتك خير أمة أخرجت للناس ، وتيقنت صدق وعد الله ، — « وكَانَ حَقا عَلَيْنا نَصْرُ المؤْمنين » .

قال الشيخ :— وانى مرشـدك يافتى الى أن فساد المجتمع لا يجيئه الا من اضطراب الموازين ، التى توزن بها الرجال ، وخَلْعِ النعوت والألقاب على غير مستحقها . فأما لو استقامت الموازين ، واستوت المقاييس . ثم خفّتْ كِفَّات المنافقين !! فقد صلح المجتمع ، وسعد الأفراد ، وليس غيرَ الحاكم الصالح من يقيم بين الناس الموازين بالقسط ...

* * *

لقد وقف مرةً بعض أمراء المؤمنين يخطب الناس ، ويعظهم وينهاهم عن الفساد فى الأرض ، ويتوعدهم بأفدح العقوبات ، فقام اليه رجل منافق وقال مقالةَ المنافقين : «أشْهَدُ أيها الأميرُ لقد أوتيتَ الحكمة وفصلَ الخطاب» فأخزاه الأمير بقوله : كذبتَ . ذاك نبى الله داود يقول الله فيه :—

(وآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وفصْلَ الْخِطَاب) فراح المنافق على أثر ذلك يتعثّر فى نفاقه ...

ووقف رجل مؤمن شجاع فقال : « انما الثناء بعد البلاء ، والحمد بعد العطاء وانا لن نثنىَ حتى نبتلى » . فقال له الأمير : صدقت !!!..

قال الفتى المهذّب للشيخ :— والله ياسـيدى لقد أشعرُ الآن برقّة فى قلبى وبَعبرة تجول فى عينى ، وانى لأحسُّ حرارة الايمان فيما فتح الله به عليك ، ولعلّى الساعة قد فطنتُ الى سر قوله تعالى :

« إنما الْمُؤْمِنُون الَّذِينَ إذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلوبُهُم وَإذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زادَتْهُمْ إيمانا » .

المحاضرة الرابعة :

عيد المولد المحمدي السعيد

من قبل المولد الى بدء الوحى

لكل أمة عيد وذكريات كريمة ـ عيد الانسانية الأكبر ـ كيف كان المجتمع الانسانى قبل عهد محمد عليه السلام ـ فى الفرس ـ فى الروم ـ فى الهند ـ فى الجزيرة العربية ـ حاجة الانسانية الى الانقاذ ـ اختيار الأمة العربية منبتا للنبوة ـ نسب النبى عليه السلام ـ تنقله فى أشراف القبائل ـ الميزات التى عرفت لبعض أجداده ـ الالهامات التى أثرت لعبد المطلب ـ موقفه يوم الهجوم على الكعبة ـ كيف نذر عبد المطلب ذبح ولد من أولاده ـ عبد الله والفداء ـ نجاة عبد الله قدر من الأقدار ـ العظة الخالدة فى حادث الفداء ـ بناء عبد الله بآمنة ـ شرف محتدها ـ وفاة عبد الله ـ الليلة الموقوتة ـ البشرى ـ تسميته عليه السلام (محمداً) ـ الرضاع ونشأة البوادى ـ فى السادسة من عمره الشريف ـ وفاة أمه (آمنة) ـ ساعة الموت ـ مأثورات ـ تمام اليتم واكتماله ـ تعلق الجد بحفيده ـ وفاة عبد المطلب ـ رعاية الله وحياطته له ـ « محمد » عليه السلام فى شرخ الشباب ـ هم بأن يلهو فما لهى ـ الأدب الالهى ـ سؤال أبى بكر عن أدب النبوة ـ جواب الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم .

* * *

أيها المستمعون الكرام :

للأمم على اختلاف ألسنتها وألوانها أعياد بواسم ، ومواسم عزيزة ، وللشعوب المتباينة ذكريات كريمات ، تحرص على احيائها . وتحفل بتمجيدها على تضاعيف الزمن ، ومن قديم الآباد . غير أن العيد الانسانى الأكبر ، والموسمَ الروحى المشرق ، هو : عيد ميلاد سيدنا « محمد » بن عبد الله ، رسول الله ومجتباه الى الناس أجمعين ، عليه الصلاة والسلام .

منذ نيّف وأربعةَ عشر قرناً ، كان المجتمع الانسانى يعانى دوراً من أدوار الوهن والانحلال ، يكاد يشرف فيه على الفناء . كان يعانى وهناً فى العقائد، وفساداً فى العادات ، واباحة للمنكرات ، وافتناناً فى اللذات ، وامعانا فى العداء واحتيالا لاستلاب الحقوق ، وشغفاً بالحروب والغارات ، ومصادرة للعقول ، وتكبيلا للآراء ، واذلالا للنفوس وقسوة على الضعاف ، واستعلاء من كل جبار فى الأرض ، لا يحجزه قانون ، ولا يَزَعه وجدان . حتى لقد قام فى دولة الفرس — وكانت احدى الدولتين اللتين تسيطران على العالم — حتى لقد قام داعية وقاح ، فزعم أنه مبعوث من الله باباحة النساء والأموال للناس جميعاً ، وعرف هذا المذهب بمذهب (مانى ومَزْدَك) . ثم قام على عرش القياصرة — وهو العرش الثانى فى ذلك الزمان — كلٌّ من كانت تُرَشِّحه سيئاته ، وتندُبه مآثمه وخطيئاته كتلك التى سموْها الامبراطورة « تيودورة » وهى فيهم فضيحة الانسانية ، ومأثمةُ البشرية ، ومع هذا تعنو لها جباهُهم ، ويخر سجّداً أمامها القضاةُ والكهنة والقوّاد .

أما الديانتان السماويتان : النصرانية واليهودية ، فلم يكن قد بَقِىَ منهما الا رسوم رسمتها الأهواء ، وقامت عليها النزعات . فبلغ من عداء اليهودية للنصرانية يومذاك أن اشترى اليهود من الفرس ثمانين ألفاً من أسراهم ، ثم عرضوا رقابهم وبطونهم على الأسنة والحراب ذبحاً وتمزيقاً . فكان جزاء اليهود من الرومان ، أن امتهنت شعائرهم ، وبطلت أعيادهم ، وجحدت حقوقهم ، وألغيت مجالسهم ، وسنّت القوانين لاذلالهم وابادتهم ، وما نزلت الأديان الا للخير والمحبة والسلام .

* * *

وهناك فى أفسح رُقعة بالقارة الأسيَوية ، كانت الأمة الهندية قد تفشّى فيها الوباء الأخلاقى ، فعصف بالآداب والأخلاق والحياة والعفاف ، وأخذت تنتشر بينها مذاهبُ الاباحة الخسيسة . فليس على الكاهن الهندى من عار

اذا ما اختص نفسه بكل عروس فى أيامها الأولى ، زاعماً أنه يَبُثُّ فى الزواج البركة والخير والنماء . وليس الأمرُ غير الدنس والمحْق ، والضّعة ، والفحشاء .

* * *

أما فى الجزيرة العربية ، وبين القبائل البدوية ، فقد كان الخطب جللا والداء عياء .

كان فيهم فضائل ، لكنها اختلطت بالرذائل . وكان فى سجاياهم خير ، ولكن طغى عليه الشر ، فقتلُ النفس أيسر شئونهم . وتقطيع الأرحام أهون أمورهم ، يثورون لأوهى سبب ، ويشبُّون نيران العداوة والبغضاء بغياً وعدواناً . ينفرون من الذل ويمدون أيديهم الى أسبابه ، ويهربون من الموت ويتدافعون على أبوابه غلُظت أكبادهم ، وتبلد احساسهم ، حتى ليَئِدُون بناتهم صغيرات ، أو يمسكونهن على الهون كبيرات ، أو يدفعونهن الى البِغاء مكرهات . فاذا ما نظرتَ بعد الى خسة عقائدهم ، وسُخْف آرائهم ، رأيت سُبَّة العقل وسخرية الفكر ! رأيتهم يصنعون بأيديهم من (الحلوى) بعض آلهتهم ثم يعبدونها ، فاذا جاعوا يأكلونها .

هكذا كان المجتمع الانسانى يعانى فى مرضه النَّوْبة الآزمة القاضية ، ويتردى فى الهُوة الساحقة . فلا عدل ، ولا حق ، ولا طهر ، ولا عفاف ، ولا عقل ، ولا فكر ، ولا أمن . ولاسلام فكان من رحمة الله ومن عدله الأسمى أن يهيىء للانسانية العانية من يفك اسارها ويطلقها من أغلالها . ويجلّى لها حقيقتها ، ويطهر عقائدها ، ويعيد عليها حريتها وارادتها ، ويبلغ بها ما أعد لها من رقى وعزة وكمال .

* * *

أيها المستمعون الكرام : اختار الله من بين الأمم ، الأمة العربية لتكون

منبتاً لنبيه المختار ، ومنشأ لدينه القويم ، ومبعثا لهداية العالم ومَعْلماً لارشاد الناس كافة . ذلك بأن فى الغرائز العربية ، والطبائع البدوية ما يعين المصلح على أن يستنبت فيها فكراً مستقلا ، وحرية مهذبة ، وارادة حازمة ، ونفسا عزيزة ، وهمة عالية ، وبأساً شديداً ، وبدناً قويا ، وجنانا جريئاً ، ومساواة شاملة ، وذكاء لامعاً . وتلك آلات البناء للمصلحين ، وتهيئة لعمل الدين . ولقد يساعد على نمو تلك الفضائل ما كان للطبيعة العربية من ميزات ورثتها عن الأجيال ، وحفظتها عن الأقيال[1] . ففيها حرمة الجار ، وغوث الملهوف ، وحماية اللاجىء وفصاحة اللسان ، وبلاغة المقال ، هذا كله الى فِطَر سليمة غَشيَتْها الأدران ، واستعداد كامل ران عليه الفساد . فاذا تقشع الدَّرَنُ . وتكشف الفساد كان ذلك حريا بأن يجعل من الأمة العربيةَ قائدة الاصلاح ، ومهذِّبة الشعوب ، ومَدْرَج النبوة ، وموطن الدعوة .

* * *

أيها المستمع الكريم :

اصطفى الله نبيه محمداً عليه السلام ، واصطفى لمنشئه الأمة العربية ، ثم اصطفى منها أكرم قبائلها ، وأعرق بيوتها ، فكان نسبه الأزكى ، وهو يتنقَّل فى آبائه وأجداده نسبا كما وصفه البوصيرى :

نسبٌ تحسب العلا بِحُلاه ... قَلَّدتْها نجومها الجوزاء
حبذا عِقْدُ سؤدد وفخار ... أنت فيه اليتيمةُ العصماء
لم تزل فى ضمائر الكون تختار لك الأمهات والأباء

* * *

فكان من أجداده (كنانة) . وقد نقل « الحافظ » فى شرح البخارى :

(١) القيْل ـ الملك ـ وأصله قيّل والجمع أقْيال ...

« أن العرب كانت تحج الى كنانة ، لعلمه وفضله ، وكان على سنة (ابراهيم الخليل) لا يأكل وحده » ، وقد أثر له كما روى فى السيرة الحلبية ، حكم منسقة ، كتنسيق الدرر ، اذ يقول : « رب صورة تخالف المخبرة ، قد غرت بجمالها !! واختبر قبح فعالها ، فاحذر الصور ، واطلب الخبر » .

* * *

وكان من أجداده « مالك بن النضر » . وكان جليل الشأن ، عظيم الخطر ، حتى لقد أرخ العرب بموته ، وكان منهم « قصى » ، واسمه مجمع . جمع قبائل قريش بمكة ، وكانت له الحجابة ، والسقاية ، والرفادة ، والندوة ، واللواء . ومنهم « هاشم » وسمى كذلك لأنه أول من هشم الثريد وأطعم الناس فى السنين العجاف ، وكانت مائدته منصوبة طوال المواسم للواردين اليها ، والصادرين عنها . وجده الأقرب « عبد المطلب » وقد زاد على أبيه فكان من سماحته ، ووفرة كرمه ، وشرف انسانيته ، واكتمال رحمته : أن أطعم الوحوش والطيور !!! وهكذا كان « عليه السلام » ، يتنقل فى أصلاب السادة الغر الميامين ، هم سراة العرب ، وذؤابات القبائل .

* * *

أيها المستمع الكريم :

كان عبد المطلب مفطوراً على الخير ألهم نوعا من الاعتقاد ، فكان رجلا عظيما ، صغرت لديه أحداث الدنيا ، وألقى على روحه السكينة .

جاء « أبرهة الحبشى » ليهدم الكعبة المشرفة ، وعندها مجد العرب وتاريخهم ، وعليها صحف منشرة من فخارهم — جاء « أبرهة » يغزوهم فى عقر دارهم ، ومعه « الفيل » ارهابا لهم وتخذيلا لجموعهم ، فماذا فعل عبد المطلب ؟ قال : « ان للبيت ربا يحميه » ثم جمع آله وذويه وأخذ بالحلقة فى باب الكعبة وأنشد :

لهم ان المرء يمـ ـنع رحله فامنع رحالك

هكذا لجأ « عبد المطلب » الى رب البيت ، فى ثبات واطمئنان وتسليم ، فسمع الله لجيران بيته . وتخاذل الفيل : وأصحاب الفيل ؛ « ألمْ ترَ كيفَ فعلَ ربُّك بأصْحابِ الْفيلِ ، ألمْ يَجْعَلْ كَيدَهمْ فى تَضليلٍ ، وأرسَلَ عَلَيهم طَيراً أبابيلَ ، ترْميهمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سجِّيلٍ ، فجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مأكولٍ » .

ومن قبل ذلك كان «عبد المطلب» قد نذر لله : — لئن بلغ أبناؤه عشرة من الذكور ليذبحن واحداً منهم قربانا الى الله ، وقد كمل العدد ، وجاءته الهواتف فى النوم تستنجزه الوفاء بالنذر ، فراح يقترع بين أولاده على الذبيح منهم ، فأصابت القرعة ابنه « عبد الله » أحبَّ الأبناء الى أبيه ، وألصقهم بشغاف قلبه ولكن « عبد المطلب » رجل مفطور على الخير . وقد صغرت لديه أحداث الدنيا اذا ما رضى عنه الهه ... فلا بد له من أن يفىَ بنذره !!!

أخذ بيَدِ ابنه « عبد الله » الى المذبح ، وقريش يقيمها هذا الأمر ويقعدها ومكة تموج لهول المصاب المنتظر ...

أمام اضطراب قريش ، ورغبتهم أن يجيل « عبد المطلب » أقداحَ القرعة بين ابنه وبين فداء من الابل — أجال أقداح القرعة مرة ، ثم مرة ، وفى كلّ مرة ، تصيب القرعة « عبد الله » وتخطى الفداء ، وعبد المطلب يزيد فى الفداء حتى بلغ مائة من الابل فأصابتها القرعة وذبحها « عبد المطلب » قربانا الى الله ، وشكراً لِنِعَمه . ونجا من الذبح « عبد الله » .

أيها المستمع الكريم :

كانت نجاة عبد الله قَدَراً من الأقدار الالهية ، التى تحمل فى ثناياها عِظَة الحياة ورشد العقول . فلقد ظهر أن « لعبد الله » من الخطر الجسيم ، والأثر الخالد فى تلك الدنيا مالا يتسق والمُدْيَة فى يد أبيه « عبد المطلب » أمام المذبح . !!!

نعم لقد كانت قريش كلّها فى مناحة وأسى . ولكنّ الأقدار كانت ضاحكةً

مستبشرةً . بما أعدته لدنيانا من أفراح ، وأعياد ومواسم فى مقتبل الأيام .

أيها المستمع الكريم :

كان ذلك الحادث الجلل بملابساته وحواشيه وأعقابه بشيرا « بمحمد عليه الصلاة والسلام » ، بشيرا بسلامته ، وسلامة دعوته ، ووعدا من الله بنجاته ونجاة أمته ، وان اشتدت الخطوب ، وان فدحت الأرزاء . وان استحكم اليأس والقنوط ...

* * *

أيها القارىء الكريم :

كانت حادثة الفداء ، ونجاة عبد الله أبلغَ ما تكون الحوادث فى تنمية الحب بين عبد الله المفدَّى ، وبين أبيه ، ان كان قد بقى نَماء يصل اليه هذا الحب ، فما هو الا أن خطب (عبد المطلب) لابنه عبد الله سيدةَ قومها ، النَّقية المطهرة « آمنةَ بنتَ وهب » بن عبد مناف ، بن زهرة ، ابن كلاب . فهى تلتقى بعبد الله فى النسب الفارع الأطهر . ولم يمض على بناء عبد الله « بآمنَة » غيرُ يسير من الزمن ، ثم أعجلته الرحلة الى الشام ، للتجارة على عادة فتيان قريش ، فحضرته وفاته بالمدينة ، لدى أخواله بنى عدىّ بن النجار ، ولسيدنا محمد — عليه السلام — ثلاثةَ أشهر — حملا مستكنا .

* * *

تمت مدة الحمل . وكانت الليلةُ الموقوتة فى تاريخ الانسانية — الليلةَ الثانية عشرة ، أو التاسعة من شهر ربيع الأول ، عام الفيل ، فوضعتْه أمهُ « عليه السلام » فى دار أبى طالب بشِعْب بنى هاشم .

* * *

ولدته صلى الله عليه وسلم ، سليم الجسم ، مكتملَ الخَلْق • واضح القسمات ثم بعثت تبشر جده « عبد المطلب » بالميلاد السعيد ، وبالمولود المشرق • (وعبد المطلب) كانت لا تزال تعاوده أحزانه على ابنه عبد الله ، الذى مات نازحا غريبا •••

فلما جاء البشير بمولد الغلام ، أذهب الله عنه الأحزان ، فتهلل بشراً ، وأسرع الى الغلام المبارك ، فقبّله وسماه « محمداً » ونحر وأطعم ، وتصدق •

لم يكن هذا الاسم شائعاً فى العرب يومذاك ، ولكن عبد المطلب قد ألْهِمهُ الهاما • وعبد المطلب مُلهَم من قبلُ ، ومن بعد !!! •

أرضعته أمه ثلاثة أيام . وكان من عادة العرب ، أن يلتمسوا المراضع لمواليدهم فى البوادى ، ويرون ذلك أنجبَ للولد ، وأرهفَ للذهن ، وأبعدَ عن حياة الحواضر ، التى تورث الملل ، والترف ، واللين •

* * *

نزل مكة حينذاك نِساءٌ مرضعات يلتمسن أطفال قريش ، ومن بينهن « حليمة السعدية » وكانت فى جدْب وفاقة • فما ان ظفرت بالرضيع المبارك • حتى ظللتها البركات وأقبلت عليها الخيرات • !!!

فلما ترعرع عليه السلام فى البادية ، ظهرت عليه مخايل الخير وملامح البر •

فلما بلغ السادسة سافرت به أمه فى زيارة أخوال أبيه بالمدينة وبينما هى راجعة حضرتها الوفاة ، (بالأبواء) ، وهى قرية بين مكة والمدينة •

* * *

استمعوا الى أسماء بنت أبى رُهْم ، تروى عن أمها ساعة الوفاة ، قالت : « كانت آمنة أم النبى صلى الله عليه وسلم ، فى علتها التى ماتت بها ، وابنها محمد عليه السلام غلام ، يقعد عند رأسها • فنظرت آمنة الى وجهه ، ثم قالت:

بارك فيك الله من غـــلام !! يا بن الذى من حومة الحِمَام

فُودى غـداة الضرب بالسهام إن صح ما أبصرتُ فى المنام
فأنت مبعـــوث إلى الأنام تُبعث فى التحقيق والإسـلام
دين أبيـك البَرِّ إبراهـام فاللهَ انهـاك عن الأصـنام
ألاَّ تُواليها مع الأقوام

ثم قالت ، كلُّ حَىّ ميت ، وكلُّ جديد يَبْلى ، وكلُّ كبير يَفْنى ، وأنا ميتة" ، وذكرى باق ، وقد تركتُ خيراً ، وولدتُ طُهْراً » ثم ماتت ..

* * *

ومهما يكن من تقدير لرواية بنت « أبى رُهْم » عن أمها ، فان مما يعلو فوقَ الشكوك ، ويدخل فى حدود اليقين ، أن هناك شعوراً مقتبَساً من أعماق الحقيقة يتراءى لبعض النفوس الصافية الزكية ، كنفس آمنة المطهرة . فليس عجباً أن تتوسم فى قسمات طفلها كلَّ ما تضمنه نشيدُها الشِعْرى من آمال وأحلام !!.

* * *

عاد (محمد) عليه الصلاة والسلام الى مكة ، وهو صبى ، وقد تم له اليُتْمُ واكتمل ، فلم تبق حنية" من حنايا قلبه ، الا وقد خَلص حبها لجده « عبد المطلب » وكان « عبد المطلب » به شَغِفا ، وعليه حَدِبا ، فلم يكن يحلو له أن ينادِيَه الا بيا « ابنى » أو يتحدث عنه الا « بهذا ابنى » .

لكن « عبد المطلب » لم يعش بعد « آمنة » أكثر من سنتينْ . فمات و « محمد » عليه السلام يناهز الثامنة .

وهكذا تعهدت محمداً حياطةُ الله ، ورعَته عينُه ، فكان فى تلك السن ، وما حولها — أحسنَ قومه خلُقاً ، وأصدقَهم حديثاً ، وأعظَمهم أمانةً وأبعدَهم عن الدنس ، والفُحش ، وسَفْسَافِ الأمور .

بُغضت اليه الأوثان ، واخوانه عليها عاكفون . فلم يحضُر لها عيداً ، ولم يشهد لها موسما ، وكَرِهَ ماذُبِحَ على النصب فلم يَطْعَمْ له لحما ، وقال عليه السلام يتحدث عن نشأته :

« لما نشأتُ بُغّضت الىّ الأوثان . ولم أهُمّ بشىء مما كانت الجاهليةُ تفعله الا مرتين ، كان يحول الله بينى وبين ما أريد من ذلك ، ثم ما هممت بسوء بعدها حتى أكرمنى الله برسالته » .

« قلت ليلةً لغلام كان يرعى معى ، لو أبصرتَ لى غنمى ، حتى أدخلَ مكة فأسْمُرَ كما يسمُر الشباب ؟؟ فخرجتُ لذلك حتى جئت أولَ دار من مكة ، أسمعُ عَزْفاً بالدفوف والمزامير لعُرس فجلست لذلك ، فضرب الله على أذنى ، فنمت ، فما أيقظنى الا مَسُّ الشمس ، ثم عرانى مرة أخرى مثل ذلك » .

* * *

أيها القارىء الكريم :

ذلك النهج من السلوك ، انما هو التأهّل للنبوة والاستعداد للشأن الخطير ، هذا الجِد — فى عبث الشباب — انما هو ارهاص للمعجزات !!

وهـذا هو الأدب الإلهى ، الذى لم تجر العادة بأن تؤدّب به نفوس اليتامى .

قال « أبو بكر الصديق » يخاطب « محمداً » عليه السلام : « لقد طُفْتُ العربَ ، وسمعتُ فصحاءهم ، فمارأيتُ ولاسمعتُ مثلك أحداً .. فَمَنْ أدّبك ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أدّبنى ربى فأحسنَ تأديبى .. »

المحاضرة الخامسة :

محمد رسول الله

فى شبابه وبعثته

صيانة الله « لمحمد » من ذل اليتم ـ حفظه من مزالق الفقر ـ مخايل العزة فى طفولته عليه السلام ـ حلف الفضول ـ مساهمته فيه ـ اجماع أهل مكة على عفته وأمانته ـ اعراضه عن قرناء السوء ـ تجارته فى صباه ـ عمله فى مال خديجة بنت خويلد ـ صفات (خديجة) ـ عرضها التزوج بها ، على (محمد) صلى الله عليه وسلم ـ خطبتها له ـ الاحتفال بعقد الزواج ـ كلمة عمه (أبى طالب) فى يوم زواجه ـ آثار هذا الزواج فى الدعوة الاسلامية ـ مدة هذا الزواج ـ وقدة شبابه تقارن زواجه الأول ـ وفاؤه الكامل (لخديجة) ـ لم يعدد الزواج طيلة أيام (خديجة) ـ التعاون والتعاطف فى هذا الزواج ـ بلوغه عليه السلام خمسا وثلاثين سنة ـ السيل الذى صدع جدران الكعبة ـ الاختلاف على وضع الحجر الأسود ـ رأيه الحكيم فى ذلك ـ اختيار العرب (محمداً) للتحكيم ـ مقدمات النبوة ـ رؤياه المنامية ـ اختلاؤه بغار حراء ـ بدء الوحى ـ لقاء الملك ـ أول ما نزل من القرآن ـ كيف تلقى ذلك «محمد» عليه السلام ـ عودته الى خديجة ـ أكرم الزوجات ـ تلطفها بزوجها ـ دفع الخوف عنه ـ تهدئة نفسه الشريفة ـ الذهاب به الى (ورقة بن نوفل) ـ توقع (ورقة) لأحداث آتية ـ فتور الوحى ـ اشتياقه عليه السلام للوحى ـ تنظره للسماء ـ عودة الوحى ـ أول من استجاب لدعوة الحق ـ أمر الله له عليه السلام أن يجهر بالدعوة ـ نزول القرآن يدعو على (أبى لهب) ـ كلمته عليه السلام لآله وعشيرته وذويه .

* * *

أيها المستمعون الكرام :

نشأ « محمد » رسول الله صلى الله عليه وسلم يتيما فقيرا ، ولكنه

كان عزيزا ، كريما ، فاذا كان اليتيم يُذل نفسا ، أو كان الفقر ينكّس رأسا ، فلقد رفع الله نفس هذا اليتيم فوق النفوس ، ولقد أعلى رأسه على الرؤوس .

حكى « ابن هشام » أنه كان « لعبد المطلب » فِراشٌ يوضع فى ظل الكعبة تَكْرِمةً له ، وخصوصاً به ، فلا يجلس عليه سواه ، وبنوه يحفّون من حوله ، ولا يقربونه ، فكان « محمد » عليه السلام وهو غلام صغير ، يسير قُدُما حتى يجلس مَجْلِسَ «عبد المطلب » فيأخذه أعمامه ، ويؤخرونه ، فيرى ذلك « عبد المطلب » فيقول :—

« دعوا ابنى هذا ، فو الله ان له لشأنا ، ثم يجلسه معه على فراشه ، دون أعمامه ، ويمسح ظهره بيده ، ويسره ما يراه منه » .

هكذا كانت الأقدار تدفع به « عليه السلام » الى مراتب الشرف ، وتتجاوز به منازل اخوانه ورفقائه ، الى حيثُ ينبغى أن يكون رأسا جليلا عظيما ، وان كان لا يزال تبتا ناشئا صغيرا !.

واستمعوا ، كيف اتسع شبابه النضير ، للأمر الخطير ، لقد ساهم « عليه السلام » وهو شاب ، فى حِلف يسمى (حِلفَ الفُضُول) . وقد انعَقَدَ ، وتم فى بيت « عبد الله بن جُدْعان » التيمىّ أحدِ رؤساء قريش ، وكان المتحالفون بنى هاشم ، وبنى عبد المطلب ، وبنى أسد ، وبنى زُهرة ، وبنى تيم بنِ مُرة ، وتحالفوا وتعاقدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها ، أو من غيرهم من سائر الناس ، الا قاموا معه على ظالمه حتى يُرَدَّ الحقُّ الى نصابه .

وان هذا الحلف فى هذا المجتمع لعجيب !!! لكنه كان بقيةً من فضيلة لاتزال فيهم ، وقبساً من الخير يضىء بين أيدهم ، وليس أحق من الشاب « محمد » عليه السلام — ليساهم فى تربية الفضائل ، وهو الذى يقول بعد ذلك : « بُعِثْتُ لِأتمِّمَ مكارِمَ الأخلاق » .

ولقد تحدث عليه السلام عن هذا الحِلف ، بعد أن شرفه ربه برسالته

فقال « لقد شهدت مع عمومتى ، حلفا فى دار (عبد الله بن جُدْعان) . ما أحبُّ أن لى به حُمْرَ النَّعم (أى أعز أموال العرب) ولو دعيت اليه فى الاسلام لأجبْتُ » .

* * *

وان ذلك الحدث ، فى هذه السن لشاهد بأن فطرته التى فطره الله عليها ، فطرةٌ مبرّأ خيِّرَة ، بينها وبين كل خير ، وكل كمال ، أسبابٌ . وصلاتٌ . ووشائج !!!.

أيها المستمع الكريم :

لقد ذاعت فى مكة محامده (عليه السلام) ، وشاعت خلائقه بين الناس ، وسَمتْ به همّتُه فرأى ألا يكون — فى صباه المبارك — كَلاًّ على عمه (أبى طالب) ، ولا عالة يقتاتُ من فَضْلِ ما يجودُ به عليه ، رأى — عليه السلام — أن يعيش فى ظلال عمله وكده ...

* * *

ترامت أنباء صدقه وأمانته ، وبركته بين المضاربين فى أموالهم والمتّجرين فيها ، وانتهى ذلك الى « خديجة بنت خويلد » وهى فى قريش أعقلُ امرأة ، وأكمل عقيلة ، ولها مالٌ جمٌّ ، وتجارة واسعة ، فقالت تحدِّث نفسها : هل لى أن أنمِّىَ تجارتى على يد هذا الأمين الصادق ، الذى يتسامى كماله عن السن ، وتتعالى سيرته عن نزعات الشباب ، وتترفع نزاهته وطهارته عن القالات والشبهات ، ثم أرسلتْ اليه ليتجر فى مالها ، فقبل وسافر مع غلامها « مَيْسَرَةُ » فى تجارتها الى الشام ، وما ان عاد « عليه السلام » من رحلته ، حتى كان ربح التجارة وافراً ، وأخبار رحلته تسبقه الى مكة ، فتملأ شِعابها ، ويتنقل بها « ميسرةُ » فى أحيائها فيسمر عليها المكيّون ...

* * *

تَلَفَّتَتْ « خديجة » الى هذا الأمر ، ثم ترقّت أفكارها ، فتطلعت لأن تتصل بهـذا الأمين الصادق ، صلةً أوثق من « الاتجار » وأقرب من « المضاربة » فى الأموال ...

روى « ابن سعد » من طريق الواقدى عن «نفيسة بنت مُنْيَةَ» قالت : كانت « خديجة » امرأة حازمة شريفة ، مـع ما أراد الله بهـا من الكرامة والخير ، وهى يومئذ أوسط قريش نسبا ، وأعظمُهم شرفا ، وأكثرهم مالا ، وكلُّ قومها حريص على زواجها لَوْ — قَدَرَ على ذلك — أرسلتنى الى « محمد » عليه السلام دسيسا « مستطلعة » بعد أن رجع من تجارتها فى الشام ، فقلتُ يا « محمد » ما يمنعك أن تتزوج ؟؟ فقال : مَا بيدى ما أتزوج به . قلت : فان كُفيتَ ذلك ، ودُعيتَ الى المال والجمال والشرف والكفاءة ألا تجيب ؟ قال : فمن هى ؟ قلتُ « خديجة ؟! » فرضى عليه السلام وخطبها له عمه « أبو طالب » وقال فى خطبة الزواج (الحمد لله الذى جَعَلَنَا من ذرِّية ابراهيم . وزَرْع اسماعيل وضِئْضِىء[1] مَعَدٍ وعُنصر مُضَر ، وجعلنا حضَنَةَ بيته ، وسُوَّاسَ حرمه ، وجعل لنا بيتاً محجوجا ، وحرماً آمنا ، ثم ان ابنَ أخى « محمد ابن عبد الله » لا يُوزَنُ برجل الا رجح به ، فان كان من المال قلٌّ ، فان المال ظِلٌّ زائل ، وأمر حائل[2] ، « ومحمد » مَنْ قَد عرفتم قرابته !! وقد خطب اليكم راغبا كريمتكم « خديجةَ بنتَ خويلد » وبذل لها من الصداق من مالى ، ما عاجله وآجله — اثنتا عشرة أوقيّةً ذهبا — وهو والله بعد هذا ، له نبأ عظيم ، وخطر جليل) ..

* * *

تمَّ هذا الزواج الذى كان له أبعدُ الآثار فى تاريخ الدعوة الاسلامية ، (ولخديجة) يومئذ أربعون سنة ، وهى ثَيِّب تُوفى عنها زوجها (أبو هالة) ولسيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) خمسٌ وعشرون سنة . وقد

(١) الضئضىء : الأصل والمعدن . (٢) حائل : متغير .

اجتمع لهذا الزواج كلُّ معنى من معانى المودة ، والرحمة والوفاء ، والبر والحنان ، والسعادة والألفة ، وقد أولَدها « عليه السلام » جمع نسله ماعدا « ابراهيم » فانه من مارية[1] « القبطية » .

بقى رِباطُ هـذا الزواج الميمون وثيقا ، لا تزيده الأيَّام والسنون الا توثيقا وتدعيما ، فلم يشُبْ صفاءه شائبة ، ولا بدرت على طَوَالِ أيامه بادرةٌ ، يأوى محمد (عليه السلام) الى آله كلما حزَبتْه الشـدائد ، أو هزَّته الأحداث ، فلا يجد من زوجه الا ما يمسح عنه الأوصاب ، ويضع عنه الآلام ، ويفتح نفسه للفيض الربَّانى العظيم ...

أيها المستمع الكريم :

خمس وعشرون سـنة ، وفيها ميْعـة الصِّبا وعُنفوان الشـباب ، يقضيهـا هـذا السيد الأنزه الأكرم ، والرسـول المعظَّم (صلى الله عليه وسلم) فى بِيئة ، ان ارتقتْ عن السِّفاد ، فالى شر أنواع الزواج ، ومع هذا ، ! لا يُعرف عنه فى تلك السِّن الجامحة ، المامةٌ بمأثمة ، ولا نزعة الى معصية ، ولا عَبَثٌ كما كانوا يعبثون ، ولا طيش كما كانوا يطيشون ، ولو علم أعداؤه (وَهُمْ كُثرٌ) مغمزاً فى سيرته . أو انحرافا فى جادَّته . لطاروا بها . تشهيراً واعلانا . وتسفيها وايذاءاً ، ولكن هيهات هيهات !! فانها عصمة النبوات ..

أليس هـذا منتهى الكمال الانسـانىّ ؛ نهايةُ القَصْدِ فى الرغائب البشرية والعفافُ والتَّصونُ من الشهوات الدنيا ، والنزوات السفلى ، ألا ان تلك الشمائل هى من نعم الله التى امْتَنَّ بها على رسوله ، فقال له :ـ (وأمَّا بِنعْمَةِ ربِّك فحدثْ) ..

* * *

---

(١) مارية القبطية ـ احدى جاريتين ، أهداهما له ـ عليه السلام ـ المقوقس ـ عظيم مصر وحاكمها على عهده ـ صلى الله عليه وسلم ـ

بقى عليه السلام — مقيما على عهد الزوجية خمساً وعشرين سنة أخرى حتى أسْنَدَ فى حدود العِقْد السادس من عمره الأزكى ، لا تمتد عينهُ الى غير زوجه ولا يُشْرِكُ فى بيته سواها ، ولا يبغى بها بديلا ، حتى صارت شيخةً مكتهلة !! ولكن حبه لها لم يَزَلْ فَتِيا ، ذلك بأن محمداً (عليه السلام) انما يَشرعُ لنا بفعاله مقاصد الزواج ، ومعانيه العُلْيَا من التعاون والتعاطف ، والتراحم ، واقتسام أعباء الحياة لا مُجرّد المتاع .

ولقد بقيتْ كل هذه المناحى على تقدُّم (خديجة) فى السن ، سليمةً نامية قوية ، فوفى لها (عليه السلام) أقدس الوفاء وأكمله ..

كان وفياً لأيَّامها ، وفياً لذكراها وفيا لصديقاتها ، حتى لَقَّب عامَ وفاتِها (بعام الحزْن) ولقد بلغ من دوام ما يذكر (عليه السلام) مآثرَ (خديجة) أنْ كانت (عائشة) تغار منها ، وان لم ترها !!! قالت من حديث لها :— « لقد ذكر عليه السلام « خديجة » يوماً من الأيام ، فأخَذَتْنى الغَيْرةُ فقلتُ له : هل كانت الا عجوزاً ، قد أبدلك الله خيراً منها ؟ فغضب (عليه السلام) ثم قال : « لا . والله ما أبدلنى خيراً منها . آمنتْ بى اذْ كَفَرَ الناسُ ، وصدَّقتْنى اذ كذَّبنى الناس ، وواستْنِى فى مالها اذْ حرمنى الناسُ ، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء » .

* * *

أيها المستمع الكريم :

هذه أسرارُ الألفة فى الزواج ، وتلك منابعُ السعادة فى الأسرة ، فَلْيُحَوِّلْ راغبو الزواج مقاصدَهم عن اللذات الفانيات الى الرغائب الساميات .

(لقدْ كانَ لكمْ فِى رَسولِ اللهِ أُسْوَةٌ حسَنَةٌ ، لِمَنْ كانَ يَرْجو اللهَ واليوْمَ الآخرَ ، وَذَكرَ اللهَ كثيراً) (١) .

---

(١) سورة الأحزاب — الآية ٢١

أيها المستمع الكريم :

انظر بعدُ ، الى هذا العقل الكامل ، والى الحكمة المحمّدية ، لقد أسبغا على الانسانية عدلاً واحسانا !! ورفعا عن المجتمع جوراً وطغيانا !!

فلما بلغ « عليه السلام » خمسا وثلاثين سنة جاء سيلٌ جارف فصَدَع جدران الكعبة ، فأرادتْ قريش هدمها ، ورفعَها وسقفها ، لكنهم أشفقوا من الهدم ، اجلالا للكعبة ، واعظاما للبيت العتيق ، فتقدم (الوليد بن المغيرة) وبدأ فى الهدم ، وقال : (ما أردنا الا الاصلاح) فتبعه القوم ، ولمّا أخذوا فى البناء ، أعدّوا لذلك نفقةٍ ليس فيها مهرُ بَغِيّ ، ولا بيعُ ربا ، وجعل الأشراف من قريش يحملون الحجارة على أعناقهم وبينهم (العباس ابن عبد المطلب) و (محمد) عليه السلام — فلما انتهوْا الى «الحجر الاسود» وهو الرمز العتيق الأقدس ، الذى أسلمتْه الأيدِى الكريمةُ — أيدى « ابراهيمَ » و « اسماعيل » وديعةً فى ذِمام العرب ، وفى حياطةِ الأجيال — لمّا انتهوا الى وضع الحجر اختلفتِ القبائل ، وتنازع الأشراف ، وتعاظم تنافسُهم فى وضع الحَجَرِ مكانَه ولقد كبُر الخلاف ، وتشعّب حتى كادت تتأجّج نيرانُ حروب لا تنطفىء جُذاها ، ولا يُعْرف مداها ، فأدركتهم عندئذ (بمحمد) عليه السلام رحمةُ الله فتحاكموا اليه ، ورأى — ورأيُه الأحكم — أن يبسط رداءه ، وأن يضع فوقه الحَجَرَ الأسودَ ، وقال : (لتأخذ كلُّ قبيلة بناحية من الثوب ، ثم أمَرَهُم برفعه جميعاً ، حتى انتهوْا الى موضعه ، فأخذ بيده الشريفة ووضعه فى مكانه !!!) • وهكذا انطفأت الفتنة بأصالة رأيه ، وحقّ قوله تعالى : « وما أرسلناك الا رحمة لِلعالمِين » •

أيها المستمع الكريم :

رَضِيَتْ قريش بتحكيم (محمد) عليه السلام فى الأمر الجلل الخطير ، وما كان أسنّهم ، ولا أوفرَهم ثراءً ، ولكنّ شمائلَه قد

أعدته لعظائم الأمور ، وأمانته قد رفعته فوق حزازات الصدور ...

* * *

ولقد شهد له بكرائم المحامد ألدُّ أعدائه (النضرُ بنُ الحارث) من بنى عبد الدار حيث يقول فى ملأ من قريش :

« لقد كان (محمد) فيكم غلاماً حدَثا ، أرْضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثا وأعظمكم أمانةً ، حتى اذا رأيتُم فى صُدْغَيْه الشيبَ . وجاءكم بما جاءكم قلتم ساحر ! ؟ ولا والله ما هو بساحر » .

من هذا ترون أن سيرته الشريفة . قبل مبعثه . كانت فوق الظنّات ، وأسمى من أن تتعلق بها الشبهات .

* * *

فلما بلغ « عليه السلام » سن الكمال واستكمل الأربعين ، كان لا يرى رؤيا الا جاءت مثلَ ضوء الصبح ، ثم حُبّب اليه الخلاءُ والانفراد ، للتفكير والاستهداء ، الى معالم الحق ، فبينما هو (بغار حراء) متزوداً للاقامة أياما ، على عادته ، اذ جاء الوحىُ ، لسبع عشرةَ خلت من رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاده الشريف .

تمثل له الرّوح الأمين « جبريل » ولقّنه عن ربّه أفضل التنزيل . قال له : « اقرأ !! فقال ما أنا بقارىء !! — لا أعرف القراءةَ — كرر ذلك مرات — وكان المَلكُ بعد كل جواب يغطّه[1] . حتى يبلغَ منه الجَهدْ مبلغه ، وحكمة ذلك ، أن تتغلب فيه الرّوحانية ، على البشرية ، وليستعد لتلقى الفيوضات الالهية ..!!

فلما أرسله المَلكَ فى الثالثة قال له : « إقرأ باسم رَبِّك الذى خلَق ، خلقَ الإنسان من عَلَق ، إقْرَأ وَرَبُّك الأكْرَمُ الذِى علم بالقلم : علّم الإنسانَ ما لم يعلم »[2]

(١) يضمه إليه . (٢) سورة العلق .

أيْ كن قارِئا ، وان كنتَ أمّيا ، وذلك باسم ربك وبحوله وقوته وليس ذلك بمتعاظم على قدرته — تعالى — فهو الذى خلق الانسان الناطق ، من علق — من دم متجمد — ولم يكُ شيئا ، فهو أقدر على جعلك قارئا ، لآيات ربك ، وعلى تعليمك من الكتاب والحكمة ، مالم تكن تعلم ، كما علّم الانسان بالقلم ، وبغير القلم نواميسَ الكون ، وروائع الوجود .

رجع عليه السلام بهذه الآيات الى (خديجة) يرْجُف فؤادُه ، ولكنْ قد اكتمل رشادُه !! فقال زمّلونى زمّلُونى ، فزمّلوه ، ولفّفُوه بالثياب ، حتى ذهب عنه الروع ، فأخبر (خديجةَ) الخبرَ ، وبَثّها ذاتَ نفسه ، ورجا لديها العوْن ، واستطلع عندها الصواب ، وقال ، وروعةُ لقاء الملك لا تزال ماثلةً أمام عينيه : « لقد خَشيتُ على نفسى !!! » فما كان جواب (خديجة) ؟؟

استمعوا الى العقل الرجيح ، وانظروا الى النفحات العلوية كيف تتمثل فى الصُّوَر الأنسية — استمعوا الى أكرم الزوجات تدرك زوجها فى أحرج الساعات ، وتستنقذه عند اشتداد الحيرات ، انها تخاطبه فى ثبات الموقنات الصادقات . فتقول : « كلاّ والله ، مايُخْزيك اللهُ أبداً ، انّك لتصلُ الرحم ، وتحملُ الكَلّ ، وتكسِب المعدوم ، وتُعينُ على نوائب الحق » .

ثم شاءت (خديجة) ألاّ تدع سبيلاً ، يتسرّب منه الخوف الى فؤاد زوجها الأمين ، وأرادت أن تحقق صدق الهامها فى شأنه . فذهبت الى ابن عمّ لها اسمه (ورقةَ بنُ نوفل) وكان يكتب الانجيل ، وقد تنصّر فى الجاهلية !! فقالت له : « اسمع من ابن أخيك » فقصّ محمدٌ (عليه السلام) ما رأى وما سمع ، فابتدره (ورقةُ) وقال : « هذا هو الناموس [1] الذى نزّل الله على موسى ! ! ثم قال : (ياليتنى فيها جَذَعا [2] اذْ يخرجك قومك ! !) فعجب محمد (عليه السلام) أن يعاديه قومُه وهو فيهم اليوم ،

---

(١) الناموس — السر .
(٢) جذعا — شابا حلدا

المؤتمنُ المهيب ، والمستشار الأمين ، فقال لورقة : أوَ مُخْرِجِيَّ هم ؟؟ قال نعم . لم يأت رجلٌ قطّ بمثل ما جئتَ به ، الاّ عُودى ، وانْ يدركْنى يومُك ، أنصرك نصراً مؤزراً . ثم لم يلبث ورقة أن مات) .

* * *

أيها المستمع الكريم :

عاد « محمـد » عليه السلام ، وقد ذهب عنه الروْع وجاءته البشرى ، وأخذ يشتاق الى لقاء الملك ، لكنّ الوحى كان قد فتر ، بل انقطع زمنا ، ولعلّ ذلك لكى يشتد شوقه اليه ، وتتهيأ نفسه الى تلقّيه ، فلما تراخت الأيام ، عَظُم عليه الأمرُ وجعل يتلهف لملاقاة الملك ، ويأتى شِعاف الجبال ، حتى لقـد همّ بأن يقذف بنفسه ، خوفا من قطيعة ربه ، بعد أن شـاهد نور الحق ، ورأى نعمة الله الكبرى بما أُوحِيَ اليه ...

فبينما هو يستقبل السماءَ ويستوحى ، اذ سمع صوتا ، واذ هو صوت الملك المعهود ! ! فَرُعِبَ منه ، وذكر ما وقع له فى المرة الأولى ، وأسرع الى بيته وقال : دثّرونى ، دثرونى ، فأنزل الله تعالى « يأيّها المدثّر قُمْ ، فأنذِرْ » حذّر الناس من عذاب الله ، « وربَّك فكبِّرْ » خُصَّه بالتعظيم ، ولا تشرك بعبادته أحدا « وثِيابَكَ فطهِّرْ » نزّه نفسـك ، وَجمِّلْ ظاهرك ، « والرُّجْزَ فاهجُر » دعْ أسباب العذاب ، وتجنب ما يشوبُ الكمال .

* * *

أيها المستمع الكريم :

تلقى « محمد » عليه السلام تلك الأوامر ، ورأى أن الأمرَ جِدٌّ ، وماهو بالهزل ، وأن العربَ وأهلَ مكة ، أشدُّ الأقوام حفاظاً بتراث الآباء ، وتقديساً للأصنام ، وقدّر (عليه السلام) أن نجاحَ الدعوة ، يتطلب منه

الاسرار قبل الاعلان !!! فشرع يدعو الى دين الله فى خفاء وحذر ، فكان أول مستجيب له (خديجة بنت خويلد) زوجته ، (وعلى) بن أبى طالب ابن عمه (وزيد بن حارثة) مولاه (وأبو بكر الصديق) صديقه وخليله ، حتى اذ ما دخل فى الاسلام ثلاثون ونيف ، اختار لهم (عليه السلام) دار (الأرقم بن أبى الأرقم) وكان أحد الثلاثين الأولين ، ثم جعل يعلمهم الدين ، ويقرئهم القرآن الكريم ، واذا بالوحى يلاحقه ، حتى يبلغ به من سورة « الحجر » قوله تعالى : (فاصدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين) .

فما هو الا أن امتثل أمر ربه ، وصعد فوق الصفا ، فجعل ينادى : يابنى فهر ، ، يابنى عدى ، فجعل الرجل اذا لم يستطع أن يخرج ، أرسل رسولا ، لينظر الخبر ، وكان فيهم (أبو لهب بن عبد المطلب) فقال عليه السلام ، (أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدقى ؟ قالوا نعم ؟ ماجربنا عليك كذبا . قال :— فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد) فقال (أبو لهب) تبا لك !! ألهذا جمعتنا فأنزل الله فى شأنه : (تبت يدا أبى لهب وتب ....)

ثم التفت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الى عشيرته الأقربين فقال :

« ان الرائد لا يكذب أهله ، وانى لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعاً ما غررتكم ، والله الذى لا اله الا هو ، انى لرسول الله اليكم خاصة ، والى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالاحسان احساناً ، وبالسوء سوءاً ، وانها لجنة أبداً أو لنار أبداً » .

المحاضرة السادسة :

من قبل الهجرة

المكافحة فى سبيل الدعوة المحمدية

النبوة فوق البطولة ـ كفاح النبوة ـ ايقاظ العقول الغافلة ـ تحقير الاشراك بالله ـ الحق محفوف بالشدائد والخطوب ـ ضروب من الايذاء يلقاها المؤمنون ـ جموح المشركين فى عداوتهم ـ أئمة الكفر ـ بدؤهم ونهايتهم ـ اقتحام الحق لقلوب المعاندين ـ الآيات تنزل فى وصف المشركين ـ أصدق الحديث ولهو الحديث ـ لجوء الرسول الى الله كلما اشتد الكرب ، العدل الالهى ينكل بقادة المشركين ـ وعد الله يتحقق ـ جزاء الصابرين .

* * *

أيها المستمعون الكرام :

صفحةُ اليوم ، هى الصفحةُ « المحمدية » المليئة بالدروس والعظات ، والتى تجلّت فيها أسرار العظمة النبوية ، باهرةً ، جليلةً ، مجيدةً ، خالدةً . بل هى الآية الالهية الكبرى ، التى تُصَدِّقُ محمداً (عليه السلام) فى حديثه عن الله ، فليس أحد يقوم بمثل ما قام به ، ثم يَلْقى مالقِىَ من عَنَت ، وأهوال ، وشدائدَ ، ويبقى مع ذلك أميناً على عهده ، وفياً لدينه حتى يظهره الله على الدين كلّه — ليس ذلك الا أن يكون نبياً مؤيداً بشديد القُوى ، وأن يكون كتابه تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى .

كان أساس دعوته عليه السلام (التوحيد) وأنْ يقتلع الشركَ من جذوره فلا يُبْقى على شىء من هياكله المتداعية ، ولا يتسامح فى رسْم من رسومه الواهية (والهُكُمْ اله" واحد" لا إلٰه الا هُو) .

غير أن القوم من حوله كانوا أعداء ماجهلوا . وان كان سعادة ونعيما ، أحباءً ما ألفوا ، وان كان شقاءً وتعاسةً ، فأعدوا العُدّةَ ليصدوا عن سبيل الله ، وحشدوا كل ما استطاعوا من قوّة ، وبطش ، وغدر ، ودهاء ، وأعدّ لهم — رسول الله — « عليه السلام » من ثباتِ جنانه ، وصحةِ عزمه ، وصدق يقينه وصبر نفسه ، جيوشاً موصولة بجيوش ...!!

لم يكن المشركون على بصيرة من اشراكهم ، ولا على بيّنة من عقائدهم وانما كانوا يقلدون آباءهم ، فانطلق « عليه السلام » يسفّه أحلامهم ، وينعِى عليهم فسادهم ، ويحقّر آراءهم ، ويقبّح تقليدهم ويتحدث اليهم بخطاب الله :

« وإذا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللهُ ، قَالوا بَلْ نَتَّبِـع ما أَلْفَيْنَا عليه آباءنا ! ! أو لَوْ كانَ آباؤهم لا يَعقلونَ شيئاً ولا يهتدُون » (١) .

* * *

« وإذا قِيلَ لَهُم تَعالَوْا إلى ما أَنْزَلَ اللهُ وإلى الرّسول ، قالوا حَسْبُنا ما وَجَدْنا عَلَيه آباءنا ! ! أوَ لوْ كان آباؤُهم لا يعلمونَ شيئاً ولا يهتدون » (٢) .

« وإذا قيل لَهُم اتَّبعوا ما أنزل اللهُ قالوا بلْ نَتَّبِـع ما وَجَدنا عليـه آباءنا ، أوَ لَوْ كان الشيطانُ يَدْعُوهم إلى عذابِ السَّعير ؟؟ ! » (٣) .

* * *

بمثل ذلك الخطاب ، كان لسان الوحى يقرّعهم ، ويؤنّبهم ، فما هو الاّ أن هاج هائجهم ، فخرجت أصغانهم ، وطاشت ألبابهم ، وراحوا يَتَفَنَّنُون « لمحمد » — عليه السلام — فى طرق الايذاء ، ويعرضون عليه مُغرِيات الدنيا لِيَكُفَّ عمّا هو بسبيله ، وما دروا أن دنياهم كلّها ، ومتاعهم جميعه ، انما هو دَبْرٌ اذْنِه — صلى الله عليه وسلم — وتحت

(١) سورة البقرة : الآية ١٧٠ . (٢) سورة المائدة : الآية ١٠٤ . (٣) سورة لقمان : الآية ٢١

قدمه ، وأن قرّة عينه ، وراحة نفسه ، أن يُعلىَ كلمة الحق ، وأن يغسل أدران الانسانية ، وأن يبشر بالحسنى وأن يدعّم الفضيلة ، وأن يؤدىَ رسالته كما أمره الله ...

لهذا أخذ — عليه السلام — يستقبل المحن ، ويتلقى التّعويق — علياً فى نفسه عزيزاً فى قبيله ...

كان أبو جهل قبحه الله — عدواً لنفسه ، وعدواً لمحمد — عليه السلام — وكان فيه جبروت" ولكنه جبروت ذليل" ، لا يتماسك أمام رهبة الحق ، فكان كلما لقى « محمداً » عليه السلام يتعبد بجوار الكعبة ، نهاه عن عبادته وعن صلاته ، فشاهده مرة يصلى ، فقال له : ألم أنهك عن صلاتك هاهنا ؟ وما كان لمحمد — عليه السلام — أن ينتهىَ لنهى (أبى جهل) ولا أن يعبأ بهذا الغرور الطائش ، فأغلظ « لأبى جهل » فى الرد ، وحذّره ، وتهدّده فعزّ على (الطاغوت) أن يسمع أسلوب التهديد ، وسرتْ فى نفسه حميّةُ الجاهلية ، وخُيل اليه أن مالَهُ وعديده يغنى عنه شيئاً ، فقال « يامحمد ، أتهدّدنى ، وأنا أعزّ أهل الوادى ناديا ؟ فنزل الوحى بقوله تعالى :

« أرأيْتَ الذى يَنهى عَبْداً إذا صَلّى ؟ أرأيْتَ إن كانَ على الهُدَى ، أوْ أمرَ بالتقوَى ، أرأيْتَ إنْ كَذّبَ وتولّى ، ألم يَعلمْ بأنَّ اللهَ يَرَى ، كلا ، لَئِنْ لمْ يَنْتهِ لَنَسْفَعَنْ بالنَّاصِيَةِ ، ناصيةٍ كاذبةٍ خاطئةٍ ، فليَدْعُ نادِيَهُ ، سندْعُ الزَّبانِيَةَ ! ! كَلاَّ ، لاَ تُطعْه واسْجُدْ واقْتَرِبْ » .

* * *

أيها المستمع الكريم :

لقد كانَ عليه السلامُ يَغْشَى مجتمعاتِ قريش ، وَهمْ ألدّ أعدائه ويتحرى لِقَاء رؤوسهم ، ليصارحهم بآرائه ، لا تأخذه منهم رهبة" ، ولا يقيم لجبروتهم وزنا ، واستَمِعُوا كيف كان « عليه السلام » حريصا عليهم مغنِياً بهدايتهم .

أوْلَم (عقبةُ بن أبى مُعَيْط) وليمةً دعا اليها رؤوس الكفر ، وصناديدَ الاشراك ، وكان (عقبة) على فجوره وطغيانه جاراً « لمحمد » عليه السلامُ . فدعاه فيمن دعاه ، فلبى الدعوة ، ولما صار فى دار (عقبة) ودُعىَ الى الطعام ، خاطب عقبة ، فقال :

« لقد أجبتُ دعوَتك ، ولكن لا آكل لك طعاماً ، حتى تؤمن بالله »

فنطق (عقبةُ) بالشهادة ، وانتهى أمر هذا الحادث الى (أبىِّ بنِ خَلَف) الجُمحىِّ ، وكان صديقا (لعقبة) . فقال له ، ماشىءٌ بلغنى عنك ؟ فقال : لا شىء . دخل دارى رجلٌ شريف ، فأبى أن يأكل طعامى حتى أشهدَ له ، فاستحييتُ أن يخرج من بيتى ولم يطعمْ ، فشهدت له ، فقال (أبَىّ) : وجهى من وجهك حرامٌ ، ان لقيتَ (محمداً) فلم تطأ عُنُقَه وتلطم وجهه !!! ، فلما رأى (عقبةُ) رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اعتدى عليه ، كما أراد خليله فأنزل الله فى سورة الفرقان :

« وَيوْمَ يَعَضُّ الظالمُ على يَديه ، يَقُول يا لَيْتَنى اتخذتُ معَ الرَّسُولِ سَبيلاً ، ياوَيْلتا لَيتَنى لَمْ أتخِذ فُلاناً خَلِيلاً ، لقدْ أضلَّنى عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إذْ جاءنى وَكانَ الشَّيْطَانُ للانسان خَذُولاً » .

وحَسْبُ (أبىِّ بنِ خلف) أن يُقْرَنَ مع خليله فى صَفَد من أصفاد جهنم ، تغمره الندامة !! بعد أن صار سَلَفاً ومثلاً للآخرين . نعم ضُرِبَ مثلاً لقُرناء السوء ، وأحلاف الرذيلة ...

لم يقف القوم فى عدائهم عند حدٍّ ، ولا أجملوا يوماً فى الرد ، بل كانوا جامحين جموحا جاوز المدى ، واتخذوا من العداء العام سبيلاً لانكار حقوق المسلمين الخاصة ، واستباحة أموالهم ، فى استخفاف وتهكم وازدراء .

★ ★ ★

كان لرجل من المسلمين المستضعفين اسمه (خبَّابُ بنُ الأرَتّ) دينٌ على (العاص بن وائل) من كبراء قريش ، فتقاضاه دينه ، فقال له

العاص : أليس يزعم (محمد) هذا الذى أنت على دينه ، أن فى الجنة مايبتغى أهلها ، من ذهب أو فضة أو ثياب ؟ قال خباب : بلى . قال : فأنظرنى الى هـذا اليوم ، فسأوتى مالا وولدا ، وأقضيك دينك ، فأنزل الله فيه من سورة مريم :

« أفرأيْتَ الذى كَفرَ بآياتنا وقالَ لأُوتينَّ مالاً وَوَلدا ، أطّلعَ الغيب ، أم اتخذَ عند الرحمنِ عَهْداً ؟ . كلا . سنكتب ما يقولُ ، ونمُدُ لَهُ من العذاب مَدًّا ، وَنَرِثُهُ ما يقولُ وَيأتينا فرداً » .

* * *

أيها المستمع الكريم :

حسْبُ (العاص بنِ وائل) أن تبقى قصتهُ على خلودِ الذكر الحكيم أسلوباً مُمْتِعا يتهكَّمُ به القدَرُ ، ويسخرُ منه كل مؤمن فى تهكم !!.

* * *

ولقد كان بعضهم ، ومنهم (الأسودُ الأسدى) يجلس على قارعة الطريق فاذا مرّ به المسلمون ، وهم قليلون ، تغامز بهم ، وضحك منهم ، فلا يزيدُهم ذلك الا احتقاراً للمستهزئين سُمُوًّا بنفوسهم ، وترفعا بأخلاقهم ، وأىُّ شرف أعلى من أن تنزل الآياتُ الكريماتُ ، تبثُّ محامدَهم ، وتنشر على الدنيا محاسنهم ، ثم تبشرهم بكريم الرُّجعى ، وتنذر خصومهم بسوء العقبى :

« إنَّ الذين أجرَموا كانوا مِن الذين آمنوا يَضْحكونَ ، وإذا مرُّوا بهم يَتغامزُون ، وإذا انقلبُوا إلى أهْلِهمُ انقلَبُوا فَكِهينَ ، وإذا رأوْهُمْ قالوا إن هؤلاء لضالون ، وَما أرسِلوا عَلَيهمْ حافظين !! فاليومَ الذينَ آمنوا من الكُفَّار يَضْحَكُون ، على الأرائكِ يَنظرون ، هل ثُوِّبَ الكفَّار ما كانوا يفعلون ؟ » .

* * *

أيها المستمع الكريم :

لم يكفِ هؤلاء المشركين المناكيد ، أن صرفوا أنفسهم عن الحق — بل كانوا يَسْعَوْن فى آيات الله معاجزين — فاذا سمعوا أن فلاناً يستيقظُ وجدانه . أو يتفتح قلبُه لشعاع من الخير ، أخذوا عليه المسالكَ وقعدوا له كلَّ مَرصد ، حتى يجعلوا بينه وبين الفضيلة سداً حصينا .

كان (الوليد بن المغيرة) عمٌّ (أبى جهل) من عظماء قريش ، وهو فى سَعَة من العيش ، وقد كان للحق أحياناً انطلاقٌ على لسانه ، ولكنَّ كبرياءَهُ وحرصَهُ على مكانته فى قريش ، كانا يقذفان به الى حيث يتلمس الخلاص من سلطان الحق ! .

سمع « الوليدُ » القرآن مرة من (محمد) عليه الصلاة والسلام — فقال لقومه من بنى مخزوم : (والله لقد سمعتُ من (محمد) آنفا كلاما ، ما هو مِن كلام الانسِ !! ولا من كلام الجن ، وان له لَحلاوة . وان عليه لَطلاوة ، وان أعلاه لمثمر ، وان أسفلَه لمُغْدِق . وانه يعلو . وما يُعلَى) قال (الوليد) ذلك وتسامع به قريش ، فكبر الأمرُ عليهم ، وفزِعوا الى أنفسهم !!! وتصايحوا ، لقد صَبأ الوليد ! الى دين (محمد !) فانبرى (أبو جهل) يعالج الأمر فى أوله ، وقال أنا أكفيكُمُوه ...

ذهب (أبو جهل) الى (الوليد) وجلس أمامه حزينا ، مكتئبا ، ثم مازال به حتى هاجَهُ . وأحمى أنفَه ، فانتقل (الوليد) الى مجمع «قريش» . واذا هو قد أعدَّ وهيأ مقالةَ السوء ، يقطُر منها اللؤم ، فقام وسط الجمع وقال : تزعمون أنَّ محمداً مجنون ! فهل رأيتموه يهوِّس ؟ وتقولون انه كاهن ! فهل رأيتموه يتكهن ؟ وتدعون أنه شاعر ! فهل سمعتموه يتعاطى الشعر قط ؟ وتزعمون أنه كذَّاب ! فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب ؟ فقالوا فى كل ذلك : — اللهم لا ، ثم صاحوا به اذاً فما هو ؟ ففكر قليلا ، ثم قال : ما هو الا ساحرٌ !!! أما رأيتموه يفرِّق بين الرجل وأهله ، والوالد وولده ، والسيّد وعبده ، فارتجَّ النادى فرحاً بالأسلوب اللئيم المُتَدلِّى !! الذى يتساقط من فم الوليد ...

ولقد كان « الله » يحصى مآثم « الوليد » ثم يلبسه اياها ، ويسمه بها فقال تعالى : —

« ذَرْنى ومنْ خَلقتُ وَحيداً ، وَجَعلتُ لهُ مالاً ممْدوداً ، وَبنِين شُهُوداً ، ومهَّدْتُ لهُ تمْهيداً ، ثم يطْمعُ أن أزيدَ . كلاّ ، إنه كانَ لآياتنا عنيداً ، سأُرْهِقهُ[1] صَعُوداً ، إنه فكَّرَ وقدّرَ ، فقتِلَ كيفَ قدَّرَ ، ثم قُتِلَ كيف قدّر ، ثم نظرَ ، ثم عبَسَ وبَسَرَ ، ثم أدْبرَ واستكْبرَ ، فقال إنْ هذا إلاّ سِحرٌ يُؤْثَرْ ، إنْ هذا إلاّ قوْلُ البشَر ! ! ! سأُصْليهِ سَقَرَ » .

* * *

أيها المستمعون الكرام :

لقد كان من شرِّ الآثام التى كان الباطل يَعْمَدُ اليها ، ويحاول أن يُلَبِّسَ بها على الحق — ما كان يفعله (النَّضرُ بن الحارث) من بنى عبد الدار .

لقد كان يجلس قُبَالةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاذا رآه يتلو القرآن وينشرُ أعلام الحق ، قال للملأ من قومه : — يامعشر قريش ، هلموا الىّ ؟ فانى أحْسَنُ من « محمد » حديثاً ، ثم يشرع ، فَيُلفِّق حديثا عن ملوك فارس ، ويقُصُّ أقصوصةً من أقاصيصهم ، وكان (النضر) لبقاً فى هذا الباب لباقةً شيطانيةً ، فنزل القرآن ، يَدْمَغُه ويشّهر به ، ليكون الصورةَ الواعظةَ لكلِّ من يشترى الضلالة بالهدى ، قال تعالى :

« وَمِنَ النَّاس مَن يَشترى لَهوَ الحديثِ لِيُضلَّ عَن سَبيل الله بغيْرِ علْمٍ وَيتخذَها هُزُواً أولئك لهُم عذابٌ مُهينٌ ، وإذا تُتْلى عليه آياتُنا ولَّى مستكبراً كأنْ لَم يَسْمَعْها كأنَّ فى أُذُنَيْهِ وَقراً فَبَشِّرْهُ بعذابٍ أليم » .

* * *

(١) سأكلفه عناء ومشقة .

هكذا . هكذا ، كان الباطل يطارد الحق ، وكان يبتدعُ الأساليب فى محاربته !! والحقُّ وادعٌ ساكن . لا يطيش ، ولا يَرْهَب ، وكلما تجمعت السفاهة وتلاقت النزوات ، كان « عليه السلام » يناجى ربه : « اللهمَّ انّى أشكو اليك هَوانى على الناس ، أنتَ ربُّ المستضعفين ، وأنتَ ربّى ، الى مَنْ تَكِلُنى ؟ انْ لم تكن ساخطاً على فلا أبالى » .

أرأيتم كيف تُستعذَبُ الآلام على مرارتها ؟ لكىْ ينتصرَ الحق ويطمئن الضمير ، ويرضى الله ، ولقد رضى الله وصدق وعده ..

* * *

« إنا كفيناكَ المستهزئين الذين يَجْعَلونَ معَ اللهِ إلٰها آخرَ فسَوْفَ يعلمُون » وانظروا . كيف كانت عاقبةُ أمرهم ؟؟ لقد قُتِل (أبو جهل) و(النضر ابن الحارث) و (عقبةُ بن أبى مُعيْط) وكلهم مَهينٌ ، ذليلٌ ، يَخِرُّ لوجههِ بين الأسنَّة والرماح الاسلامية .

ومنهم من أصيب بشرٍّ ألوان المرض ، حتى عُذِّب فى الدنيا ، وغادرها تشيعه همومُه وآلامه ، وتملأ نفسَه الحسرةُ والندامة (كأبى لَهَب) و (العاص ابن وائل) و (الوليد بن المغيرة) ...

* * *

أيها المستمعون الكرام :

لقد صدق الله وعده ، ووفى اللهُ الصابرين أجرهم ، فمكَّن لهم فى الأرض ، وظهر مصداق الآية المُبَشِّرَة .

« وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ على الذينَ اسْتُضْعِفُوا فى الأرض وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّة وَنَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ » .

المحاضرة السابعة :

تألق الدعوة الإسلامية
فى آفاق الدنيا

سريان الدعوة وانتشارها ـ الخلق والفضيلة يسايران الأسلحة والجيوش ـ المسلمون يغزون أعداءهم بفضائلهم ـ الدعوة الصاعدة والدعوة الساقطة ـ دعاة صادقون ودعاة مهرّجون ـ الصفات التى لازمت النبوة ـ الثبات ، الصبر ، الصلابة ، التضحية ـ حقارة الأعراض الدنيوية ـ الشجاعة الاسلامية العقائد تسمو على القرابات ـ البذل والسخاء أخص صفات الايمان ـ مثل من السخاء الاسلامى ـ لا يجتمع ايمان وحقد ـ سماحة المسلمين ـ العفو بعد المقدرة .

* * *

أيها المستمعون الكرام :

سطعتِ الدعوة الاسلامية ، وتألّقَتْ فى آفاق الدنيا . وقد سارت معها فضائلها ، وذاعت محامدها ، فأينما وقع شعاع منها ، فقد سطعتْ معه الفضيلة الاسلامية ، وانبلجت لديه الشمائل المحمدية ، فمن شاء أن يعرف كيف بسط الاسلام جناحيه على المعمور من الكون ، وكيف استطاع أحد خلفائه أن يصوِّر للناس بسطةَ المُلك الاسلامى ، وترامِىَ أقطاره ، فلم يجد غير أن يخاطب « السحابة » التى تمرّ به ولا تمطرُه ، فيقول لها : — « أمطرى حيث شئتِ ، فان خراجك سيُحمل الينا !! » .

مَن شاء أن يعرف كيف كان ذلك كله ؟ فليوقن ، أنها الفضائل ، والسجايا والأخلاق الاسلامية ولا شىء سواها ...

فما الجيوشُ المتكاثفة ، ولا العُدة المذخورة ، ولا السيوف الملتمعة ولا السهام ولا القسىُّ ، ولا الرماح — ما كلُّ ذلك بكاف فى غزو أمة .

ولا فى انشاء دولة اذا لم تسعده الفضائل ، وتمدّه المحامد ، ويشيع فيه الخلق العظيم ، وكذلك كان الاسلام ، وكذلك كان المسلمون الأولون .

* * *

كانوا يغزون بفضائلهم نقائصَ أعدائهم ، وكانوا يغالبون بأخلاقهم مالا يفعل الحديد والنار ، فمن أول الفضائل التى ارتكزت عليها الدعوة الاسلامية ثم طالت وسَمَقَتْ — فضيلة الثبات على الحق — ثباتٌ أعيا القُوَى ، وفكّك العُرى ، وترك الأعداء حيارى يتخبطون !

* * *

آذوا صاحب الدعوة « عليه السلام » حتى كادَ يَنْفَدُ الايذاء ! فما أجدى عليهم ، فرجعوا الى أنفسهم ، واستلهموها ؟ الامَ يرمى صاحبُ دعوة بدعوته ؟؟ فألهمتهم شهواتُ نفوسهم ، وأصداءُ رغائبهم ، وأصوات عوالمهم التى يعيشون فيها — ألهمتهم — أن الدُعاةَ انما يطلبون بدعوتهم جاه المُلك ، أو كنوز المال ، أو سؤدد الجاه ، ولا شىء غيرُ هذا ، الا أن يكون بهم مس من الجن فيعالَجوا من مسِّهم ! هكذا ألهَمَتْهُمْ نوازعُهم الهابطة !! فأرادوا ليجربوا ذلك مع صاحب الدعوة « عليه الصلاة والسلام » وما علموا أن عزة الفضيلة ، وجاه الحق ، وسؤدد الدين ، وكنوز الخير هى وحدها مرامِى الدعوة المحمدية !! وما مالُهم . وسؤددهم وجاههم . الا ستارٌ لأرجاسهم . وشباك للأبالسة من شياطين الانس والجن « يُوحى بَعضُهمْ الى بَعْض زُخْرفَ القوْلِ غرُوراً » .

أيها المستمعون الكرام :

انظروا ، كيف جرت التجربة — تجربةُ المشركين — مع « محمد » عليه أفضل الصلاة والتسليم — لقد قَصُرَتْ أفهامهم عن ادراك الفضائل التى صَحِبتِ الدعوةَ المحمدية . ورأسُها — فضيلة الثبات على الحق .

فاجتمع أعداؤه — عليه السلام — بعد أن سئموا من كثرة ايذائه !! ، وضَجروا من صنوف اعنَاتِه — اجتمعوا — فقال سيدهم المطاع فيهم ، وهو (عُتبة بن ربيعة) يامعشر قريش : (ألا أقـومُ « لمحمد » فأكلّمه وأعرض عليه أموراً علّه يقبل بعضها ، فنعطيه اياها ويكفّ عنا ؟؟) .

فقالوا يا أبا الوليد : قم اليه فكلّمه ، فذهب الى رسول الله « صلى الله عليه وسـلم » وهو يصلى فى المسجد ، وقال يا ابن أخى : انك منا حيث قد علمتَ .؟ مِن خيارنا حسباً ونسباً ، انك قد أتَيْتَ قومك بأمر عظيم ، فرّقتَ به جماعَتهم وسفّهت أحلامَهم ،وعِبْتَ آلهتهم ودينهم ، وكفّرت من مضى من آبائهم !!! فاسْمَعْ منى ، أعرِضْ عليك أموراً تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها !؟ فقال عليه السلام — « قل يا أبا الوليد ، أسمعْ » فقال : — يا ابن أخى : ان كنتَ تريد بما جئت به من هـذا الأمر مالا ، جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالا . وان كنت تريد شرفا ؟ سـوّدناك علينا ، حتى لا نقطع أمراً دونك . وان كنتَ تريـد مُلكا ؟ ملّكْناك علينا ، وان كان هذا الذى يأتيك رُؤًى من الجن ، لا تستطيع ردّه عن نفسك ؟؟ طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئَك منه ، فانه ربما غَلب التابعُ على الرجل حتى يداوَى) فقال عليه الصلاة والسلام « لقد فرَغْتَ يا أبا الوليد ؟ فقال نعم . قال فاسمع منى :

« بسم اللهِ الرحمن الرحيم . حمٓ تنزيلٌ منَ الرّحمن الرّحيم ، كتابٌ فُصِّلتْ آياتُهُ قرآناً عربيًّا لِقَوْمٍ يعلمونَ ،بشِيراً وَنذِيراً فأعْرضَ أكثرُهمْ فَهُم لا يسْمَعون » .

وما زال « عليه السلام » مسترسلا فى كلام رب العزة . يَمْتَحُ من النّمير الصافى ، حتى قام (عتبة) ووضع كفه على فمه يمنعه الكلام !! .

فلنقفْ هنا ؟ لننظرْ ؟ كيف يكون — الثبات على الحق — أمامَ فتنة الدنيا ، وزهرة الحياة ؟ أليس ما ذكره (عتبة) هو كل ما تشتهيه نفوسٌ ، وتهوى اليه قلوبٌ ، وتتطلّع نحوه عيون ؟؟ ألستَ ترى عنده مصارع عَزمات ، ومزالق هِمّات ، وفناء عبقريات ؟ نعم ان ما ذكره (عتبة) هو

غمز" للثبات ، وامتحان" قاس للبطولات ، وما كان من جواب عند السيد الأعظم « صلى الله عليه وسلم » الا أن يكون بلسان الوحى !! ، فيتولى الله افحامهم ، ويقوم على ازعاجهم ، ويكذب ما كانوا يظنون .

الا َ فلْتتعلَّمْ هذه السيرةُ النبوية ، مَنْ شاءأن يتعلَّم ، الثبات على الحق والا ّ ، فلا وسِعهُ علم" ولا تعليم !!

* * *

أيها المستمعون الكرام :

هناك نوع من الثبات وان شئت فَسَمِّه « الشجاعة الاسلامية » كانت تطير مع الدعوة فى الآفاق ، فتُلقِى الرعب فى قلوب الأعداء ، وماذا ترى فى قوم تقوم شجاعتهم ، مقام جيوش أعدائهم ؟ أليس هذا صِنْفا من الناس، قد ميَّزته أخلاقه ، وسجاياه وعقائده ، فمنذا الذى كان يقف أمامهم ، وأىُّ قِرْن يقوى على لقائهم ؟؟ .

* * *

لقد كان رأسُ المسلمين وقدوتُهم — عليه السلام — فى يوم من أيام الجهاد التى مَحَّص الله بها الصدور ، وامتحن فيها « الثبات » — كان « عليه السلام » واقفاً وقد تفرق الناس من حوله ... وأرجف بعضهم بموته ، ورماه رام فجرح وجْنَته ، وأنشبَ حديدة فى ثَنِيَّته ، فلما نزعت !! نزعت معها ثَنِيَّتاه !! فَنزَف دمه الذكى !! وهو مع هذه الشدائد ، لا يولِّى ظهره للقتال ، ولا يفكر الا فى أن يعلوَ فوق جبل ، ليأخذ مكان أعدائه ، فيتحول — عليه السلام — متماسكا وهو يقول : « لا ينبغى لهم أن يعلونا ، اللهم لاقوة لنا الا بك !!! » وما زال يناضل حتى أقصى أعداءه عن أماكنهم ، واجتمع عليه أنصاره وأصحابه بعد التفرق والشتات ...

أيها المستمع الكريم :

من الفضائل التى عزّت بها الدعوة الاسلامية — فضيلة التضحية — وفضيلة البذل والسخاء — كانت تضحياتهم مضرِبَ الأمثال !! ، وأعظمها وأعزّها ، تركهم ديارَهم ، وأموالَهم ، وآباءهم ، واخوانهم وعشائرهم هجرةً بدينهم ، وفرارا بعقائدهم الى بلاد نازحة ، يفعلون ذلك طيّبةً نفوسهم ، رحيبة صدورُهم . حتى لقد كانت امرأة مُسلمة" تركب بعيرها فى طريق هجرتها الى الحبشة ، فسألها سائل . (الى أين يا أم عبد الله ؟ فقالت : لقد آذيتمونا فى ديننا ، فسنذهب فى أرض الله حيث لا نُؤذَى) هكذا كانت الأُمّ الاسلامية تقتحم الأخطار !! ، لاتبالى شيئا ما دامت قد سلمت لها عقيدتها ..

ولقد تعرف من طبائع النساء شغفاً بالقطين ، وولوعا بالمقام ، ورغبة عن الارتحال ، لكنها الدعوة الاسلامية بدّلتهنّ خلقاً آخر ... !!

* * *

ولقد بلغ من سمو المعانى التى أوحت « التضحية » ، بأعز الأعزاء !! أن كان « أبو عُبيدة » الفاتح الأعظم ، يغزو فى موقعة ، من أيام المسلمين الأولى ، وأبوه « الجرّاح » يحارب فى صفوف الأعداء ، وكلما تلاقيا أشاح « أبو عبيدة » بوجهه عن أبيه ، فيعرض له أبوه !! ولا يبتعد ولا يزدجر !! فما هو الا أن حمل عليه « أبو عبيدة » مغالباً نوازعَ القُرْبى . مضحيا بكل الأواصر . مُفدِّياً آصرةَ الاسلام وحدَها !! وتلك لعمر الحق أسمى درجات التضحيات . وأنه لأعز أنواع الفداء ...

أيها المستمع الكريم :

هناك فضيلة ، تزاحم الفضائل السالفة ، وقد أينعت وأثمرت مع الدعوة الاسلامية ، تلك هى فضيلة « البذل والسخاء » حين تستحكم الأزمات ، ويتملك الشحّ نفوساً ، وتُوقى الشحّ نفوس" .

أراد بعض المشركين أن يختبر سخاء « أبى بكر » فى سبيل دينه ، وأن يبادره بالامتحان ، وأن يجعل موضوعه المال ، فشرع المشرك « أمية ابن خَلَف » يعذب عبدَه « بلالاً » المسلمَ تعذيبا يقطّع الأكباد ، على نظر « أبى بكر » وبمحضره ، فقال له « أبو بكر » : أما تتقى الله يا « أمية » فى هذا المسكين ؟؟ الى متى تعذّبه ؟ قال « أمية » : أنت أفسدته فأنقذه مما ترى ! ، فاشتراه منه وأعتقه .

وقد شرّف الله هذا الصنيع العالى . فخلّده فى آى الذكر الحكيم ، قال تعالى :—

« فأنذرتكم ناراً تلظّى ، لا يَصْلاها إلا الأشقى[1] ، الذى كذّبَ وتولّى ، وسيُجنَّبُها الأتقى[2] ، الذى يُؤتِى مالَه يتزكّى ، وما لِأحدٍ عنده من نِعْمةٍ تُجْزى ، إلاّ ابتغاءَ وجهِ ربِّه الأعلى ، ولَسَوْفَ يَرضَى » .

* * *

ومن أشرف السخاء والبذل ماكان من استجابة المسلمين ، يوم عزّ المال ، واشتدّ القَحْط . وكان زمن عسرة ، ودعا رسول الله المسلمين الى الجهاد !! فى « غزوة تبوك » التى أريد بها القاء الرعب فى قلوب « الروم » فماذا حملت الدعوة الاسلامية معها الى تلك الأطراف ؟ حملت آياتِ السخاء ، وأحاديث البذل ، ترويها وتتفيأ ظلالها ، وتستعين بها فى سبيل الله .

فلقد تقدم « عثمان بن عفان » طيّبةً نفسه . وأخرج من حُرّ ماله عشرة آلاف دينار ، وثلثمائة بعير بأحمالها ، وخمسين فرسا بعُدّتها — ثم لم ير فى كل ذلك ما يستحق أن يفاخر به اللهم الا شيئا واحدا ؟ هو « دعوة » دعا له بها رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ قال :

---

(١) هو « أمية بن خلف » ومن على شاكلته .

(٢) هو « أبو بكر الصديق » وأمثاله .

(اللّهمّ ارض عن « عثمان » فانى راض عنه ..!!) . فكانت تلك الدعوة « لعثمان » مناطَ فخره ! لا يفخر الا برضاء الله ، ورضاء رسول الله.

ولقد أرسلت النساء يومها كلّ ما يقدرْن عليه منْ حليهن ، وهذا هو البذل بأعز المذخور ...

★ ★ ★

أيها المستمعون الكرام :

على أكف هؤلاء كانت تتمجّدُ الدعوة الاسلامية !! وانظروا كيف كان تدافُع الصحابة «رضوان الله عليهم» الى ساحات الجهاد ؟ وكيف كان يبلغ منهم الحزن ، اذا قعد بهم الفقر عن نفقات الجهاد ... لقد جاء رسولَ الله « صلى الله عليه وسلم » فى تلك الساعة الرهيبة ساعة العسرة — وهو يجهز الجيش — جاءه سبعةُ رجال من فقهاء الصحابة . الفقراء ، يطلبون أن يُحملوا الى مواطن الجهاد ، فقال لهم محمد « عليه السلام » (لا أجِدُ ما أحمِلُكُمْ عليْه ؟!) وكان حسْبهم ما فعلوا . وفاءً لعقائدهم ، لكنّها نفوس لا تسكن الى هذا القعود ، وهناك اليوم المشهود ؟!! فماذا فعلوا بعد ما رأوا وسمعوا ؟ (تولّوْا وأعيُنهم تفيضُ مِنَ الدّمْعِ حَزَناً ألاّ يجِدُوا ماَ يُنفِقُونَ . .) .

ووالله ، ان النفس لتهتز هنا اهتزازاً ، وتنفعل اكباراً واعظاماً ، لذلك الخلق الاسلامى القويم ، فواها لنفوس لا يطيب لها القعود فى ظلال السّلم قَدْرَ ما يُسعدها الجهد فى سبيل الله ! .

ولقد شاء الله ألاّ يطول حزن هؤلاء الأبطال ، فقد كان السخاء الاسلامى لايزال يهزّ نفس « عثمان بن عفان ، والعباس بن عبد المطلب » فجهز الأول بعضهم ، وأذهب حزنهم ، وجهز الثانى بعضهم ورَقأ دمعهم ...

بتلك الأخلاق ، وهاتيك الفضائل أتمّ الله نعمته على رسوله ، وعلى المؤمنين وأظفرهم بأعدائهم ، وأدال دِيناً هو الشرك ، ومكّن لدين التوحيد ، فلما تكامل

نصرُ الله ، ورجع المسلمون الى ديارهم ، سادةً حاكمين ، بعد أن غادروها خائفين متسلّلين لم يُزْهَوا بالظفر ، ولا اختالوا بالفتح ؛ ولا أعملوا سيوف الانتقامِ فى أعدائهم ، لأن الانتقام سليلُ الحقد وحاشا لصدور المسلمين أن تنطوى على الأحقاد ...

فما كادوا يستقرون بعد الفتح الأعظم ، حتى كان أعداؤهم يرتعدون من الخوف والوجل : عيونٌ شاخصة !! ،وأفئدةٌ هواءٌ !! : تنتظر ما عسى أن يَحُلَّ بها من التنكيل ، بعد العداء الطويل ؟؟ ، هنا ، كانت الدعوة الاسلامية تحمل معها « العفو مع المقدرة » . والصفح ساعة النصر . وكانت تجعل الرضا والغضب « للحق وللفضيلة » فاذا ما سطع الحق ، وسادت الفضيلة ، فما وراء ذلك غيرُ السلام ، والأمن والمغفرة ، والسماحة ، ولقد قالها عليه السلام كلمة خالدة على الأجيال !!! قال لأعدائه : مَا تُظنّونَ أنّى فاعلٌ بكم ؟ فوقفوا فى رجاء الخائف ، وأمل المعتذر ، وقالوا : « خيراً ، أخٌ كريم ، وابن أخ كريم » قال لهم : « اذْهَبُوا فأنتمُ الطُّلقاء » ولله ما يقوله البوصيرى :

وإذا القطعُ والوصْلُ كان لله تساوى التقريبُ والإقصاء
وَلَوْ أنَّ انتقامَه لهوى النفس لدامتْ قطيعةٌ وجفاء
فعلُه كلُّه جميل ! ! وهل ينضحُ إلاَّ بما حواه الإناء

* * *

أيها المستمع الكريم :

تلك فضائلهم وأخلاقهم ، ومعها أيامُهم — أيامُ الله أ!! وها نحنُ ، وهاهو حاضرُنا ! ! فنرجو أن نكون خيرَ خلفٍ لخير سلف ...

المحاضرة الثامنة :

بعض أسرار العظمة والبطولة

فى عمر الفاروق

عمر هبة الله للانسانية ـ هو أمة وحده ـ هو مثال للانسانية المكملة ـ هو ملهم بالحق ـ خلقه الشدة مع اللين ـ مقانة بينه وبين (أبى بكر) ـ لماذا تأخر اسلام عمر ـ تثبت وبحث وتيقن ـ روايته عن نفسه كيف أسلم ؟ ـ الدعوة الاسلامية تعتز بعمر ـ لماذا لقب (بالفاروق) ـ نكبة المشركين باسلام عمر ـ أسباب الأحقاد الاجتماعية ـ عمر يرسم العدل الاجتماعى ـ يشارك الأمة سراءها وضراءها ـ عمر يخضع للقانون العام ـ يعالج شدة القوانين اذا ساء أثرها ـ تنقيح القوانين ـ عمر ينفر من الاحتيال على القانون ـ منابع الدين هى منابع الاصلاح والسعادة ـ عمر يولى شؤون الدولة للسابقين الأولين ـ الجهاد والسبق هما معيار الاستحقاق ـ المجاهدون القدماء فى مراتب الدولة ـ المدرسة الاسلامية تخرج صورة للانسان العادل ـ عمر يقتص من المعتدى مهما عظم الجهاد والسبق هما معيار الاستحقاق ـ المجاهدون القدماء فى مراتب الدولة ـ سياسته فى شفاء النفوس ـ قطعه دابر النمائم والسعايات ـ بغضه للكشف عن سرائر الناس ـ منشور لعمر ـ المجتمع السعيد .

★ ★ ★

أيها المستمعون الكرام :

ليس التحدث عن « عمر » الفاروق رضى الله عنه بالأمر الهيّن ، ولا القليل الخطر « فعمر » كان هِبَةَ الله للانسانية ، وكان هو موهوباً فيوضات الهية .

أطلّ بوجهه على المجتمع . كما يطل الربيعُ على الدنيا فملأها نضرة ونعيما ، وزاد (عمر) على الربيع ، فملأها أيضا أمنا ، وعدلا وسلاماً ...

كان « عمر » أمةً وَحْدَهُ ، اجتمعتْ له نقائب وصفاتٌ لَسْتَ تراها الا مقسومةً أو مبعثرة فى أمة بأسرها ، وان شئتَ أن تتمثل فى يسر وسهولة

صورة « الفاروق عمر » ؟ فاعلم أنه الصورة التى سوّاها الله وعدّلها ، لتكون مثالا أعلى للفطرة السليمة ، وللانسانية المكمّلة .

مثالا للتربية الدينية الفاضلة ، وللسياسة النزيهة الرشيدة ، ولئن أعلى الله مقام النبوة عن الأشباه والنظائر ، فليس فيما يلى فضائل النبوات غيرُ الفضائل « العمرية » و « الشمائل الفاروقية » .

ولقد استيقن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك المعانى فى «عمر» فقال : « انه كان فيمن مضى قبلكم من الأمم محدّثون[1] ، وان كان فى أمتى منهم أحد ، فانه « عمر بن الخطاب » .

وسنعرف كيف كان « عمر » حقا مُلْهَما !! .

أيها المستمعون الكرام :

يتحدث الرواة فى تاريخ « الفاروق » فيقولون : لقد كان « عمر » شديدا وكان صُلْباً ، ثم يمثّلون لهذه الشدة ولهذه الصلابة — وفى الحق — لقد كان « عمر » صَلْباً . ولكنها الصلابة الخيرة المؤمنة المستيقنة ...

ما كانت شدة « عمر » بالشدة العابثة العاتية ، ولا كانت بالعاصفة المدمِّرة !! وانما كانت شدة الفكر الأصيل ، وصرامة العقل الرجيح ، لا تندفع وراء النزوات ، ولا يقوم عليها الطيش ، كتلك التى عرف بها الطغاة الجبارون .

واليكم رأىَ « أبى بكر الصديق » وهو صنو (عمر) وأعرف الناس بذات نفسه — اليكم رأيَه فى شدة « عمر » .

* * *

دعا « أبو بكر » بعبد الرحمن بن عوف وقال : « أخبرنى عن (عمر) فقال ياخليفة رسول الله ، ما تسألنى عن أمر الا وأنت أعلمُ به منى ، فقال

---

(١) هو الملهم .

« أبو بكر » وانْ !!! قال عبد الرحمن : هُوَ والله أفضلُنا . ولكنْ فيه غِلظة !! فقال « أبو بكر » : تلك الغلظة التى تراها ، لأنه رآنى رقيقاً ! ولو أفضى اليه الأمر لترك كثيراً مما هو عليه . ويا عبد الرحمن لقد رأيتُ « عمر » ؟؟ فرأيتنى اذا غضبتُ على الرجل فى شىء ، أرانى الرِّضا عنه ! واذا لِنتُ له أرانى الشدةَ عليه !!!

ذلك رأى « أبى بكر » ومَن أصدق من « أبى بكر » يتحدث عن «عمر» فيرينا خلائقه ؟ : — يرينا شدةً فى غير عنف ، ولينا فى غير ضعف ، وذلك خير ما تُساس به الأمة العربية ، بل الأمم جمعاء ...

* * *

أيها المستمعون الكرام :

لم يبادر « عمر » الى الاسلام — بل بقى ست سنين كان فى أثنائها يقلِّب الرأى ، ويستبين الحق ، وكان فيها شديداً على المسلمين شدة القَلِق المتحيّر . يغشى أماكنهم ، ويستمع الى كلامهم ! وتلك سيما الراغب فى الحق المتعجِّل الهدى ، لا كما كان يفعل أولئك الذين انحرفت فطرتهم وامّحت اللطيفة الربانية فيهم ، فكانوا كلما سمعوا داعياً للخير أو هاتفا . جعَلوا أَصَابِعهم فى آذانِهِم ، واسْتَغْشَوا ثِيَابَهمْ ، وأَصَرُّوا واسْتَكْبَروا اسْتِكْبَارا .

* * *

فلما استكمل « عمر » عُدّته الى الخير ، واجتمعت له وسائل القبول والاقتناع وحلّ ميقات الهُدى ، كانت قابليته قد اكتملت بها فآمن ...

* * *

قال (عمر) وهو يتحدث عن نفسه : خرجت أتعرض لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — على عادتى قبل أن أسلم ، فوجدته قد سبقنى الى المسجد ،

فقمتُ خلفه ، فاستفتح بسورة « الحاقة » فجعلتُ أعجب من تأليف القرآن !!! ، قال : فقلت هذا والله شاعر ، كما قالت قريش قال : فقرأ « محمد » عليه السلام :

« إنهُ لَقولُ رَسُولٍ كريمٍ ، وما هو بقول شَاعِرٍ ، قليلاً ماتُؤمنون » قال : قلت كاهن . قال : (وَلا بقولِ كاهنٍ قليلاً ما تذكّرون ، تَنزيلٌ من ربِّ العالَمين ولَوْ تقوَّلَ عَلَينا بَعْضَ الأقاويلِ ، لأَخَذنا مِنه باليمينِ ثم لَقَطَعنا مِنهُ الوَتين ، فما مِنكم من أحَدٍ عَنهُ حاجِزين) قال عمر : فوقع الإسلام فى قلبى !!! .

أيها المستمع الكريم :

تلك هى العقائد ، تخالط شِغافَ القلوب ، وتمتزج بالوجدان ، بعد أن تتقلب فى مراتب الحُجَج ، ومنازل البرهان ، وتلك هى العقائد التى يصدر عنها ما يَهُزُّ أقطار الأرض ، ويزلزل أطواد الفساد فى الدنيا !!

* * *

فلما أسلم (عمر) أبى الا أن يكون اسلامه مشهَّرا يتسامع به الناس ، وأبى الا أن يناضل فى الدفاع عن عقيدته !! فصاح : (يارسول الله . ألسنا على الحق ؟ ان مُتنا وان حيينا) ؟ قال : (بلى ، والذى نفسى بيده انكم على الحق ان متم وان حييتم) قال عمر : (ففيم الاختفاء ؟ والذى بعثك بالحق لَنَخْرجنّ) فخرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى صَفّيْن ، (حمزة) فى أحدهما و (عمر) فى الآخر ، ولهم كديد"[1] ، ككديد الطَّحن !! ، حتى دخلوا المسجد ، فاذا « بقريش » وقد أصابهم همٌّ واكتئاب ، ما أصيبوا بمثلهما !! قال (عمر) : فسمَّانى رسول الله عليه الصلاة والسلام (الفاروق) يومئذ . . .

* * *

(١) كديد ـ صوت كصوت الحوافر فى الأرض الصلبة .

أيها المستمعون الكرام :

لاشيء يُفْشى فى المجتمعات الضغائن ، ويثير الأحقاد ، ويقطع الصِّلاة بين الحاكمين والمحكومين ، الا أن يُرى الفردُ محروما يعانى مرارة العيش ، على حين أن حاكمه يتفيأ ظلال النعيم ، ويتقلَّبُ فى مهاد الرفه واللين ...

وانَّ مما جعل العهد (العمرىّ) عهداً ناضرَ الجنبات ، ميمون الغَدَوَات والروحات ، عهداً يسوده الحب ، ويرِفُّ عليه الخير ، أنَّ (عمر) قد عُنِىَ بمشاركة شعبه فى سرَّاء الحياة وضرائها ، فليست تنزل بالناس كارثة الا وقد شعر أن الأمر قد حاق به هو مع الناس ، وأن الأذى قد ناله ونالهم ، فهو يعالج الشدائد والمحن على هذا الوضع !! .

كان (عمر) ، لا يخص نفسه بنعيم والناس يشقوْن ، ولا يرفِّه على نفسه والقوم مُمْحلون ، قال ابن سعد : « أصاب الناسَ جدبٌ وشدةٌ لعهد (عمر) حتى سَمَّوْا تلك السنة عام الرَّمادة ، لأن الأرض صارت فيه سوداء كالرَّماد » .

نظر (عمر) يومذاك (بِطِّيخة) فى يد بعض ولده ، فقال « بخ .. بخ يا ابن أمير المؤمنين ؟ تأكل الفاكهة وأمة (محمد) هَزْلى ؟ » ثم ما كان يكتفى عند لأواء الخطوب ، واشتداد الأزمات ، بأن يواسى الناس بالقول ، ويعطفَ عليهم بالكلام . لا . كان يَشْرَكهم فى البؤس ، ويأخذ نفسه بالأزمة الواقعة ويروضها على حمل نصيبها مما حل بالناس ، حتى لتبدَو آثارُ ذلك فى وجهه ، وعلى جسمه ، قال عياض : رأيت (عمرَ) عام الرَّمادة . وهو أسود اللون ، ولقد كان أبيض يأكل السمن واللبن ، فلما أمْحَل الناس حرَّمهما على نفسه وأكل الزيت حتى تغير لونه !!! وقال (يزيد بن أسلم) : لو لم يرفع الله عام الرَّمادة لظننا (عمر) يموت همًّا بأمر المسلمين..!!

ومن هنا . نعلم منابع حبّ المحكومين لحكامهم ، وايثارَهم بأموالهم وأنفسهم ، ولمثل هذا فليعمل العاملون ...

* * *

أيها المستمعون الكرام :

كان (عمر) اذا ما سنَّ قانوناً ، أو أرسل فى الناس أمرا ، ارتقب بعد ذلك ما عسى أن يكونَ أثرُ ذلك فى اصلاح المجتمع اذا ما بدأ دور التنفيذ ؟ فان رأى حَرَجاً ، أو عُسراً ، أو فِراراً من سلطان القانون بادر الى تنقيحه ، وتمحيصه ، لكى يكفل سعادة المجتمع وخيره ولكيلا يحمِّل الناس مالا طاقة لهم به . وحتى يبعث فى نفوسهم أن يحبُّوا القوانين ، لا أن يتنكروا لها . ويحتالوا للنجاة منها ، وذلك أصل من الأصول التشريعية التى تضطرب المجتمعات رغبةً فيها ، وحرصاً عليها ...

* * *

سنَّ (عمر) قانونا موضوعهُ فرض عطاء من الغنائم لكل طفل من أطفال المسلمين ، مادام قد جاوز الرضاع ، وصار فطيما ، فان بقى رضيعا فلا فرض له ، ولا عطاء !! بعد هذا أحسَّ (عمر) عند التطبيق شدةَ القانون على الأُسر الفقيرة وشاهد احتيال الناس على نصوص القانون — فبادر الى اصلاحه وتعديله ليتلاقى مع خير المجتمع ونفعه ...

* * *

قال ابن عمر : قدمتْ رفقةٌ من التجار ، فنزلوا (المُصَلَّى) فقال عمر لعبد الرحمن بن عوف : هل لك أن نحرسهم الليل من السرقة ؟ فباتا يحرسان الناس ويصليان ما كتب الله . فسمع عمر فى جوف الليل بكاء صبى فتوجه نحوه ، وقال لأمِّه : اتق الله وأحسنى الى طفلك !! ثم عاد الى مكانه ، فسمع بكاءه ، فعاد الى أمه . فقال لها مقالته ، وعاد الى مكانه . فلما كان آخر الليل سمع بكاء الصبى ، فقال لأمه ويحك !! انى لأراك أمَّ سوء ، مالى أرى ابنك لا يقر منذ الليلة ؟ قالت — وهى لا تعرف من تُحدِّث — ياعبد الله : قد أبرَمتَنى طول الليل — انى أعالجه على الفطام ، فيأبى على

الا رضاعا !! قال عُمرَ ولم ؟؟ قالت : لأن عمر لا يفرض الا للفطيم !! قال : وكم لابنك من العمر ؟ قالت كذا وكذا شهراً ، قال لها : ويحكِ لا تُعجليه !! ثم صلى الفجر ، وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء !! فلما انتهى من صلاته قال : يابؤساً لعمر !! كم قَتَل من أولاد المسلمين ؟؟ ثم أمر منادياً فنادى : لاتُعجلوا صبيانَكم على الفِطام فانا نفرض لكل مولود فى الاسلام ، وكتب بذلك الى الآفاق ...

أيها المستمع الكريم :

ذلك اصلاح لا تُلهمه الا منابع الدين ، ولا توصى به الا فكرة الحق المبين ، فلينظر المتشرعون فى قوانينهم ، وليرجعوا الى أنفسهم ثم الى موادهم ، وليستيقنوا كما استيقن الذين من قبلهم أن القوانين الموضوعة عرضة للتعديل والاصلاح تمشيا مع خير الناس ورفع الأذى عنهم !! .

« أولئِكَ الذّينَ هَدَاهُم الله فبهداهم اقتدِه » .

* * *

أيها المستمعون الكرام :

من نَكَدِ الدنيا — بل من الجحود الآثم — أنه لا زال فى شبابنا من لا يتغنّى ولا يتمدّح بغير المبادىء ، والآراء التى تنبعث من الغرب ، فتظهر فينا غريبةً وتبدو مُنكرةً ، ولو نظر الواحد منا الى ماوراء أفقِه ، لرأى أين كانت منابت تلك المبادىء ؟ ومنابع هاتيك الآراء ؛ انها نبتتْ فى ديار آبائنا وأجدادنا !! واستغلظت واستوت على سُوقها فى مواطن أبطالنا . وزكت وسمقت فى كنف الاسلام .

بالأمس . لَقِيَنى حَدَثٌ من الشبان ، ولعله هو الذى وجهنى الى الحديث فى عمر — لقينى وقال : أولستَ ممتَلِئاً اعجاباً بعاهل الدولة المعروفة .. ؟؟ هذا الذى أنشأ جيلا ، وأقام دولة ، وأعزّ أمّة !!

ان من أسرار نجاحه ، ونجاح دعوته ، أنْ جعل مراتب الدولة ومناصب

الحكم العليا • وقفاً على السابقين الأولين الذين آزروه وحيداً • ونصروه غريباً ، واستجابوا لدعوته ، يوم كانت الدعوة نُكرا وعابا ، يتوارى عنها النـاس ، وتُشفق منها المجامع ، فرارا بالنفس ، وابقـاء على الحياة !!! أوَ ليْست تلك أحكم السياسات ؟ وأنبل الغايات ؟ ولهذا وحـده يرجع صعود نجمه ، واشراق شمسه ! فقلت ، قَدْكَ — ياحَدَثُ — يغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر !! واسمع الآن لتاريخ عمر فى هذا الأمر •••

لقد كان عمر يرى الدعوة الباكرةَ ، والجهاد المحمدىّ الأول ، قد لَقِيَا من عنَتِ الجهال أياماً شديدةً ، حازبةً ، وليالى رهيبة حالكة ، وتلك الأيام والليالى ، حَرِيَّةٌ باذاعة محامدها ، وتقديس ذكراها ، فلقد عمل فيها للدعوة السابقون الأولون ، اطاعة لعقائدهم ، واستجابةً لايمانهم ، واسترضاء لربهم •

لم يكونوا قد رأوا بعد من الغنائم ما يغريهم ، ولم تكن الدنيا قد تفتّحت بين أيديهم ، بل كانوا يعانون من شظَفَ العيش ، وجدب الحياة ، وسطوة العدو ، مايرغبهم عن الداعى ، وعن دعوته •••

أمثالُ هؤلاء رَزُنوا والأحلام طائشة !! وسهروا والعيون غافلة ! وتنبهوا والهمم راكدة !! حتى لقد قعدوا مقاعد صدق ، وقاموا مقامَ حقّ ، وأبلوْا البلاء الحسن ، فتخطفهم الموت — لا يَفِرُّون ولا يجبنون — نزُهتْ مقاصدُهم ، وكرُمتْ سريرتهم ، أما من أخطأه الموت منهم ، وعاش جريحاً فقد حَزن على البقاء ، حُزْنَ الناس على الفناء ، ثم عاش فخوراً بجراحه المُثْخنات ، وطعناته الداميات هؤلاء الأعلام ، قد اختصهم (عمر) باجلاله واكباره واعظامه ، فلم يجعل أحدا يعلوهم مقاما ، ولا يقتعد بينهم مكانا ، ثم اختص مِن بعدهم ، سلالاتِهم وأبناءهم ، وأحفادَهم بعطفه وحياطته ، كل ذلك فعله (عمرُ) قبل (عاهلك) الأوربىّ ، الذى تضربه لنا مثلا •••

فَعَلَهُ (عمر) ليتحقق للمجتمع المبدأ الصالح فى انشاء المجتمعات ، فلن تلتوىَ الأمور الا يوم يسود الناسَ حثالاتُ المجتمعات ، الذين

يختفون عند الشدائد ، ويظهرون وقت الغنائم ، واليك مثلا مما فعل عُمَر :

عن عبد الله بن عمر قال : بينما الناس يأخذون أعطياتهم بين يدى (عمر) رفع رأسه فنظر الى رجل فى وجهه ضربة" !! فسأله ؟ فأنبأه خبره ، فعلم أن الرجل قد جُرح فى غزاة من الغزوات الاسلامية الأولى . فقال « عمر » : (عُدُّوا له ألفاً) فأعطى الرجل ألف درهم ثم قال :(عدُّوا له ألفا) فأعطى ألفاً أخرى ! ثم قال له ذلك أربع مرات !! ، فاستحى الرجل من كثرة ما يعطيه عُمر ! فخرج فسأل عنه عمر فقيل له : انّا رأينا أنه قد استحى من كثرة ما يعطيه « عمر » ، فقال : أما والله ، لو أتّه مكثَ ما زلت أُعطيه ، أنه لرجلٌ ضُرِبَ ضربةً فى سبيل الله حفَرتْ وجهه !!! .

فهل رأيتم كيف كان (عمر) يرى فى جراحة الرجل ، رمزا باقيا على قداسة الدعوة ! وشارة لامعة فى تاريخ الجهاد ! فهو ما أعطاه الا براً بالدعوة ، واشادة بالجهاد ...

ولقد روى ابنُ شهاب ، قال قَسَمَ عمرُ مُرُوطا [1] — بين نساء أهل المدينة ، فبقى منها مِرْط جيِّد ، فقال له بعض مَن عنده : أعط هذا زوجتك ابنةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم — يريدون أم كلثوم بنت على — فقال (عمر) : لا ، « أمُّ سليط » أحق به ، فانها ممن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت ترفأُ لنا القِرَبَ يوم أحُد !! فانظر كيف رأى (عمر) أن الماتَةَ التى تَمُتُّ بها (أم سليط) فى استحقاقها للعطاء ، أوثقُ وأعرقُ من ماتَةِ — أم كلثوم بنت على — وزوج (عمر) أمير المؤمنين !! ...

* * *

وعن زيدِ بن أسلَم قال : خرجت مع عمر الى السوق ، فلَحِقَتْهُ امرأة شابة ، فقالت : « ياأمير المؤمنين هلك زوجى ، وتركَ صبيةً صغاراً ،

---

(١) جمع مرط بالكسر : كساء من صوف أو حرير مما تكتسيه المرأة .

لاهم زرع ، ولاضرع ، وخفت عليهم الضياع ، وأبى (ابنُ أيمن) الغفاريّ ، ولقد شهد أبى الحديبية مع النبى صلى الله عليه وسلم !! .

فوقف عمر وقال : مرحبا بنسب قريب !! ، ثم انصرف الى بعير ظهير ، كان مربوطاً فى الدار ، فحمل عليه غِرارتين ملأهما طعاماً ، وجعل بينهما نفقةً ثم ناولها مِقوَدَه . فقال : اقتاديه ، فلن يفنى هذا ، حتى يأتيكم الله بخير !! . فقال رجل : يا أمير المؤمنين ، أكثرت لها ! . فقال (عمر) : ثَكِلَتْكَ أمُّكَ ، والله انى لأرى أبا هذه وأخاها ، قد حاصرا حصنا زمانا فافتتحاه !! .

* * *

أيها المستمعون الكرام :

لقد تمثل العدل فى (عمر) بشراً سويا ، وشعر كلُّ فرد فى المجتمع الانسانى أنه عضو فى هذا الجسم . له حقٌ وعليه واجب ، فما كان أحد يرضى الضيم ، ولا يخضع للذل ، وليس سوى أن ينفر الناسُ خفافا وثقالا الى (عمر) اذا ما سيموا خسفاً ، أو وقع بهم ظلمٌ ...

عن جرير بن عبد الله : أن رجلا كان مع أبى موسى الأشعريّ وكان ذا صيت ، ونكاية فى العدو ، فغنموا مغانم ، فأعطاه أبو موسى بعض سهمه ، فأبى الرجل أن يقبله الا جميعا !! فجىء بالرجل فضربه أبو موسى عشرين سوطا ، وحلق شعره !! فجمع الرجلُ شعره ، وارتحل الى (عمر) .

قال جرير : فدخل على (عمر) وأنا أقرب الناس من (عمر) فاستخرج شعره ، وضرب به صدرَ (عمر) وقال تلك آثار عُمَّالك ، وقص قصصه !! فقال عمر : (لأنْ يكونَ الناسُ كلُّهم على صراحة هذا فى حقه ، أحب الىّ من جميع ما أفاء الله علىّ !!) .

وكتب الى أبى موسى : سلام عليك . أمابعد . فان فلانا أخبرنى بكذا ، وكذا ، فان كنتَ فعلتَ ذلك فى ملأ من الناس ، فعزمت عليك ، لعقدتَ

له فى ملأ من النـــاس حتى يقتصَّ منك . وان كنت فعلت ذلك فى خـلاء من الناس ، فاقعُدْ له فى خلاء من الناس ! ! فَقدِم الرجلُ على أبى موسى ، وتعاظم الناسُ الأمرَ وقالوا له : اعفُ عنه ، فقال : لا ، واللهِ لا أدعُ حقّى لرجاء أحد من الناس ! !.

فلما قعد أبو موسى للقصاص ، رفع الرجل رأسه الى السماء ثم قال : « اللهم انى قد عفوتُ عنه ! ! » . فانظروا ! كيف كان غضب الرجل لكرامته التى أكرمه الله بها وللحق وحده ، ولِمَا عساه يفشو من الفساد ، اذا استعلى الحكام على القصاص منهم ...

ما كان غضبُ الرجل نَزَقاً ولا نقمةً . لهذا ما كاد يرجع الحق الى نصابه ، ويتحقق العدل الأسمى ، وتنتصر المساواة حتى ذهبت أحقادُ الرجل ، واستحى أن يمعن فى الخصومة والتَّشَفّى ، واستلهم اللهَ ، فألهمه الصفح الجميل ! ! .

* * *

واليكم كيف كان (عمر) يريدها أمةً عزيزة ، وشعبا كريما ، ينعم الناس فى حدود الحرية المرسومة لهم ، ويعرفون لحكامهم حقَّ الطاعة ، ولأنفسهم حقَّ الكرامة ، حتى لا تطغى الشهوات ، ولا تستحكم النزوات ! !

لقـد قصد (عمر) الى صلاح المجتمع ، صلاحا لا يخرج به عن طبائع الناس فليس يؤاخذهم ، الا بمقدار مايسيئون به الى المجتمع ، أما مابينهم وبين أنفسهم ومالا يظهر له أثر فى النظام العام ، فأمره متروك للوازع الخفىِّ بين العبد وربه ! ! ! وبذلك قُضِىَ على السعى بالنمائم ، وسُدّتْ أبواب الوشايات والدسائس ...

* * *

يقول « عمر » يخاطب الشعب الاسلامى :

« أيها النـــاس انما كنا نعرفكم ، اذْ بينَ أظهرِنا النبىُّ صلى الله عليه وسلم — واذْ ينزل الوحىُ ، واذْ ينبئنا الله من أخباركم ، ألا وان النبى صلى الله عليه وسلم قد انطلق ، وانقطع الوحىُ ، فانما نعرفكم بما نقول لكم ، مَن أظهر منكم خيراً ظننا به خيراً . وأحبَبْناهُ عليه ، ومن أظهر لنا شراً ، ظننا به شراً ، وأبغضناه عليه ، سرائرُكم بينكم وبين ربكم ، ألا وانى والله ما أرْسلُ عمالى اليكم ليضربوا أبشاركم ، ولا ليأخذوا أموالَكم ، ولكن أرسلتهم ليعلِّمُوكم دينَكم ، ويسلكوا بكم سننكم ، فمن رأى غيرَ ذلك فلْيرْفَعْهُ الىَّ ، فوالذى نفسى بيده لأقْتصَنَّ منه ...!! » .

* * *

أيها المستمع الكريم :

بتلك الصيحاتِ العالياتِ ، تجاوبت الأصداء فى أنحاء العالم الأسلامىّ . فتألف مجتمع سعيدٌ ، محكم الأواصر ، تَرِفُّ عليه المودة ويسوده الحب ...

أيها المستمعون الكرام :

ألا ان خير الحكام ، مَن يجعل القانون محبوبا ، لا مرهوبا !! ومن يستطيع أن يكون مهيبا ، لا مخوفا ؛ وكذلك كان « الفاروق » ...

المحاضرة التاسعة :

نفحات من العهد العمري

عظات من الماضي للحاضر

آثار « عمر » فى المجتمع الاسلامى ـ فى السياسة ـ فى الحرب ـ فى السلم ـ فى الاجتماعيات ـ وصفه لأمراض النفوس وعلاج ذلك ـ نظره الى أدواء المجتمع ـ صيانته من الهزات الاجتماعية ـ عمر يراقب الأثرياء والمترفين ـ الوثيقة التاريخية بين عمر وبين الأمة ـ مقته للمحاباة والوساطات ـ عمر يقرر (المبدأ) بأن السفراء والولاة لا يتزوجون من الأجنبيات ـ حرصه على سلامة الدولة ـ السياسة العمرية (دين ودنيا) ـ « عمر » يستنكر الزهد الذليل ـ يكره الأعراض عن الطيبات ـ يستن طرائق للعمران وللحياة الماجدة ـ يختبر مسالك القضاة قبل تعيينهم ـ استقلال الفكر وحرية الارادة شرطان لقضاة (عمر) .

* * *

أيها المستمع الكريم :

لقد كَرُمتْ تلك الأحاديث كلّما كان موضوعها الفاروق ، « عمر بن الخطاب » فما زالت رسائل المستمعين تلاحقنا لنستأنف الحديث فنذكّر « بعمر » ونستروِحَ العهد العمرىّ ، وللمستمعين علينا طاعة وحقوق ...

لقد كان « الفاروق » نفحةً اسلامية ، سرت فى مشارق الأرض ومغاربها ففى كل مصر ، وفى كل قبيل ، وفى السلم ، وفى الحرب ، وفى الشؤون الاجتماعية وفى ضروب السياسة النزِهة وفى آداب السلوكِ فى كل أولئك تُحسُّ بآثار عمر !! ، وتشعر بعظة عمر !! وتبصر فضائل عمر ! ...

حكم (عمر) حكما اسلامياً صحيحاً ، فلم يدعْ شأنا من شؤون الدولة الا أداره ادارة حازمةً فى عفة كاملة ، ونزاهة شاملة ، ثم عرف طبائع

الاجتماع ، وأمراضَ المجتمع ، فعالجها وكان فى هذا العلاج يَصدر عن الايمان الوثيق بأنه مسؤول عن رعيته — أمنِها وسلامها والعدل فيها ، وأنه محاسب على ذلك « يوم يقوم الناس لرب العالمين » . « يوم لا ينفعُ مالٌ ولا بنون الاّ منْ أتى الله بقلب سليم » . ذلك الوازع النفسى الذى نبّه اليه الاسلام ونمّاه . وعظم من شأنه ، كان هو المسيطر على أعمال « عمر » ، وعلى ما يفعل وما يذر ، وان رقابة هذا الوازع الدينى لأفضل من أية رقابة برلمانية ...

خطب (عمر) الناس مرة فقال : « انما الدنيا أملٌ مُخْتَرَمٌ[1] وبلاغٌ الى دار غيرها ، وسيرٌ الى الموت ليس فيه تعريجٌ ، فرحم اللهُ امرءاً فكر فى أمره ، وانصح لنفسه ، وراقب ربّه ، واستَقَالَ ذنبه[2] ، بئس الجارُ الغنىُّ يأخُذكَ بما لا يُعطيك من نفسه ، فان أبيْتَ لم يَعْذُرْكَ ، اياكم والبِطنة[3] ، فانها مَكْسَلةٌ عن الصلاة ، ومَفسدةٌ للجسم ، ومؤدِّيةٌ للسِّقَم ، وعليكم بالقَصْد[4] فى قُوتِكم ، فهو أبعدُ من السَّرف ، وأصحُّ للبدن ، وأقوى على العبادة ، وان العبد لن يَهْلِكَ حتى يؤثر شهوتَه على دينه » .

هكذا كان « عمر » يعرف كيف ، ومتى ؟ يُهْلِكُ الانسان نفسه ويُميتُ أصول الفضيلة فيه ؟ — ان الانسان يصاب بذلك . يوم تستعبده شهواتُه وتأسره مآربُه . فكانت الشهوات الدُّنيا اذا عرضت لعُمَر ، جعلها دَبْر أذنه ، وتحت قدمه ...

* * *

(١) مخترم ـ منتقض .

(٢) استقال ذنبه ـ تاب وطلب الاقامة .

(٣) البطنة ـ الشره فى الطعام .

(٤) القصد ـ الاقتصاد .

نظر « عمر » الى المُلك الاسلامى تبسط رقعتهُ ، وتترامى أطرافه ، ثم رأى فريقا من الناس يعيشون عالة من فضل المجتمع ، معتمدين على ما لهم من شرف مَحْتِد — رأى نبلاء قريش وأعيانها يَنْبِشُون فى الممالك الاسلامية ، ويَحيوْن حياة مترفة ، فيها أثَرَة" وفيها امتياز !! وفى ذلك بعث" لحرب الطبقات ، واثارة للأحقاد بين أفراد المجتمع . فحجر على أعلام قريش أن يخرجوا ، ويتنقلوا فى البلدان الا باذن منه ، ولأجَل معين !! فَشكوهُ فبلغه . فقام ، فقال : « ألا ان قوماً يريدون أن يستأثروا بمال الله دون عباده ، فأما وابنُ الخطاب حيٌّ فَلا . انى قائم آخذ بحلاقيم قريش ، وبحُجَزِها[1] أن يتهافتوا فى النار !! .

★ ★ ★

ولقد شاء (عمر) أن يصف نفسه ، ويبيِّنْ سياسته ، ويشرح خُطته فى حكم الناس عند ما ولِىَ الخلافة . حتى يكونوا على بينة من الأمر فخطب خطبةً كانت وثيقةً تاريخية ، وعهداً مسؤولا . بين الحاكم وبين رعيته !!! أذاعت فضائل الحكم الاسلامى وسنَّتْ مبادىء العدالة والمساواة ، واننا لنرى الوازع الأكبر الذى بعث على احكام هذا النظام — هو خشية الله أحكم الحاكمين ...

خطب « عمرُ » المسلمين غداةَ خلافته فقال : — أيها الناس : انى قد علمتُ أنكم كنتم تؤانسون منى الشدةَ والغلظة ، وذلك انى كنت مع رسول الله « صلى الله عليه وسلم » فكنت عبدَه وخادمَه ، وكان كما قال الله تعالى : بالمؤمنين رؤوفا رحيماً ، وكنت بين يديه كالسيف المسلول ، الاَّ أن يُغمدنى أو ينهانى عن أمر . فأكفَّ عنه ، صلى الله عليه وسلم .

فلم أزل مع رسول الله على ذلك . حتى توفاه الله وهو عنى راض — والحمد لله على ذلك كثيراً — وأنا به أسعد ، ثم قُمتُ ذلك المقام مع

(١) حجزة الأزار : معقده ومجمع الشد منه .

أبى بكر الصديق خليفة رسول الله . وكان مَنْ قد علمتم فى رحمته ولينه ، فكنتُ خادمه ، وكنتُ كالسيف المسلول بين يديه على الناس . أخلِط شدتى بلينه الاّ أن يتقدم الىّ فأكفّ ، فلم أزل حتى توفاه الله فكان عنى راضيا — والحمد لله على ذلك كثيرا وأنا به أسعد . ثم صار أمرُكم اليوم الىّ وأنا أعلم أنه يقول قائل : كان يشتدُّ علينا والأمر الى غيره ، فكيف به لما صار الأمر اليه ؟! فاعلموا أنكم لا تسألون عنى أحداً ، فقد عرفتمونى وخبرتمونى . وقد عرفتُ بحمد الله من « محمد » نبيكم صلى الله عليه وسلم ، ما قد عرفت ، وما أصبحتُ نادماً على شىء كنت أحبُّ أن أسأله الا وقد سألته » .

« واعلموا أن شدتى التى كنتم ترونها ازدادتْ أضعافاً على الظالم ! والمعتدى والأخذ لضعيف المسلمين من قويّهم ، وانى بعدَ شدّتى تلك . واضعٌ خدّى على الأرض لأهل العفاف ، وأهل الكفاف ، ان كان بينى وبين أحد منكم شىءٌ فله أن أمشىَ معه الى مَن أحبّه منكم ؟ فينظر فيما بينى وبينه ، فاتقوا الله وأعينونى على نفسى بالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، واحضارى النصيحة فيما ولاّنى الله من أمركم » .

« أيها الناس : انه لم يبلغْ ذو حقٍّ فى حقه أن يطاع فى معصية الله ... وانى لا أجدُ هذا المال يصلحه الا خلال ثلاث : أن يؤخذ بالحق ، ويُعْطَى بالحق ، ويُمْنَع من الباطل . وانما أنا ومالكم كولىِّ اليتيم ، ان استغنيتُ استعففتُ وان افتقرتُ أكلت بالمعروف ، ولست ادع أحداً يظلم أحدا أو يعتدى عليه ، حتى أضعَ خدّه على الأرض ، واضع قدمى على الخد الآخر ، حتى يخضعَ للحق ، ولكُم علىّ أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذونى بها ... لكم علىّ ألاّ أجبَى شيئاً من خراجكم ولا مما أفاء الله عليكم الا من وجهه !! ولكم علىّ اذا وقع فى يدى ألا يخرج منى الا فى حقّه ، ولكم على أيضا ألا أُلْقِيَكُم فى المهالك وألا أحبِسَكم فى ثغوركم » .

« أيها الناس : ان الله عز وجل قد ولاّنى أمركم ، وانى أسأله أن يُعيننى عليه ، وأن يُلْهِمَنى العدل فى قسمكم كالذى أمَر به . ولن يغير الذى وليتُ

من خُلُقى شيئاً . ان شاء الله . انما العظَمة لله وحده وليس للعباد منها شيء !!! فلا يقولَنَّ أحد منكم ان « عمر » تغير منذ ولِيَ ، اننى أعقل الحقَّ من نفسى ، وأتقدم وأبيِّن لكم أمرى : فأيما رجل كانت له حاجة أو ظلم مظلمة ، فليؤْذِنّى[1] فانما أنا رجل منكم ، فعليكم بتقوى الله فى سركم وعلانيتكم ، وحرماتكم وأعراضكم » .

« وأعطُوا الحَقّ من أنفسكم ، ولا يحمل بعضكم بعضاً على أن تحاكموا الىَّ . فانه ليس بينى وبين أحد من الناس هوادة ، وأنا حبيب الىَّ صلاحُكم !! ، عزيزٌ علىَّ عنَتَكُم ، وانى لمسؤول عن أمانتى ، ومطلع على ما يحضرنى بنفسى ان شاء الله ، لا أكله الى أحد ... !! » .

* * *

أيها المستمع الكريم :

لقد أحكَم « عمر » شؤون دولته بتلك الصراحة وهذه العدالة ، وته المساواة .

ثم نظر « عمر » الى ماتفعله الوساطة فى افساد الأمم ، وضياع الكفاءات وذيوع التواكل ...! من ذلك أنه جاء مولى من مواليه يسأله أن يكتب الى عامله بالعراق ليكرم بعض خاصته . فصاح فيه عمر وانتهره وقال : « أتريد أن يُظْلَم الناس ؟؟ وهل هو الا رجل من المسلمين يَسعُه ما يسعهم ؟ » بتلك الكلمات التى دوّت فى أقطار المجتمع الاسلامى ، عرف البعيد والقريب أن الأعمال هىَ موازين الرجال ، وانصرفوا يعمِّرون ويستعمرون فى ظلال الأمن والطمأنينة والثقة فى عدل أولياء الأمور ..

أيها المستمعون الكرام :

لقد تعلمون فى التشريع العصرى مايثار حول تزوج سفراء الدول وممثليها من الأجنبيات ، وما يتداخل السياسةَ القومية من الوهن فى ذلك السبيل ،

(١) يؤذنى ـ يعلمنى .

وما يصيب روح المجتمع من ذلك الصنيع ؟! فاستمعوا الى ما نقول :

لقد فطن « عمر » لهذا الأمر ، وفكر فيه ، وقدّر عواقبه ، فكتب الى (حذيفة) بعد أن ولاه مدائن كسرى يقول فى كتابه :— « انه بلغنى أنك تزوجتَ امرأة من أهل المدائن ، من أهل الكتاب ، فطلّقها !! فكتب اليه :— لا أفعل حتى تخبرنى ، أحلال أم حرام ؟ وما أردت بذلك ؟ فكتب اليه :— « لا . بل حلال » ولكنّ فى النساء الأعاجم خِلابةً [1] فان أقبلتم عليهن غلبْنَكم على نسائكم » فقال (حذيفة) : الآن أطلقها ! ..

تلك المحاورة ، تدلّنا على مبلغ ماعُنى به « عمر » لسلامة الدول . وسلامة الأمة ... .

وترون فى تلك المحاورة « حُريّة » وَسِعَتْ عاملا يناقش أمير المؤمنين ، فلا يسلم له الاّ مقتنعاً راضياً ..

* * *

أيها المستمع الكريم :

اذا كان شعار الدولة الاسلامية شعاراً دينياً فلقد كان مرماها ، وغايتها أن يسعد الناس فى دنياهم بفضل هذا الدين ، وأن يدبروا شؤون حياتهم تدبيراً حكيما ، وأن يجعلوا مجازهم الى الحياة الآخرة مجازاً كلّه نعيم ، ونعيمُ عيْن ، وألا يزهدوا فى الدنيا زهداً ذليلا ، يفسد انسانيتهم ، ويعطل مواهبهم .

لقد كتب أبو عبيدة بن الجراح وهو قائد جيوش عمر فى غزو الروم — يخبره أنه لا يريد الاقامة (بانطاكِيّة) نظراً لطيب هوائها وخشية اخلاد الجيوش الى الراحة ! فأسرع « عمر » وهو الذى اجتمعت له زعامة الدين والدنيا ، وتدبير السياسة الاسلامية للشعوب من كل جنس ، ومن كل قبيل — أسرع فكتب الى قائده أبى عبيدة يقول :—

---

(١) الخلابة ـ الخداع والمكر .

بسم الله الرحمن الرحيم • من عبد الله عمر بن الخطاب الى أبى عبيدة ابن الجراح ، سلام عليك ، فانى أحمد الله الذى لا إله الا هو ، وأصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وأشكره ملياً[1] على ماوهب من النصر للمسلمين، وجعل العاقبةَ للمتقين ولم يزل مُعيناً لطيفاً ، وأمَّا قولك : انك لاتقيم بانطاكيةَ لطيب هوائها ؟ فاللهُ عز وجل ، لم يحرّم الطيبات على المتقين ، الذين يعملون الصالحات ، فقال تعالى فى كتابه العزيز :

« يأيُّها الرسلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ واعملوُا صَالِحاً إنّى بمَا تعملون عليمٌ » .

وكان يجب عليك أن تُريح المسلمين من تعبهم ، وتَدعهُم يرغدون فى مطعمهم ، ويريحون الأبدان النَّصِبة فى قتال من كفر بالله » •

★ ★ ★

هكذا كان ينظر « عمر » الفاروق الى الدنيا ، ويَسُنُّ الطرائق العمرانية لعمَّاله ، فليعرفْ ذلك المتماوتون ، الذين يرضون بالعيش الدُّون !! ويقنعون من الحياة بذل المقام ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً •• ألا ساء مايعملون !! •

★ ★ ★

ولقد كان عمر مدرسةً تُخرِّج للدنيا كلَّ من أعرقت فيه تعاليم عمر وانها لتعاليمُ الاسلام — فكان يختبر القضاة والقوّاد والأمراء ، ويبعث بهم على بصيرة من أمره فيهم ••

حَدث مرةً : أن « عمر » ساوم بِفَرس ، فركبها ليختبرها ، فعطِبتْ ! فقال « عمر » لصاحبها : خذ فرسَك ، فقال الرجل : لا آخذها وقد عَطِبتْ ! قال « عمر » : اجعلْ بينى وبينك حَكَماً ، قال الرجل : رضيت « شُرَيْحاً » فتحاكما اليه • فقال شريح : « يا أمير المؤمنين • خُذْ ما ابتعتَ ، أو ردَّ كما

(١) مليا ـ كثيرا •

أخذتَ !!! » فقال عُمر : « وهل القضاء الاّ هكذا !! سِرْ الى الكوفة قاضياً عليها !! » قالوا وانه لأول يوم عرف فيه عُمَرُ شريحا !! .

وبقى « شريح » قاضياً هناك ستين سنة !! وأىُّ صفات أوجبُ للقاضى من حرية الارادة ، ومن الاستقلال فى الرأى ذلك الاستقلال الذى دفع « بشريح » ليقضىَ على « عمر » فى حضرته ، وهو أميرُ المؤمنين !! لقد لمَحها « عمر » فى شريح ، فرفعه الى مقام القضاة ..

* * *

أيها المستمع الكريم :

تلك نفحات من العهد العمرى ، وهؤلاء هم الذين ثقّفهم الاسلام !

« أولئِكَ الذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ فَبِهُداهُمُ اقتده ؟ » .

المحاضرة العاشرة :

نشوء الدعوة الإسلامية
فى كنف السلام

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY

الدعوة الاسلامية قامت على الاقناع ـ أبناء المسلمين وتخرصات المبشرين ـ نظرهم الى الحروب الاسلامية ـ خطأ فى الاستنتاج ـ الاسلام يجنح الى السلم ـ يحارب الاكراه فى العقائد ـ يطلق حرية الآراء ـ حروب المسلمين لصيانة الامن ـ للدفاع عن أنفسهم ـ حضانة الدعوة الاسلامية فى كنف المسالمة ـ ثلاث عشر سنة قبل أن يشرع القتال ـ جدال بالتى هى أحسن ـ أعداء الدعوة يحاربونها بالقوة والغدر ـ صبر المسلمين ومصابرتهم ـ الاسلام يغزو العقول بالحجة ـ براهين الحق لا تحتاج الى العنف ـ معسكران للحق وللباطل ـ معسكر سلام . ومعسكر عدوان ـ المسلمون يؤمرون بالدفاع عن أنفسهم وعقائدهم ـ الدفاع عن النفس من طبائع الفطرة ـ متى شرع القتال فى الاسلام ـ أول ما نزل من الآيات فى أمر القتال ـ أسباب القتال ـ دفع الظلم والفساد عن المجتمع ـ حماية الضعاف والمستعبدين ـ صيانة الدعوة وحماية الحرية ـ علاج الهزات الاجتماعية ـ تحريم القتال فى الأشهر الحرم ـ تحريم القتال فى البيت الحرام ـ الاعتداء على العقائد أنكى من الاعتداء على الأرواح ـ الاسلام يحذر من الاسراف فى القتل ـ منع قتال المحايدين والوادعين والمعتزلين للفتنة ـ قوّاد المسلمين يقدمون أمامهم منشور الامان والسلام ـ من وصاياه عليه السلام لقواد الحروب ـ الخلفاء الراشدون ينهون قوادهم عن المثلة فى القتال ـ أبو بكر الصديق يذيع القانون العام فى الحروب ـ اقتداؤه فى ذلك برسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وصية رسول الله لأسامة بن زيد ـ نهى (على) كرم الله وجهه عن سفك الدماء ـ الحروب الاسلامية لم تكن للابادة والتدمير والافناء ـ شاعر العربية الأكبر يصور الحروب الاسلامية أصدق تصوير .

★ ★ ★

أيها المستمع الكريم :

انما نحاول ـ بتوفيق الله ـ أن نكشف عن وجه الصواب ، فى نشوء

الدعوة الاسلامية ، وكيف امتدت ؟ فلقد توالت عليها الحملاتُ الظالمات ، فأصابت منها السماحةَ الاسلامية ، والرفق المحمدىّ ، حتى لظنّ الأحداث والمفتونون ، أن العقيدة الاسلامية قامت على القسر والاذلال ، وأن الفكرة المحمدية كانت تختبىء فى أغماد السيوف ، وتطلّ من أسنان الرماح !! ...

ولقد زاد فى ظلم الماضى أن كثيرا من أبناء المسلمين ، انصرفوا عن تفهّم الآيات البينات ، فهم لا يعرفون الكتاب الا أمانىّ وانْ هُمْ الاّ يَظُنُّونَ !!! .

وأذكرُ أنْ قد تهيأ لرجل تثقّف تثقيفاً حديثاً ، له فكرٌ ، وعنده رأى . تهيأ له أن يجلس ، فيستمع لكتاب الله ، حتى اذا بلغ استماعُه قوله عز وجل :—

« اقتلُوهم حيثُ ثَقِفْتُموهم ، وأخْرِجُوهم مِن حيثُ أخْرجُوكم » تمايل رأسُه يمنةً ويسرةً ، وقال : لَعَلّ فى هذا التحريض سِرّ انتشار الاسلام !! وذيوع الدعوة !! وكيف أملوْها على الناس املاء !! .

لقد هالنى من المثقف هذا الوهم الخاطىء ، والرأىُ الفائل ، وأردت أن أنقل حديثى معه ، الى حديثى مع حضرات المستمعين جميعاً ، فأقول :

ما شَهِدَ التاريخ الانسانى ، ولا عرف مؤرخو الحروب ، شريعةً كالشريعة الاسلامية من أول أمرها أجنحَ للسّلم ، وأرغب عن الاكراه والقسر ، فلما اقتضاها نظامُ الاجتماع أن تحارب ، كانت فى حروبها مدافعة ، لامهاجمة ، رفيقةً بارة ، رحيمة .

حاربت ، ولكن ، حروب اصلاح وتأديب ، لا حروب عدوان واستئصال ...

لقد بقى صاحب الدعوة « صلى الله عليه وسلم » ثلاث عشرة سنة يدعو الى الحسنى ، ويبصّر الناس بالفضيلة . ويَلْقَى هو وأتباعه من عنت الأعداء ، وضروب الايذاء ما جعل المسلمين يفرون بعقائدهم ، مهاجرين الى بلاد الأحباش كرّتين !! . وكلما استشرى الخصوم فى الشر ، وقد كانوا

لا يعرفون اجمالا فى الانتقام ، كان « عليه السلام » يتلقى عن الله ما يثبّت به فؤاده • من آيات بينات •

« خُذِ العَفْو وأمر بالعُرْفِ وأعْرِضْ عَنِ الجاهِلين » •

« يأيُّها الذين آمنوا عليكم أنفسَكُم لا يضرُّكم من ضلَّ اذا اهْتدَيْتم » •

« لا اكراه فى الدِّين قد تبيَّن الرُّشدُ من الغىِّ » •

ولقد كانت الدعوةُ السِّلمية ، تنفذ من وراء الحُجُب ، وتقتحم أقفال القلوب فكانت القبائل وأنصافُ القبائل تدخل فى دين الله أفواجا ، تاركةً وراءها جبروت الأقوياء ، مسارعة الى تكثير هؤلاء الفقراء الضعفاء •••

★ ★ ★

أسلم « أبو ذر الغِفارىّ » وتقبَّل الدعوة بوجدانه الحى ، ثم رجع الى قومه ، فأخذ يَعرض الاسلام على عقولهم ، ويخاطب مكان الشعور من وجدانهم فاهتدى بهدايته ، نصفُ قبيلته •

وأخذ نصارى « نجْران » يحرِّرُون عقولهم بتحرير الاسلام •

وشرعت قبيلة « بنى الأشهل » كلُّها تعتنق الدين الحق ، فى يوم واحد !! وهكذا شاع الاسلام ، وتنقَّل بين القبائل • غيرَ مفروض على الناس قسراً ، ولا مضروب على عقولهم كَرْهاً • بل لم يكن له ولأشياعه من الوسائل غيرُ النصح ، والتلطُّف فى العَرْض ، والحكمة والموعظة الحسنة • فمن ذلك:

« ادْعُ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بالحِكمةِ والموْعِظَةِ الحَسَنَةِ وجادِلْهُم بالَّتى هى أحْسَن » .

★ ★ ★

ثلاثة عشرَ عاماً والجهاد لم يُشرع ، والعقول السليمة تتقبَّل الدعوة ، والطبائع الصحيحة تسارع الى العقيدة •

ولقد نعلم أنه لا ينتشر الخوف ولا يعم الارهاب ، الا حيث يُعْوزُ

الدليل ، ويعزّ البرهان ، وتسقط الحجة ، وذلك كله كامن فى معسكر الجحود والطغيان — فى معسكر أعداء الاسلام — أما المسلمون فقد ناضلوا بالحجة ، ودافعوا بالدليل ، وتحاكموا الى العقل .

فلما صار المسلمون جماعة ، وكوّنوا مجتمعاً ، لم يكن بدعا أن يدافعوا عن أنفسهم اذا اعتدى عليهم ، ولم يكن بدعا أن يحمُوا دعوتهم اذا وقف الطغيان فى سبيلها ، فانّ دفع الشر بالشر ، عند القدرة عليه ، وعند نفاد الوسائل السلمية وساعةَ الدفاع عن النفس ، هو طبيعة الوجود الانسانى . ولم تجىء الشريعة الاسلامية خالقةً انسانيةً أخرى ، وانما هى جاءت تهذّب جموح الانسانية وتقوّم من انحرافها ، وتهيىء لها طريق الكمال الذى أعِدّ لها .

وكذلك شُرع القتال فى الاسلام ، بعد ثلاثةَ عشَرَ عاما من الدعوة لأمرين يتطلبهما صلاح المجتمعات ، وتستند عليهما طبيعة العمران .

الأمر الأول : الدّفاع عن النفس عند العدوان عليها .

الأمر الثانى : الدفاع عن الدعوة اذا ماوقف فى سبيلها الجبروت ، يعذّب من آمن مختاراً ، ليرجع عن دينه مستكرَها ، أو يحول بين المؤمن وبين ايمانه ، أو يمنع الداعى من أداء دعوته .

وأول ما نزل من الآيات فى شأن القتال قوله تعالى :

« أُذِنَ للذينَ يُقاتَلونَ بأنهم ظُلِمُوا وإنَّ الله على نصرِهم لقَديرٌ ، الذين أُخرِجُوا مِن دِيارِهِم بِغَيْرِ حَقٍ إلّا أن يقُولُوا رَبُّنا الله ولولا دفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعضٍ لهُدِّمتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وصلواتٌ ومَساجِدُ يُذْكَرُ فيها اسمُ الله كثيراً ، وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُه إن الله لَقَوِيٌّ عزيز ، الذين إنْ مَكَّنّاهم فى الأرض أقاموا الصلاةَ وآتَوُا الزكاةَ ، وأمَرُوا بالمعْرُوف وَنَهَوْا عَن المُنكَرِ ولله عاقبةُ الأمورِ » .

* * *

تلك آية" انتظمت سَبَبَ القتال فى دِقَّة ، وتحديد : وهو دفع الظلم عن أفراد المجتمع الاسلامى ، والوعد بنصر الذين يدافعون عنه .

وقد بسطت الآية أنواع هذا الظلم ، وجعلت من أفحشه اخراجَ المؤمنين من ديارهمْ لأنهم أصحابُ عقيدة — يقولون ربُّنا الله — ولا يُذِلُّونَ انسانيتهم لشريك آخر ، ثم خُتمتْ الآية بالقاعدة الاجتماعية العمرانية ، التى تَكشف عن ضرورة تلك الحروب من قديم الأزمان ، على اختلاف الأديان — تلك الضرورة هى اقرار الحق فى الأرض ، والابقاء على المعاهد التى تُكوِّنُ الوازع الدينى وتنميه ، وتذكّر الناس بربهم ، تلك المعاهد هى « المعابد » الصوامع ، والبيع ، والمساجد . فهى مدارس الأديان ، وفيها سعادة الانسان ، وعندها مصارع الطغيان — فاذا تكشّفت الحروب بخذلان الباطل ، واستُنقذت الانسانية من أغلالها . كان شأن المنتصرين أن يعمروا الأرض ، وينشروا العدل ، ويقيموا حدود الله . ويبذلوا المعروف ، ويحرصوا على الفضيلة ...

وانك لتقرأ من سورة « الممتحنة » آية بارعة ، تقرر الفكرة الاسلامية السِّلمية اذْ تقول :

« لا يَنهَاكُمُ الله عن الذين لَم يقَاتِلوكم فى الدِّينِ ولم يُخْرِجُوكم مِن دِيارِكمُ أن تَبَرُّوهم وَتُقْسِطُوا إليهم إن الله يُحب المقْسطين . إنما يَنهَاكمُ الله عَن الذين قَاتلوكم فى الدِّين ، وأخْرَجُوكم مِن دِيارِكم ، وظَاهروا على إخْرَاجِكم أن تَوَلَّوْهُم ، ومن يَتولَّهُم فأولئِك هم الظالمون » .

★ ★ ★

تتابعت الآيات بعد ذلك ، تؤكد أن الحروب الاسلامية ليست حروب عدوان ، ولا انتقام ، وانما هى مقابلةُ الشر بمثله ، وعلاج" للفساد الاجتماعى . ببتر الأعضاء الفاسدة .

ثم أرادت الآيات البينات أن تُبرز معنى خطيراً ، لا مندوحة منه .

لوقاية الاجتماع ، ذلك هو تصوير الاعتداء على العقائد ، بصورة هى أنكى ، وأنكر من الاعتداء على النفوس ، ومن ازهاق الأرواح !! وأنه متى استُبدّ بعقائد الأمم ، فقد آذنت بالفناء ، وأشرفت على الموت ، وذلك يأباه الوجود ، فلا مفر من دفع هذا الشر — شرّ تعذيبِ الناس ، ليرجعوا عن عقائدهم ! ولا مفرّ من مقاومة الأعداء ، متى نشروا تلك الفتن ، ولا مفر من تجاوز بعض الحدود ، اجتنابا لأسوأ الشرور ، فقد حَرُمَ القتال عند المسجد الحرام صيانة للمكانة التاريخية القديمة ، واجلالا لرمز السلام بتلك البقعة التى جعلها الله مثابةً للناس وأمناً ، وشرفها بنسبة البيت اليه تعالى اذ يقول :

« وطَهِّر بيْتِيَ للطائفين والعاكِفين والرُّكَّع والسجودِ » .

وما فتئت مكة . فى شتى الأزمان ، مرعية الجناب ، مهيبةَ الحُرمة ، لا يحل صيدها ، ولا يسفك الدم فى أرجائها . ولكن ... متى مَشَتْ عندها الفتنة ، ومتى أبيحت لديها الكرامة الانسانية ، فليكنْ التحلُّ من ذلك المحظور ، وليكن لقاء شر بشر ، وليُقْضَ على الفتنةِ فى مهادِها ، ولو كان مهادُها البيت الحرام !...

فاذا انتهت الفتنة ، وأسبابها ، وصار الناس أحراراً لا يدينون بالعبودية الا لله وحده ، فقد كرمت الانسانية ، وبطلت أسباب الحروب ، وليكنْ من المسلمين عند ذاك العفو والغفران ، لأن ربهم وصفهم بأنهم رحماء بينهم ، يقول تعالى :—

« وَقَاتِلوا فى سبيل الله الذين يُقاتِلونكم ، وَلا تعتَدوا ، إنَّ الله لا يُحِبُّ المعتدين ، واقتلُوهم حَيث ثَقِفْتُموهم ، وأخرجوهم مِن حيث أخرجوكم ، والفِتْنةُ أشَدُّ مِن القَتْلِ » لأن الفتنة اعتداء على العقيدة والوجدان ، وذلك شرٌّ من قتل الإنسان .

« وَلا تُقاتِلوهم ، عِند المسجدِ الحرام حتى يُقاتلوكم فيه ، فإن قاتَلوكم فاقتلوهم ، كذلك جَزاء الكافرين ، فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم . وقاتلوهم حتى لا تكونَ

فِتْنَةٌ . ويكونَ الدِّينُ لله فإن انتهوْا فلا عُدوانَ إلا على الظالمين ، الشَّهرُ الحرَام بالشهر الحرَام ، والحرماتُ قِصاصٌ ، فمن اعْتدى عَليكم ، فاعْتَدُوا عليه بمِثْلِ ما اعْتدى عَليكم ، واتَّقوا الله ، واعْلموا أن الله مع المتقين » .

★ ★ ★

أيها المستمعون الكرام :

أرأيتم كيف خُتمِت الآية محذِّرةً من الاسراف فى القتال ، مخوفةً من التمادى فى الحروب ، وفى ذلك تنبيه للضمير الانسانى الى تقواه ، والى الخوف من الله ، فلا تكون الحروب الا حيث يوجد العدوان حتى لا تجمح النفوس ، وتذهب فى عنان الانتقام كل مذهب .

أرأيتم كيف كان النهىُ عن الاعتداء قاطعا ، مُعلِناً فى رهبة وقوة : أن الله يُبْغِض المعتدين . ثم جاءت آية بعد ذلك ، تبين من أسباب الحروب ماهو منطو تحت القاعدتين الأولَيْين ، فى أسلوب يستثير النخوة ، ويهز المشاعر ، فقال تعالى :—

« وَما لكم لا تقاتلونَ فى سَبيلِ الله والمستضعفين من الرجال والنِّساء والولدانِ الَّذينَ يَقولون ربَّنا أخْرِجنا مِنْ هذه القَرْيةِ الظالِمِ أهلُها . واجعَلْ لنا مِنْ لدُنكَ وَليًّا . واجعَلْ لَنا مِن لدنك نصيرا » .

وسبيل الله — هو القضاء على فتنة النفوس ، وتعذيب الأجسام ، وارهاب المجتمع ، حتى لا يرتد الناس عن دينهم — ومن ذلك ، ماكان يجده المستضعفون الذين أسلموا بمكة ، ولم يجدوا الى الهجرة سبيلا ، لقد عذَّبهم الطغاة ، وآذوْهم وفتنوهم ، فكانوا يضرعون الى الله ، طالبين الخلاص مستنجدين باخوانهم فى دار الهجرة ، فكان حريةً أن يجد هؤلاء ، وأمثالهم من ذوى العقائد مَنْ يحميهم ، ويدفع الأذى عنهم ، ويصون حرية اعتقادهم .

★ ★ ★

أيها المستمع الكريم :

ان مما يتسق مع الأغراض السامية ، التى شُرعت لأجلها الحروب الاسلامية ، المبادىء الكريمةُ التى انتظمتها الآية الحكيمة التالية :

« فإن اعْتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقَوْا إليكم السَّلمَ فما جعل الله لكم عليهم سبيلا »

فكل من اعتزل الفتن ، وجانب الشر وبقى مسالما محايدا فلا سبيل لمسلم عليه ، أما اذا كان جنوحه الى السلم ذبذبة ونفاقا ، وهو يحرّض فى الخفاء ، على العداوة والبغضاء ، فقد وصفته الآية الآتية وحدّدت جزاءه :

« ستجدونَ آخَرينَ يُريدونَ أن يأمنوكم ويأمنوا قومَهم كلما رُدُّوا إلى الفتنة أُرْكِسُوا فيها ، فإن لم يَعتزِلوكم ويُلقُوا إليكمُ السَّلمَ ويَكُفُّوا أيْدِيَهُم فَخُذُوهم واقْتلوهم حَيث ثَقِفْتُموهم وأولئِكُمْ جَعلْنا لكم عَليهم سُلْطاناً مبيناً » .

* * *

أيها المستمعون الكرام :

كان هناك شعار عام يلازم الحروب الاسلامية ويسير معها فى ميادينها ، ذلك هو الحرص على السلام ، والرغبة الصادقة فى أن يتحقق لبنى الانسان أمنهم وسلامتهم ، وسكينتهم وحريتهم ، فاذا مالاح بارق السِّلم ، وتحقق الخير المرجو من الحروب كان على المسلمين واجب هو المبادرة الى السلام !! وأن يستمسكوا بعراه . قال تعالى :

« وإن جَنَحُوا للسَّلمِ فاجْنَحْ لها وَتوكّل على الله » حتى ولو كان جنوح الأعداء الى المسالمة أول الأمر خداعا ، فما ذلك بضائر جيوش الاسلام !! فان بين جنوبهم من العزم ، والتوكل ، ما يكفل النصر ، وينكّل بالمخادعين قال تعالى :

« وإن يُريدوا أن يَخْدَعُوكَ فإنّ حَسْبكَ الله . هو الذى أيّدَكَ بِنَصْره . وبالمؤمنين وألّفَ بين قلوبهم » .

أيها المستمعون الكرام :

بعد هذا كله نقول : — أى سلم قد صحب دعوةً أو شريعة ، أو ديناً ، كما صحب السلامُ شريعة الاسلام ، وأيّة حروب كانت أشبهَ بالتأديب ، منها بالتعذيب كحروب المسلمين ؟ لقد كان القائد الاسلامى ، يخرج فى جيشه ، وفى يده عدة الدفاع ، ومنشور السلام ! كان دستوره محرَّراً بلغة بارّة سمْحة رقيقة . فقد بعث صلى الله عليه وسلم « عليا » فى غزوة باليمن وقال له : « سِرْ حتى تنزِلَ بساحتِهم ، فادْعُهُمْ إلى قول (لا إله إلّا الله) فإن قالوا نعم . فمُرْهم بالصَّلاة ، ولا تبغِ منهم غيرَ ذلك ، ولَأَن يَهْدِىَ بك الله رجُلاً واحداً خَير لك مما طَلَعَتْ عَليه الشمسُ . ولا تقاتِلْهُم حتى يُقاتِلوك » .

وبعث عليه السلام مُعَاذَ بنَ جبل وأبا موسى الأشعرىّ على الكورتين العليا . والسفلى ، من (عَدَن) ووصّاهما فقال : « يَسِّرا ، ولا تُعسِّرا ، وبَشِّرا ولا تنفِّرا » ثم نهى عليه السلام . عن قتل العُسفاء[1] .

أيها المستمعون الكرام :

ان أنباء الحروب الاسلامية ، تَفيض ، بما كان للمسلمين من عون للمرضى ، وتطبيب للأعداء ، وأنفة واباء ، أن يقتلوا الأعزل من السلاح ، أو يمثّلوا بقتيل .

كان عليه الصلاة والسلام كلما بعث جيشا أو سَرِيَّةً . قال : « بِاسْم الله ، وفى سَبيل الله ، تقاتلون من كفر بالله لا تغُلّوا[2] ولا تغدروا ، ولا تمثّلوا ، ولا تقتلوا امرأة ولا وليدا » .

أيها المستمع الكريم :

لقد كان جند الأعاجم ، من الفرس ، والروم ، اذا وطئوا أرضا أفسدوها ، واذا ظفروا بعدوٍّ مثّلوا به ، كانوا يحملون رؤوس البشر ، فى صورة بَشِعة ، الى سُدة ملوكهم بشائرَ للنصر ، واذاعةً للفخر !!! ، فرأى بعض

---

(١) العسفاء — المستخدمون جمع عسيف ، وهو الأجير الذى يستخدم .
(٢) لا تغلوا — لاتخونوا .

أمراء المسلمين ، فى حرب الروم ، أن يعاملوهم بمثل تلك المعاملة ، فبعث « عمرُو بن العاص » و « شُرحبيل بن حَسنة » برأس « بَنان » أحد بطارقة الشام الى « أبى بكر » مع « عقبةَ بن عامر » فلما قدم على خليفة المسلمين ؟ أنكر عليه فعله ! فقال « عقبةُ » : انهم ياخليفة رسول الله ، يصنعون ذلك بنا قال : أفتستنّون[1] بالفرس ، والروم ؟ لا يُحملُ الىّ رأس بعد اليوم ، انما يكفى الكتاب ، والخبر ..» هكذا أخرجه البيهقى .

★ ★ ★

« وأبو بكر » رضى الله عنه ، هو الذى أذاع « القانون الدولى » للحروب كما سنّها من قبلُ رسول الله « صلى الله عليه وسلم » فلقد قال عليه السلام وهو يشيّع جيش « أسامة » : (لا تخونوا ولا تغدُروا ، ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا ، ولا تحرِقُوه ، ولا تَقطعوا شجرةً مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ، ولا بقرة ، ولا بعيراً ، الا للأكل . وسوف تمرّون بأقوام قد فرّغُوا أنفسهم فى الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له) .

★ ★ ★

أيها المستمعون الكرام :

كان التراحم ، وحقن الدماء ، والرغبة فى السلام — كان ذلك كله يُسيطر على أعمال المسلمين ، وعلى سياسة حكامهم ، فلقد حدث أن نقض الروم عهداً فى زمن « معاوية » وكان لدى « معاوية » رهائن من الروم ، فامتنع المسلمون جميعاً عن قتلهم . وخلّوا سبيلهم ، وقال معاوية : « وفاءٌ بغدر ، خير من غدر بغدر ! »

★ ★ ★

(١) تستنون — تقتدون .

واستمعوا ، كيف عَهِد « على بن أبى طالب » الى أمير من أمرائه فقال :

« اياكَ والدماء وسفكَها ، بغير حلِها ، فانه ليس شىء أدعى لنقمة ، ولا أحرى بزوال نعمة ، وانقطاع مدة ، من سفك الدماء بغير حقها ، والله سبحانه وتعالى ، مبتدىء بالحكم بين عباده ، فيما تسافكوا من الدِّماء يومَ القيامة ، فلا تُقوينَّ سلطانَك ، بسفك دم حرام ، فان ذلك مما يُضعفه ، ويوهنه ، بل يزيله وينقله ، ولا عذر لك عند الله ولا عندى ...! » .

* * *

هكذا كان حماةُ الدعوة الاسلامية لا يشبون حربا وهم يقصدون ابادة الأعداء ولا يُذلّون شعوبا ليؤججوا البغضاء ، ولا يحملون دعوتهم فى بحار من الدماء ، وانما كان الاسلام يصلح بالحروب فسادَ المفسدين ، ثم يَسعُهم بعدُ بسماحة الدين ، ويرحم الله شاعر العربية « شوقى » وهو يخاطب رسول الله « صلى الله عليه وسلم » ويردُّ عدوان المعتدين على مبادىء الاسلام ، وعلى تاريخ الاسلام اذْ يقول :

قالوا غَزَوْت وَرُسْلُ الله ما بعثوا * لقتلِ نفسٍ ، ولا جاءوا لسفك دمِ
جهلٌ وتضليل أحلامٌ وسفسطةٌ !! * فَتحْتَ بالسيفِ ، بعد الفتح بالقلم
لما أتى لك عفواً كلُّ ذى حَسَبٍ * تكفل السيفُ بالجُهَّال والعَمَمِ
والشرُّ إن تَلْقه بالخير ، ضقت به * ذَرْعاً ، وإن تَلْقه بالشر ينْحسم !!

المحاضرة الحادية عشرة :

الأخاء والوفاء في الإسلام

يكونان عظمة أبي بكر الصديق

الصداقة المثالية – أول الناس اسلاما – كلمة (أبى بكر) حين أسلم – مبادرته الى التصديق بالاسراء – متى لقب (بالصديق) – الصداقة الخالصة لا يشوبها شك ولا ريب – الصديق معوان فى الشدة – التفدية بالنفس للصديق – ترك المال والأهل والوطن فى سبيل العقيدة – بين الصديقين ليلة الهجرة – خروجهما الى غار (ثور) – نزول الوحى يخلد صداقة (أبى بكر) – حادث فى الغار – (أبو بكر) أشجع الناس – شهادة (على) بن أبى طالب – تحرير الأرقاء من المسلمين – جودة رأيه عند الخطب الجسيم – وداعه لصديقه (محمد) وهو مسجى – عظيمة من عظائم (أبى بكر) يوم موت الرسول صلى الله عليه وسلم – خطبة (السقيفة) التاريخية – وفاؤه للعقيدة يملك احساسه وشعوره – خطبة تجمع المسلمين على رأى واحد – (أبو بكر) يسيطر على الحوادث – فتنة الردة – انتقاض وعصيان – القضاء على الشر فى منبته – اباؤه أن يفرق بين الصلاة والزكاة – رفضه التسامح فى حقوق الله – وفاؤه للحق – أروع صورة للوفاء – ساعة الاحتضار .

★ ★ ★

أيها المستمعون الكرام :

أكثر الناس يَنْشُدون الصداقة ، ويتلمسون الوفاء من الصديق ، ثم ما يزالون يرون سرابا ويشيمون خُلَّباً ، حتى لقد جعل بعض فلاسفتهم شأنَ الصديق الوفى أبعد من أن يُنال ! بل أدخل فى باب المستحيل ! والحقُّ أنك لن ترى مآسى الحياة ، وفجائع الأمور ، الا كان مصدرها صداقةً مدخولة . أو وفاء مريضاً ، وما رأينا الصداقة الا مدخولة ، ولا الوفاء

الا مريضا وكيف ؟ وقد صار من الأمثال التى جرت على جميع الألسنة وتناقلتها الأجيال ، ما يرويه القائل :

وما ساءَنى الا الذين عرفتهم جزى الله خيراً كلَّ من لستُ أعرف

لكننا اذا تقصَّينا النظر ، ألفينا الاسلام وحدَهُ ، قد جعل (الاخاء) (والوفاء) حقيقتين خالدتين ، ثم كوَّن منهما عظمة « أبى بكر الصديق » .

* * *

أيها المستمع الكريم :

أسلم (أبو بكر) أول الناس ، ثم ما كاد الاسلام يخالط قلبه ويشعُّ نور اليقين فى قَسَمات وجهه ، حتى قال لمحمد عليه السلام : (بأبى أنتَ وأمىِّ أهلُ الصدق أنت ... أشهد أن لا اله الا الله ، وأنك رسول الله !!!) على هذا الفِداء المقدس ، تأسَّسَت الصداقةُ الاسلامية ، وقام الاخاء الصدِّيقى ! فاذا الدنيا تشهد الاعاجيب ، واذا التاريخ يروى عظائم الصديق !! .

* * *

شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم عجائب الاسراء ، ورأى آيات ربه الكبرى ، فلما أصبح غدا الى نادى قريش ، فحدَّثهم حديث الاسراء وهم يومذاك يتربصون به الدوائر ، ويتسقطون الزلاتِ ، ويتلمَّسون الهِنات ، ولا يتحاشوْن فى ايذائه وسيلة ، ولا سبيلا ، فما كادوا يستمعون اليه ، حتى أخذوا يُمارونه فيما يرى ، فمن مصفِّق !! ومن ساخر ! ومن مستهزىء ! وأكثرهم أسرع الى « أبى بكر » عسى أن يتزعزع ايمانه (بمحمد) وأن تقتلع تلك الصداقة التى بينه وبين « محمد » عليه السلام ...

ذهب هذا الفريق الى (الصدّيق) يستعديه على صديقه ، ويُشكِّكُه فى صدقه ؛ فلما انتهوْا من وقيعتهم ، قال لهم أبو بكر : « ان كان محمد

(عليه السلام) قال ذلك ، لقد صدَق ، قالوا أتُصدِّقه على ذلك ؟ قال انى لأصدقه على أبعدَ من ذلك » من تلك الحادثة ظهر ايمان أبى بكن أعمقَ الايمان ، واخاء أبى بكر أصدق الاخاء وظهرت صداقتُه أبلغَ صداقة ، فلُقّب من ذلك اليوم « صديقاً » .

★ ★ ★

لم يدع الاسلام فى صدر أبى بكر متّسعاً للريب ، ولا محلاً للشبهات ، فلقد صادق « محمداً » عليه السلام ، وهو على بيِّنة من أمره ، وأمر دينه وخالطهُ صادقاً — والصدقُ حقيقة لا تتجزأ — فما كان الا أن قذف « أبو بكر » بتأييد صديقه فى وجوه الجاحدين ، وعلّمهم أن هذا الاخاء اخاءٌ أقدسُ وأسمى من أن تناله أمانِيهُم ...

أيها المستمع الكريم :

أجمعت قريش على قتل محمد (عليه السلام) وأذن الله له فى الهجرة ، فتفتّحت عينهُ الكريمةُ ، فلم تر غير صديقه (أبى بكر) معوانا فى الأمر الخطير ، والشأن الجليل . وهنا تتبين معالمُ البطولة ، وتظهر آثار الاخاء والوفاء الاسلامىّ ، فاذا « أبو بكر » أعظم العظماء ، والمثال الأعلى للتضحية وللوفاء ... رجلٌ ذو مال وجاه ، وشرف وتجارة نافقة ، وهو فى منابت عِزّه ، ومدارج مجده ، وصاحبهُ طريدٌ وحيدٌ ، يتآمر الأعداء على قتله ويَرصُدون له العيون ، ويُغْرون به السفهاء ! فليس فى صداقته الا مايُثقِل الظهور ، ويكثّر الأعداء ، ويعرض لنوائب الدنيا ، فهل فكر فى ذلك كله « أبو بكر » أو تحامى عُقباه ؟؟ لا .. لقد كان أكبر همه أن ينصرَ صديقه ، وأن يؤازره فى الشدة الحازبة ، والساعة العصيبة ، فما كاد (محمد) عليه السلام يذكر لصديقه أنه مهاجر ، حتى سأله أيرضى بصحبته فى تلك الهجرة فقال ، له (نعم !!) فكانت « نعم » بهجة نفسه ، وسكونَ احساسه — بل كانت كأنها البشرى ، أو العيد !! وأى بشرى ، أعز من أن يُرْضى (أبو بكر)

اخاءَه ، هذا الاخاء الاسلامى ، فيبقى مع صديقه فى الوقت الضَّنْك . يوقظ عينَه ، لتنامَ عينُ صديقه ! عينُ (محمد) رسول الله .

وأىّ عيد للصداقة الاسلامية ، أبهج من أن يأنسَ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأن يذهب عنه حزن الاغتراب ووحشة الانفراد ، بتلك الصحبة التى كلها تفدية وحبٌ وولاء ...

★ ★ ★

خرج الصاحبان « محمد » عليه السلام فى عصمة النبوة (وأبو بكر) رضى الله عنه ، فى عصمة الايمان ، والوفاء الاسلامى ، وبلغا (غار ثَوْر) ونزلا فيه ، وقد أخذت عليهما السُبل ، وانطلق الباحثون كلّ مذهب ، حتى بلغ الجواسيس (غار ثور) نفسَه ، وظهرت حوله جَلَبَتُهم ، وضجيجُهم ، وما كان غير أن ينظر أحدهم الى ماتحتَ قدميه ، فيرى صاحب الرسالة « عليه السلام » وصاحبه الأوفى ...

هنا . بكى « أبو بكر » ؟ — وما أكرمها قطرات دمع !!! لكنه لم يكن بكاء خوف على النفس ، فقد وُطِّنَتْ تلك النفس على الشدائد ، ولابكاء الحرص على الحياة ، فقد هانت الحياة حين عزّت العقيدة — لكنه بكاء الحذَر ، والشَّفَق على دين الله وعلى (الصَّديق) — على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أيها المستمع الكريم :

لقد تنزّل الوحى يزكى تلك الصداقة ، ويخلّدها ويقول فى تخليد هذا الحادث الخطير :—

« إذْ أخْرَجَهُ الذّين كفروا ، ثانِىَ اثْنيْن ، إذْ هُما فى الغارِ ، إذْ يَقُولُ لصاحِبه لا تحزَنْ إنّ الله معنا » .

وكذلك حقّت كلمة ربك ، وعَمِيَتْ قلوبُ الأعداء ، كما عَميت عيون الرقباء فلقد كان « أميّة بنُ خلف » وهو أحرص الباحثين عن «محمد»

وصاحبه — كان يصرف أصحابه عن الغار ، ويقول : « بعيدٌ أن يلجأ محمد وصاحبه الى مثل هذا الغار !!! .

بقى (أبو بكر) فى (الغار) مع صديقه الى صبح ثلاث ، وقد علم أن قريشاً قد أباحت دماءهما ، وجعلت أجراً على قتلهما ، فلم يزدد « أبو بكر » الا استمساكا بالصداقة ، وحرصا على الصديق ..

واستمعوا : كيف نما هذا الوفاء الاسلامى ، وسَمَقَ وتفرعت أفنانه حتى كان منه أن جعل « أبا بكر » أشجعَ الناس !! (أخرج البزار فى مسنده عن علىّ أنه قال : — أخبرونى مَن أشجعُ الناس ؟؟ فقالوا أنتَ !!؟ قال : — أمَا انى ما بارزتُ أحداً الا انتصفتُ منه !! ولكن أخبرونى بأشجع الناس ؟ قالوا لا نعلم ، فَمَنْ ؟؟ قال أشجع الناس « أبو بكر » انه لما كان يومُ بدر ، جعلنا لرسول الله عريشاً . فقلنا . من يكون مع رسول الله ، لئلا يهوىَ اليه أحدٌ من المشركين ؟؟ . فوالله مادنا منا أحد الا « أبا بكر » شاهراً سيفه على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم . لايهوى اليه أحد ، الا هوى اليه ، فهو أشجع الناس !! هكذا يشهد « على » « لأبى بكر » وانما يعرف الفضل من الناس ذووه) .

* * *

ولقد أحدثتْ الصداقة الاسلامية ، والاخاء (المحمدىُّ) فى تكوين شخصية « أبى بكر » ما يَبْهر المؤرخين !! ، فما كان يصدر عنه الاّ ما يُحقّق المعنى الأسمى للعقيدة ، ويصوّر الفضيلةَ الاسلامية تصويراً يملأ النفس اجلالا واعظاما ..

أخرج ابنُ (جرير) عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال : —

« كان (أبو بكر) يعتق على الاسلام بمكة ، فكان يعتق العجائز والنساء اذا أسلمْن ، فقال له أبوه : — أىْ بنىّ أراكَ تعتق أناساً ضعافاً ، فلو أنك تعتق رجالا جُلْداً ، يقومون معك ويمنعونك ، ويدفعون عنك ؟؟ قال :

أىْ أبتِ : أنا أريدُ ما عند الله !! وكلهم يُعذَّب فى الله !! » فما أجلَّ انتصار « أبى بكر » للفكرة وحدها !! ، وما أغيرَه عليها ممثلةً فى أى شخص — فى العجائز — فى الضِّعاف — فى الأحرار — وفى العبيد ..

★ ★ ★

أيها المستمع الكريم :

ان أُولى العظائم فى وفاء (أبى بكر) هى وفاؤُه لعقيدته ، يوم انتقل « محمد عليه السلام » الى الرفيق الأعلى !!! لقد وقعتْ المصيبة موقعا أطار الألباب ، وأذهل العقول ، حتى لقد بلغ من هول المصاب أنَّ (عمر الفاروق) فى رجاحة عقله ، وانفساح أفقِه ، ونصاعة رأيه — استنكر أول الأمر أن يموت محمد « عليه السلام » فراح يهدِّد بالقتل كلَّ من قال ان « محمداً » قد مات !! لكنَّ « أبا بكر » قد جمع رأيَه ، واستنقذ من الحزن نفسَه ، وتجلّد وتحامل ، وذهب الى صديقه المسجَّى — عليه السلام — فدخل وكشف عن (وجهه الشريف) . وقالها كلمة الحق :

« بأبى أنتَ وأمّى !! قد ذقتَ الموتة التى كتب الله عليك » ثم خرج الى الناس ، فحمِد الله ، وأثنى عليه ، وقال : (أيُّها الناس) . مَن كان يعبد محمداً ، فان محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حىٌّ لا يموت . ثم تلا قوله تعالى :—

« وَمَا محمدٌ إلا رَسُولٌ قد خَلتْ مِن قَبْلِه الرُّسُلُ ، أَفإنْ مَاتَ أوْ قُتِلَ انقلبتُم على أعْقَابِكُم؟ وَمن ينقلب على عَقِبَيْه فَلَنْ يضرَّ اللهَ شيئاً ، وَسَيجْزِى الله الشّاكرين » .

فما كاد ينتهى من الآية ، حتى تفتّحت بصائر النـاس على الحقيقة الصادقة ، قال عمر : فما هو الا أن سمعتُ أبا بكر يتلوها ، فوقعتُ على الأرض ما تحملُنى رجلاى .

اذنْ ... عاد الى المسلمين صوابهم ، بعد اللحظة الشـادهة الذاهلة ، واستذكرُوا ماذكّرهم (أبو بكر) من الحق فتطامنوا ، وجعلوا يعالجون

آثار المصاب ، ويدبرون لدينهم ولعقيدتهم مايحوطهما ومايحفظهما .

* * *

أيها المستمع الكريم :

(العظيمة الثانية) من عظائم الصّديق أنه بينما كان المسلمون يشتغلون بتجهيز رسول الله ودفنه ، جاءهم نَبأ عظيم .. ؟ جاءهم أن الأنصار تجمعوا فى سقيفة « بنى ساعدة » يتعارضون فى شأن الخلافة ! فأسرع اليهم (أبو بكر) و (عمر) وجماعة من المهاجرين ، ليتداركوا الفتنة فى ابّانها ...

لم ينس (أبو بكر) وَداعَ صاحبه — محمد عليه السلام — ولا توسيده بيده فى مضْجَعه الكريم ، ولا أن يتزود من محيّاه بنظراته الأخيرة — لم ينس ذلك كله ، لأنه وفىٌّ أبلغَ الوفاء ، وهو حزين أمَضّ الحزن وأوجعه ، ولكنّ وفاءَه لصاحبه جزءٌ من وفائه لعقيدته ، وهو مكتئب للفراق ، ولكنه أشدُّ اكتئابا للفُرْقة التى يخشى أن تنبت بين المسلمين ... وان مِن وفائه لصاحبه المُسجّى ، أن يتدارك ميراثه ودينه وشريعته ...

* * *

ذهب (أبو بكر) الى المجتمعين ليقف الموقف العظيم ، فيقول : —

« أيها الناس نحن المهاجرون ، أولُ الناس اسلاماً ، وأكرمهم حَسَباً ، وأوْسطُهم داراً وأحسنهم وجوهاً ، وأكثرُ الناس ولادةً فى العرب ، وأمَسُّهم رَحِماً برسول الله « صلى الله عليه وسلم » — أسْلَمنا قبلكم ، وقدّمنا فى القرآن عليكم !! فقال (تبارك وتعالى) :—

« والسّابِقُونَ الأولونَ مِنَ المهاجِرينَ والأنصارِ والّذين اتّبعوهم بإحسان »

فنحن المهاجرون ، وأنتم الأنصار ، اخواننا فى الدين ، وشركاؤنا فى الفىء وأنصارنا على العدوّ . آويتم ، وواسيتم فجزاكم الله خيراً .

« فنحن الأمراء ، وأنتم الوزراء ، لا تدِين العـرب الا لهذا الحىّ من قريش !!! فلا تَنفِسوا على اخوانكم المهاجرين ، مامنحهم الله من فضله » .

بهذه الخطبة الخالدة نامت الأطماع ، وطَهُرت القلوبُ ، وقام المنحرف ، ووضح السبيل ...

ثم شاء (أبو بكر) بعد هذا أن يستَلّ آثار الفتنة ، بخطاب اجتمعَ فيه الرشدُ السياسى ، الى الحق الصُّراح ، فبرىء من دَنَس السياسة المعروفة ومن آثامها !!! قال مخاطباً المتنافسين على الخلافة : « نحن أهلُ الله ، وأقربُ الناس بيتاً من بيت رسول الله ، ان هذا الأمرَ وان تطاولتْ له الخزْرج لم تقْصرْ عنه الأوس وان تطاولت له الأوس ، لم تقصُر عنه الخزْرج ، وقد كان بين الحيَّين قَتلى لاتُنسَى ، وجراحٌ لاتداوَى ، فان نَعق منكم ناعق ، فقد جلس بين لَحْيَىِ الأسـد ، يمضغهُ المهاجرىّ ويجرعه الأنصار » .

فما سمع المتنافسون تلك الكلمات حتى ثاب اليهم رشدُهم ، وحضرتهم صورُ العـداوات الماضية ، ورجعوا الى أنفسـهم ، يؤازرون الجماعة ، ويكبحون الأهواء ، وتمّ (لأبى بكر) فى أحْلَكِ الأيام . وأحْرج الساعات ، أن يكتب صحفَ عظمته وأن يخلـدّها ... فاجتمع المسـلمون كلهم على خلافته ...

* * *

أيها المستمعون الكرام :

عندما تنزل الشدائد والجوائح تتفزّع لها القلوب فيشتبه الخير بالشر ويختلط الحق بالباطل ، وتنطمس معالم الصواب ، فيحدث من الأمر ماقد يغير وجه التاريخ ، فاما أن يستطيع العظيم أن يسيطر على الحوادث فينتزع النصرَ انتزاعا ، واما أن يستسلم للخطوب فتسحقه الهزيمة سحقاً . وانظروا ما صنعت عظمة (أبى بكر) فى الحادث الجلل ؟؟ .

لم يأت على الاسلام بعد (محمد) عليه السلام حَدَثٌ أخوف عاقبة ، وأخطر أياما ، من فتنة (الرِّدَّة) لأول عهد (أبى بكر) الصديق ، قال (عبد الله بن مسعود) رضى الله عنه : لقد قُمنا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مَقاما كِدْنا نهلك فيه ، لولا أن الله منَّ علينا (بأبى بكر) !!! .

* * *

ظنَّ العرب أن المسلمين ضعفوا ، وانتكث أمرهم ، بعد (محمد) عليه السلام فشرعوا يشقّون عصا الطاعة ، ويتمردون فى مظاهر شتى !! فمنهم مَن منع الزكاة وقال : هى اتاوة لاتطيب اليها النفوس !! ومنهم من راح يشايع (مسيلمة الكذاب) فى ادعاء النبوة !! ثم تتابع الخارجون واندلعت ألسنةُ الشر ، فرأى (أبو بكر) أن الأمر جِدٌ وما هو بالهزل ، وأن وفاءه لعقيدته يستصرخه ، البدارَ !! البدارَ ! خشية أن يخبوَ مَنار الحق ، بعد أن التمعَ وتألّق ، فى أطراف الجزيرة وفيما حولها .

جمع الصحابة واستشارهم فى أن يوجه الجيوش ، ويبعث البعوث من غير هوادة ولا ريْث ...

وقد جاء فى (عيون التاريخ) ، أن أبا بكر لما جمع الصحابة للشورى فى أمر الردة ، قال له عمر : كيف تقاتل الناس ؟ ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أُمرت أن أقاتل الناس ، حتى يقولوا لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله ، فمن قالها عصم منى ماله ودمه ، الا بحقها ، وحسابهم على الله » ، فقال (أبو بكر) : — والله لو منعونى (عِقالا) كانوا يؤدونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه ، واللهِ لأقاتلنَّ مَن فرَّق بين الصلاة والزكاة ، فان الزكاةَ حقُّ المال ، وقد قال : (الاَّ بحقّها) قال «عمر» رضى الله عنه : فوالله ماهو الا أن شرَح الله صدر (أبى بكر) للقتال ، فعرفتُ أنه الحق .

* * *

أيها المستمع الكريم :—

لقد صَلُبَتْ قناةُ (أبى بكر) صلابةً جعلته يرفض أن يتسامح فى حقّ من حقوق دينه ، أو أن يَحيدَ عن نهج (محمد) صديقه ، والجزيرة العربية تموج بالفتن ، وتهدّد بالانتقاض !!! ثم يبدأ « عمر » فى صفوف المعارضة وعمر ، هو عمر !! ورأيه ... رأيه !! ومع هذا كله ، لايستوحى (أبوبكر) غيرَ الوفاء ، الوفاء لدينه ولنبيه ، وفاءً حازماً ، صارماً ، فاذا بجيوشه تنتشر فى أنحاء الجزيرة وتأخذُ الفتنةَ فى مساربها ، وتقضى على الرّدة قضاءً ماحقاً وكذلك اعتزّ أمر الدين « بوفاء أبى بكر » كما اعتزّ فى (الغار) صاحب الدين ، محمد — عليه السلام — بوفاء أبى بكر ...

★ ★ ★

أيها المستمع الكريم :—

لقد سمعتم عن وفاء ، وعن أوفياءَ ، وقرأتم عن أخوّة وعن اخاء وعن حزم وحازمين ، فهل كتب التاريخ صُحفاً كانت عظيمةً فى وفائها ، عظيمةً فى اخائها ، عظيمة فى حزمها ومضائها ، كما كتب صحائف الوفاء الاسلامى ، والاخاء الاسلامى ؟! وهذا الحزم الاسلامى ؟ اللهمّ لا ..

★ ★ ★

ولعلّ الصورة الآتية — وهى تثير الشجن ، وتبعث الجوى ، ترينا أروع صُورِ الوفاء ساعة الفناء — ساعة مفارقة الأحباب . أخرج الامام أحمد عن عائشة رضى الله عنها ، أن أبابكر لما حضرته الوفاة قال :

« أىُّ يوم هذا . ؟ قالوا يوم الاثنين . قال ، فان متُّ من ليلتى ، فلا تنتظروا بى الى الغد ، فانّ أحب الأيام والليالى الىّ أقربُها من رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

فما أروع تعجُّل اللقاء !! وقد بلغت الروحُ التراقى ، وحشرجت فى الصدر ثم هى لاتنسى « الوفاء » !!! الوفاء !!! .

المحاضرة الثانية عشرة *

عيد الهجرة المحمدية

عظات من الماضى للحاضر

الهجرة تذكرنا بعظمة الثبات على المبدأ ـ تذكرنا بجلال الحق ـ تذكرنا ببطولة الصابرين ـ المعركة بين الهدى والضلال ـ (أبو طالب) يأبى تسليم ابن أخيه (محمد) ـ حصار بنى هاشم بالشعب ـ صحيفة المقاطعة ـ تعليقها بالكعبة ـ تنفيذ ما فيها من عقوق وكفران ـ مدة الحصار ـ قصيدة (أبى طالب) الخالدة ـ رأى أبى طالب فى صدق (محمد) عليه السلام ـ رأى أبى طالب فى خلق (محمد) عليه السلام ـ حماية (الرسول) صلى الله عليه وسلم ـ أثر القصيدة فى ارهاب المشركين ـ خوفهم من (أبى طالب) ـ « محمد » بعد موت أبى طالب ـ اشتداد الأذى ـ هجرة الأفراد الى الحبشة ـ دعوة القبائل فى الموسم ـ الأوس والخزرج ـ التحالف ـ بيعة العقبة ـ هجرة الأفراد الى المدينة ـ كلمة العباس بن عبد المطلب فى جمع الأنصار ـ حماسة الأنصار للمحالفة ـ اخلاصهم للدعوة ـ حيرة المشركين فى أمرهم ـ اتفاقهم على الفتك برسول الله (صلى الله عليه وسلم) ـ نزول الصاحبين فى غار (ثور) ـ المشركون يجدون فى البحث ـ أسماء بنت أبى بكر تحمل الزاد اليهما ـ (محمد) ودعوته فى يد القدر ـ فى الصحارى والقفار (يثرب) يخفق قلبها ـ الانتظار ـ نشيد اللقاء ـ الهجرة عيد الانسانية .

★ ★ ★

أيها المستمع الكريم :

اننا اذ نتحدث عن الهجرة النبوية ، ونمجد ، ذكراها ، ونحفل بها انما نقدس فى أثناء ذلك عظمة الثبات على المبدأ ـ نقدس الاباء والمجالدة والمرابطة فى سبيله ـ نشيد بفوز الحق الذى كتب له الخلود على الدنيا ـ الحق

* ألقيت هذه المحاضرة فى أول العام الهجرى .

الصابر على المحن والخطوب — القوىّ على عسف الجبروت — الحقّ المثل فى « محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم « إذْ أَخرَجَهُ الّذينَ كَفَرُوا ثَانى اثنَينِ إذ هُما فى الغَارِ . إذ يَقولُ لِصاحِبِهِ لا تحزَن إنّ الله مَعنَا . فأنزل الله سَكينته عليه ، وأيَّدَهُ بجنود لم تروها وجَعل كلمةَ الذين كفروا السُّفلى وكلمةُ الله هى العُليا والله عزيزٌ حَكيم » .

* * *

منذ أربعة عَشَر قرنا ، كانت المعركة بين الحق والباطل حامية الوطيس ، متشعبة الميادين ، وكان أجهر الأحداث التاريخية صوتا ، وأروعها أثراً ، يهيىء للانسانية الخلاص من دنس الاعتقاد ، واسلام النفس لله الواحد القهار ...

أيها المستمع الكريم :

لم يكد دعاة الباطل من المشركين يشهدون تَسَلُّل المسلمين فراراً بدينهم الى (الحبشة) ، ويشهدون وثوب الدعوة الاسلامية على شدة ماعوّقوها — ثم يروْن بعد ذلك اعتزاز الفكرة باسلام (حمزة) عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، (وعمر بن الخطاب) القوىّ البأس ، العظيم الخُلق — ماكادوا يروْن ذلك ، حتى كرَبَهُم الأمر ، فمشوْا الى « أبى طالب » الذى كان يحمى « محمدا » عليه السلام ، ويُجيره — مشوا اليه يطلبون أن يُسلِم لهم ابن أخيه وأن يأخذ مكانه « عُمارة بن الوليد » أعزّ فتى فيهم !!! هنا ، كبر الأمر « على أبى طالب » وحَمِىَ أنفه الهاشمىّ وأَبى أن يُسلِم ابن أخيه فى عزة وكبرياء ، ثم جمع بنى هاشم ، وبنى المطلب ، ودخل بهم (الشِّعْبَ) ، فتحالفت قريش على مقاطعة هؤلاء ، وكتبوا صحيفة تلك القطيعة ، وعلقوها فى الكعبة مبالغةً فى رعاية نصوصها الآثمة ، وتنفيذ ما فيها من عقوق وكفران ...

* * *

مكث بنو هاشم وبنو المطلب ثلاث سنين فى عزلتهم . لا يصل اليهم شىء الا سرًّا ، ولا يخرجون الا من موسم الى موسم !! وقد بعث « أبو طالب » خوالج نفسه ، وصوّر موقفه من ابن أخيه ومن أعدائه تصويراً فخما ، فى قصيدة من القصائد الخوالد ، هى أفحلُ من المعلقات !! كما قال « ابن كثير » فلما أرسلها « أبو طالب » فى قريش أيأستْهم أن ينالوا من « محمد » عليه السلام منالاً ، ... وهذا عمه ، وتلك همامةُ نفسه !!!

كشفَتْ هذه القصيدة عن رأى « أبى طالب » فى محمد — عليه السلام وأبدعت فى تصوير سيرته ، وخيَّبتْ آمال قريش فى أن يظفروا « بمحمد » ، وأعلنتهم بحرب وصراع دون تسليمه ، ثم تصدت لتسفيه ما أقدمت عليه قريش من قطيعة بنى هاشم ، وخُتِمتْ بالحَدَب والشفق والبرّ يسْبِغُه أبو طالب على ابن أخيه « محمد » صلى الله عليه وسلم :

استمعوا اليها . يرسلها « أبو طالب » فيقول : —

خليلىَّ مَا أُذْنى لأول عاذِل * بِصَغْواء فى حق ولا عند باطل
ولما رأيتُ القوم لا وُدَّ عندهم * وقد قطعوا كلَّ العُرى[1] والوسائل[2]
وقد صارحونا بالعداوة والأذى * وقد طاوعوا أمرَ العدوِّ المزايل
صَبَرْتُ لهم نفسى بسمراء سمحةٍ * وأبيض عضبَ من تُراث المقاول
أعوذ بربِّ الناس من كل طاعن * علينا بسوء أو مُلِحّ بباطل

واستمعوا اذ يسفّه أبو طالب آراءَ قريش فيقول :—

كذَبْتُمْ وبيت الله نبزى[3] محمداً * ولما نطاعن دونه وننـاضل
ونسلمه حتى نُصرَّعَ حوله * ونذهل عن أبنائنا والحلائل

وبعد هذا يشيع أبو طالب محامدَ محمد « عليه السلام » ويقرر سيادته فى قومه فيقول :

(١ ، ٢) الوشائج والروابط والصلات . (٣) نسلم (محمداً) إلى أعدائه .

وما تركُ قوم لا أبالك سيداً ؟؟ * يحوط الذِّمار غير ذرب[1] مواكل !!
وأبيض يستسقى الغمام بوجهه * ثمالُ اليتامى ، عصمة للأرامل
يلوذ به الهُلّاكُ[2] من آل هاشم * فهم عنده فى رحمة وفواضل
حليمٌ ، رشيدٌ ، عادل ، غيرُ طائش * يوالى إلهاً ليس عنه بغافل
لقد علموا أن ابْنَنا لا مكذّبٌ * لدينا ، ولا يعنى بقول الأباطل
فأيّده ربُّ العباد بنصره * وأظهر ديناً حقه غير ناصل[3]

★ ★ ★

واستمعوا : كيف تكون صراحة العربى ، الذى اكتملت له الرجولة واجتمعت عنده الشهامة !!! —

ان « أبا طالب » يقرر فى جهر وعلن . أن محمدا صادقٌ لديه ، وأنه لولا أن يتسامع الناس بترك « أبى طالب » لدين آبائه ، لكان أول مستجيب له ، استمعوا له وهو يقسم : —

فوالله لولا أن أجىء بسُبَّة * تُجَرُّ على أشياخنا فى القبائل
لكنّا اتبعناه على كل حالةٍ * من الدهر ، جداً غير قول التهازل

ثم يأخذ « أبا طالب » الشَّفَقُ والحدَب ، فيرسل أبياتا كلها تعطّف وحبٌ وولاء ، ودعاءٌ (لمحمد) عليه السلام — انه يقول : —

لعمرى لقد كُلفتُ وجدا (بأحمد) * وإخوته ، دأب المحبِّ المواصل !!
فلا زال فى الدنيا جَمالاً لأهلها * وزينا لمن ولاه ذبَّ[4] المشاكل
حَدِبْتُ بنفسى دونه ، وحميتُه * ودافعت عنه بالذُّرى والكلاكل

★ ★ ★

كان لهذا الشعر القوى أثر بعيد فى قريش ، وفى المشركين ، فرهبوا شأن

---

(١) مكثار ثرثار . (٢) الفقراء .
(٣) ليس متغيراً بل هو ثابت . (٤) قطع .

(محمد) عليه السلام ، وأكبروا حماية (أبى طالب) له . فلما مات (أبو طالب) عاودت قريشا أحلامها ، فراحوا يقلبون الرأى فى استئناف الايذاء وتدبير الخلاص ...

ضيّقوا السبل على من آمن بمحمد عليه السلام ، وأوسعوا المسلمين عَنَتاً وارهاقا ، ففكر صلى الله عليه وسلم : كيف يؤدى رسالة ربه ؟؟ وكيف يجد السبيل الى قلوب لم يفسدها هذا العناد الطاغى ؟؟ فرأى أن يَرُوض نفوساً أخرى لعلها تكون أصلح للخير ، وأقرب للهدى ، وأعونَ على النجح ، ولعله واجدٌ فيها أنصاراً على قومه ، وأعواناً على دعوته ...

كان يتحين المواسم ، ويتتبَّعُ الحجيج ، ويدعو القبائل ويرجو مَنَعَتَها حتى يُبلِّغ أمر الله ، (وأبو لهب) من ورائه يؤلِّب الناس ، ويقول : لاتطيعوه !! فانه صابىء كذاب !! فيردُّون رسول الله رداً غير جميل ...

★ ★ ★

أيها المستمعون الكرام :

ان الأقدار الالهية كانت تهيىء للأحداث العظيمة ، وكان خطبُ المشركين وشرهم قد تفاقم ، فحضر فريق للحج من قبيلتى الأوس والخزرج ، وكانتا تسكنان (المدينة) ، وتجاوران هناك اليهود ، ويستمعون منهم بأن سيكون « نبىّ » فى هذا الزمان ، فاذا ماظهر تبعه اليهود ، وقاتلوا « الأوس والخزرج » وأفنوهم فناء « عاد وارم » فلما جاء بعض الأوس والخزرج وشاهدوا الأمر الذى جدَّ بمكة والناس يتحدثون فيه ، وأن محمداً يدعو الى دين جديد . قال بعضهم لبعض : « تعلمون والله ياقوم ان هذا الذى توعدكم به يهود المدينة !! ، فلا يَسْبِقُنَّكم اليه » .

★ ★ ★

خطر لرؤساء الأوس أن يحالفوا قريشا على الخزرج وكانت العداوة

بين الفريقين لا تخمد ، فلما جاء فريق منهم الى (مكة) لهذا الغرض ، لقيهم صلى الله عليه وسلم وقال :

« هل لكم فى خير مما جئتم له ؟ أن تؤمنوا بالله وحده ، ولا تشركوا به أحداً » . ثم تلا عليهم ، آيات من القرآن ، فرقت النفوس ، وجاءت الهداية وقال « اياس بن معاذ » وكان شابا حدثاً بارًا « هذا والله خيرمما جئنا له » .

★ ★ ★

أيها المستمعون الكرام : —

بدت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، بوادر الخير فى هؤلاء فما زال يتتبعهم بارشاده ، ويعالج توجيههم الى الخير ، ولقى عند (العقبة) ستة من قبيلة الخزرج بينهم أبو أمامة (أسعد بن زُرَارة) فدعاهم الى الاسلام ، والى معاونته فى تبليغ رسالة ربه ، فآمنوا به وصدقوه وقالوا :

انَّا تركنا قومنا بينهم من العداوة ما بينهم ؟؟ فان يجمعهم الله عليك ، فلا رجل أعز منك ، ووعدوه المقابلة فى الموسم المقبل .

أخذ الأمر يسهل بعد عُسر ، ووجد رسول الله صلى الله عليه وسلم منافذ الخير تتفتح ، وحضر اثنا عشر رجلا ، واجتمع بهم عليه السلام ، فبايعوه عند (العقبة) على أنهم لا يشركون بالله شيئا ، ولايسرقون ، ولايزنون ، ولايقتلون أولادهم ، ولا يأتون ببهتان يفترونه بين أيديهم ، وأرجلهم ، ولايعصون رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى معروف ، فمن وَفى . فله الجنة . وَمن غَشِيَ من ذلك شيئاً ، فأمره الى الله عز وجل ان شاء غفر ، وان شاء عذَّب ...

★ ★ ★

فى حماية تلك البيعة ، ذهب الى المدينة رُسُلُ محمد « عليه السلام » يُعلِّمون ويفقِّهون ويدعون بقية (الأوس والخزرج) الى الاسلام فتكاثر العديد ، وذاع الاسلام ، فلما كان الموسم التالى ، جاء خلق كثيرون من

« الأوس والخزرج » وكأنما كان مكان (العقبة) الذى يتواعد عنده الأخيار الأبرار ، مؤذنا دائماً بانفراج العقبات !! وحل الأزمات !! فقد تسلل الى (العقبة) بعد هزيع من الليل ، ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان ، قال كعب ابن مالك وكان أحد هؤلاء :

(اجتمعنا فى الشعب ننتظر ، رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه ، الا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ، ويتوثق له . فلما جلس كان العباس أول متكلم . فقال: يامعشر الخزرج : (وكانت العرب تسمى الحى من الأنصار — الخزرج — أوسها وخزرجها) « ان محمداً منا حيث قد علمتم ؟ وقد منعناه من قومنا — ممن هو على مثل رأينا فيه — فهو فى عز من قومه ، ومنعة فى بلده ، وانه قد أبى الا الانحياز اليكم ، واللحوق بكم ، فان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه اليه ، ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما علمتهم من ذلك ، وان كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج اليكم ؟؟ فمن الآن فدعوه ، فانه فى عز ومنعة من قومه ، وبلده » .

قال كعب : قد سمعنا ما قلت ياعباس . فتكلم يارسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت . فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتلا القرآن ، ودعا الى الله ، ورغب فى الاسلام . ثم قال : « أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم ، ونساءكم ، وأبناءكم ، وأموالكم » .

فأخذ « البراء » بيده ، ثم قال : نعم ، والذى بعثك بالحق لنمنعنك . فنحن والله أبناء الحروب ورثناها كابرا عن كابر !!! .

* * *

بتلك البيعة القوية ظهرت حماسة الأنصار ، وتجلى اخلاصهم للدعوة ، فلما أمرهم صلى الله عليه وسلم أن ينصرفوا فى حذر من قريش . قال له سعد بن عبادة : والذى بعثك بالحق ان شئت لنميلن على أهل منى غدا بأسيافنا .

فقال صلى الله عليه وسلم : (لم نؤمر بذلك . ولكن انصرفوا الى رحالكم) .

نفر الناس من منى ، وعادَ الأنصار الى المدينة ، وذاع الاسلام هناك ، وكبَر الأمر على المشركين . فلم يبق أمامهم الا أن يتآمروا على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم — وهذا الرأى عندهم فصل الخطاب ...

★ ★ ★

اجتمعوا فى الليلة الحالكة ، لانفاذ الفكرة الغادرة ، وترصدوا له بسيوفهم الآثمة . فيالله ! ما أجرَم القوم ، وما أهولَ الساعة !؟ .

لقد كان قلب الدهر خافقاً ، وعينُ الزمان ساهرة : ولو تم للمشركين ما أرادوه تلك الليلة ، لارتاع التاريخ !! واسودتْ الدنيا !! واغبرَّ وجه الزمان !! . لكنَّ الله غالبٌ على أمْرِه ، وأين مكْر القوم ؟؟ من وقاية الله ؟؟!

«وإذ يمكُرُ بكَ الذين كفروا ليُثْبِتُوكَ أوْ يقتُلوكَ أوْ يُخْرِجوكَ ، ويمْكُرون ، ويمكرُ اللهُ ، واللهُ خَيْرُ الماكِرين » .

★ ★ ★

عَلِمَ — صلى الله عليه وسلم — بما بيَّتَه المشركون ، فخرج ومعه صاحبه أبو بكر الصديق ، الى غار فى الجبل بأسفل مكة ، فدخلاه ، وبقيا به ثلاث ليال « وقريش » يقيمها الأمرُ .. ويقعدُها . وقد أسقط فى يدها فجعلت مائةَ ناقة ، لمن يظفر (بمحمد) وصاحبه . وكانت الفتاة الصغيرة « أسماء » بنت أبى بكن ، تروحُ عليهما كلَّ مساء فى خفاء ، تقطع فى جوف الليل الطريق الوعر المضنى ، تحمل اليهما الزاد والماء ، وبلغ من شجاعة الفتاة ، وقوة نفسها وحرصها على كتمان الأمر ، أن يقابلها الرجل الأحمق (أبو جهل) فيسألها : ماشأن أبيها ؟ وأين هو ؟ فتتجاهل الأمر !! فيلطمها الأثيم على وجهها ، لطمة يطير لها قُرطها من أذنها !!! ومع هذا لاتبوح بمكنون سرها !! .

أيها المستمع الكريم :

لمّا سكن الطلب عن الصاحبين ، وهما فى الغار ، جاءهما الدليل — فسارا فى وهج القيظ وتلظى الهجير — سارا يطويان الظلام ويصلان الصبح بالمساء ، فهل درت قريش ، وهل درت الصحارى والقفار ، والنجد والسهل ، والليل والنهار مَنْ ذا الذى يجوب المهالك ؟ ويقتحم الأخطار ؟؟ انه أمل الدنيا !! انه رحمة الله للعالمين !! انه « محمد » بن عبد الله — رسول الله ومجتباه ، فهو مكلوء بعين لاتنام ، وهو فى كنف لايرام ، وانها — لعمرك — لجرأة الايمان ، وشجاعة الاستيقان !! .

أيها المستمع الكريم :

كانت (يثرب) يخفق فؤادها كل لحظة شوقاً وارتقابا للسيد الكريم — صلى الله عليه وسلم — فما هو أن حلّت ركابه ، وبزغت أنواره ، فاذا (يثرب) . فى عيد بهيج ، واذا بها تنشد الأهازيج :

طلع البدرُ علينا * من ثَنِيَّاتِ الوَداع
وجب الشكرُ علينا * ما دعا لِلّهِ داع
أيها المبعوث فينا * جئت بالأمر المطاع

★ ★ ★

أيها المستمع الكريم :

حقاً ان عيد الهجرة لعيد فريد ، وعهد للانسانية جديد ، فمن هناك انبعث الخير يملأ أقطار الدنيا ، ويحمل للعالم شريعة كلها أمن وسلام ، وحرية وفضيلة ، كلها هدى ونور ، وشفاء لما فى الصدور ، فلتمتلىء قلوب المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها فرحا بذكرى الهجرة .

★ ★ ★

(قلْ بفضل الله وبِرَحْمَتِهِ فبذلك فليفْرَحُوا هو خيرٌ مِمَّا يجْمَعُون) .

المحاضرة الثالثة عشرة :

الفضائل والمحامد الإسلامية

فى عثمان بن عفان

رفق (عثمان) ـ أصله وأرومته ـ حب قريش له ـ تغنيهم بصفاته ومناقبه ـ اقباله على الدعوة المحمدية ـ بذله فى سبيلها ـ تفانيه فى التمسك بها ـ مكانته وفضله ترشحانه لمصاهرة رسول الله ـ اتصاله بالبيت النبوى ـ زواجه من بنتى الرسول صلى الله عليه وسلم ـ الزوجة الأولى ـ رقية ـ موتها ـ زواجه من أختها أم كلثوم ـ حزنه ومواساة الرسول له ـ صور باهرات من حياء (عثمان) ـ بره وعطفه على الخدم والأرقاء ـ نفوره من مناظر الاثم ـ سخاؤه الفياض ـ بره بماله لأصدقائه ـ أسلوبه الرقيق فى عزل ولاته ـ سهولته فى البيع والشراء ـ يسر التعامل معه ـ كراهته للأساليب العنيفة ـ علاجه للثورة الجامحة ـ رغبته عن سفك دماء المسلمين ـ كيف بدأت الفتنة العاصفة ـ رأس الفتنة وباعثها ـ عبد الله بن سبأ اليهودى الذى أسلم ـ بث الفتنة والاحتيال لها ـ علاج (عثمان) لها ـ دخول (أبى ذر) فى لهيبها ـ حسن نيته ـ مراجعة (عثمان) (لأبى ذر) ـ عزل أبى ذر عن الناس ـ حوار بينهما ـ (عثمان) يأبى المقاومة حقنا للدماء ـ عكوفه فى الساعة الرهيبة على كتاب الله ـ دمه الأزكى يقطر فوق المصحف ـ استشهاده وسط الأعاصير الجائحة ـ دم (عثمان) فى عنق داعيه الفرقة (ابن سبا) .

★ ★ ★

أيها المستمعون الكرام :

نريد أن نجلوَ — الآن — صحفاً مشرقة خيِّرة ، وأن نذيع الفضائل والمحامد الاسلامية لبطل اسلامى : ان يكن فى سجاياه رِفق وفى سياسته لين ، فانه كان ذا قوة فى الخُلُق ، وطهارة فى النفس ، وبراءة ونزاهة فى النيات ،

وسخاء بكل عزيز اذا جَدَّ الجِدُّ ، وكذلك الاسلام : يُبدع فى تكوين العظماء الأفذاذ !! فكلما ألْمَمْنا بشخصية اسلامية ، رأينا على اختلاف ما بين الطبائع من صلابة وخشونة ونعومة — رأيناها منبتا خِصبا لكل فضيلة ولكل مَحْمدَة ، ولكل كمال ...

فاذا ما تمثلنا (عمر) ، وقلنا : —

(قسا فالأسد تفزعُ أن تراه !!) تتمثل « عثمان » فنقول :

(ورقَّ فنحن نجزع أن يذوبا) وفى كلتا الشخصيتين ترى النقائب الاسلامية قد امتزجت بالطبيعتين ، فخرَّجت صوراً للبطولة ، ومُثلاً عليا للكمال .

* * *

وهذه أثارة من سيرة عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أبى أميَّة ، ابن عبد مناف ، يلتقى فى النسب الأعلى مع سيدنا (رسول الله) صلى الله عليه وسلم ، فى (عبد مناف) . فهو ، فى الصميم من قريش ، عريض الجاه ، وهو واسعُ النعمة وافرُ المال . حُبِّب الى قومه حباً حتى جعل العقائل والأمهات يتغنَّيْن به وهنَّ يُنشِّئْن أطفالهن !!! فلقد حكى ابن عساكر :— أنْ كانت المرأة من العرب تُرقِصُ صبيَّها ، وهى تقول :—

« أُحبكَ والرحمن * حبَّ قريشٍ عثمان »

أقبل (عثمان) على الدعوة الاسلامية سابقاً ، وبذل فيها مايعز على الناس بذله راضياً ، ولم ينحرف عن الهدى على شدة مالقى من تعويق ، وتعذيب ، وتغريب ...

أخرج ابن سعد : — أنه لما أسلم « عثمان بن عفان » أخذه عمه الحكم فأوثقه رباطا ، وقال : — (أوَ ترغب عن ملة آبائك الى دين مُحدَث ؟؟ والله لاأدعُك أبداً حتى تدع ما أنت عليه !!) فقال (عثمان) : (والله لاأدعه أبداً ، ولا أفارقه !!) فلما رأى الحَكَمُ صلابة « عثمان » أطلقه !! .

أيها المستمع الكريم :

أو لستَ ترى هنا قوةً فى خلق (عثمان) ومتانة فى عزيمته اذْ يتصل الأمر بعقيدته ؟؟ .

ولقد كان من الساعة الأولى أثِراً ، مقدَّماً ، محبَّبا من (رسول الله) صلى الله عليه وسلم — وهل أدل على صحة رأيه — عليه السلام — فى (عثمان) وتلمُّح السمّو والنبالة فى خلائقه ، وتعرف نقائب الخير فيه — هل أدلَّ على ذلك مِن أن يختصه . رسول الله صلى الله عليه وسلم — فيخلطه بالبيت النبوىّ الكريم ! ويختاره زوجا لابنته « رقية » حتى اذا ماتت ، بقى عليه السلام ضنيناً « بعثمان » ضنيناً بالزوج البار ، ليزوجه بنته الثانية « أم كلثوم » !!! .

وصارَ « لعثمان » اللقب الخالد على الأيام بتلك المصاهرة الشريفة ذلك اللقب هو (ذو النورين !!) .

ولما توفيت « أم كلثوم » أراد صلى الله عليه وسلم أن يواسِىَ الزوج المكلوم ، فقال كلِمَته التى خلَّدت فخار عثمان — قالها وهو مرزوء بابنته الثانية — يا عثمان — « لو أنَّ لنا ثالثةً لزوجناك » !!!

أيها المستمعون الكرام :

كانت (لعثمان) يد رفيقة برعاياه ، وقلب ينبض حناناً عليهم ، وعين لاتنام عن رعايتهم ، والى ذلك نفسٌ مؤمنة مطمئنة راضية ، وجنان ثابت لاتستطيره النوائب ، يرى صاحبهُ الموتَ رأىَ العين ، فلا يزعجه ذلك عن تقواه ، ولا يشغله عن كتاب الله ، ولا يذهله عن النصيحة لعباد الله ، وشجاعة وَسَطَ أسياف الغدر ، وخناجر البَغْى ، فلا تكاد تصدِّق وأنت تنظر الى عثمان — أن للموت سلطانا على تلك الحياة ، ولا أن للفزع سبيلا الى هذه السكينة والطمأنينة ، حتى اذ ماحان الحيْن .. ووقعت الواقعة وانفجرت المأساة وثار الثائرون ، تقطَّر دم « عثمان الأزكى » . فداءً لوحدة المسلمين وهو يكفُّ أنصاره عن القتال حقناً لدماء المؤمنين ، وصعد روحه الى أعلى عليين ، شهيد النيات الصالحات الزاكيات .

أيها المستمع الكريم :

بعد ذلك نعرض لصورة انسانية أشبه ما تكون بالصور الملائكية ، صورة حَيِيَّة" أعرقَ فيها الحياء ، حتى لتُجَانِب الدنس والرجس استحياءً من الله تعالى ، واستعلاءً بمقام النبوة المحمدية وحفظا لآثارها الشريفة ...

لقد صافحتْ يدُ « عثمان » يدَ رسول الله « صلى الله عليه وسلم » وهو يبايعه ، فآلى على نفسه وأخذها بأن لا تَمَسَّ يدُه بعدها رجساً !! . ولا تلامس ما يستحى منه !! وكان يتحدث عن نفسه فيقول : انه ماتغنَّى ولا تمنىَّ ولا شربَ خمراً فى جاهلية ، ولا فى اسلام ، ولا لامستْ يمينُه ما يستحى مِن ذِكْرِه ، منذ بايع رسول الله « صلى الله عليه وسلم !!! » .

ولقد بلغ من أمر حيائه أن كان يستحى أن يرى نفسه عريان ، حتى وهو بعيد عن الأنظار !! وذلك ضربٌ من « الحياء بديع » يجمل أن يتدبره أبناءُ المسلمين الذين عرِيتْ أخلاقهم من الحياء ، فعريتْ أجسامهم عن الثياب !! ..

قال الحسن بن على « رضى الله عنهما » — لقد كان عثمان يكون فى جوف الليل . والباب عليه مغلق ، فيضعُ ثوبه ليفيض على جسمه الماء ، فيمنعه الحياء أن يقف وأن يرفع صلبه .

فهل يهون على تلك الشمائل الاسلامية التى تستحى حتى من نفسها — هل يهون عليها أن تُلمَّ بريبة ، أو تقارف مأثمة ؟؟ اللهم لا ...

أيها المستمع الكريم :

لقد كان الى جانب حيائه رحيم العاطفة ، رقيق الحاشية ، حلو الشمائل ، بحيث يكاد يكون نسيجَ وَحْدِه ، وطرازاً للانسانية فى أعلى صورها ، فكان من فرط ما ينبض قلبه بالحنان على بنى الانسان ، اشفاقه من أن يوقظ خادمَه فى جوف الليل فيحرمَه الراحة ، وطيبَ الكرى !!!

رَوى « علىُّ بن مسعدة » عن عبد الله الرّومى قال : — كان « عثمان »

يلى وضوءَ الليل بنفسه ، فقيل له : — لو أمرت بعضَ الخدم فيكفوك ؟ قال لا !! « الليل لهم يستريحون فيه !! » • وروى « الزبير بن عبد الله » قال حدثتنى جدّتى أن « عثمان » كان لا يوقظ أحداً من أهله اذا قام من الليل » •

أيها المستمع الكريم :

لقد كانت نفس عثمان تنفعل ، اذا مافاجأ عينه منظَر منكر أو مشهد قبيح !! ، نُقل فى الرياض النضرة عن سليمان بن موسى :— أن عثمان بن عفان دُعِىَ الى قوم كانوا على أمر مُنكر ، فخرج اليهم ، فوجدهم تفرّقوا • فحمد الله اذْ لم يصادفهم ، وأعتق رقبة شكراً له تعالى • على ذلك !!! •

وان من آثار الخِلال الخيِرة التى جمعها الاسلام ، فى تلك الشخصية « البذل والسخاء » و « صلة الأرحام » و « الترفية عن ذوى القربى » •

لم يقف سخاؤه فى نصرة « النبى صلى الله عليه وسلم » عند حد • فقد جهّز الجيش فى غزوة العُسْرة من حُرِّ ماله ، وسارت أحاديث سخائه فى المجتمع الاسلامى ، فعن « أبى اسحاق السرّاج » قال : قال أبو اسحاق القرشى يوما : مَن أكرم الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلتُ « عثمان بن عفان » قال : كيف وقعت على عثمان من بين الناس ؟ قلت : — لأنى رأيت الكرم فى شيئين ، فى المال ، والروح ، فوجدت عثمان جاد بماله على رسول الله ، ثم جاد بروحه بعد ذلك !!! •

كان « عثمان » يُرضى بالكرم عاطفة فى نفسه ، فيغتبط ، ويسعد اذا استطاع أن يسدى عارفة من عوارفه ! كان له على (طلحةَ بن عبد الله) خمسون ألفاً • فقال له يوما : « ياعثمان » قد تهيأ مالُكَ فاقبِضْه ! قال : هُوَ لك يا (طلحة) معونة على مروءتك !! •

* * *

لم يكن (عثمان) يلقى أحداً بما يكره ، ولا يغاضب عاملا من عماله وانما

يأخذه بالرفق ، ويعالج شأنه بالهوادة ، حتى اذا ما صمم على اقصاء وال عن عمله صاغ خطاب العزل فى أسلوب رقيق ، لا يتسخَّط منه المعزول ! .

كان عمرو بن العاص عاملا على مصر (لعمر بن الخطاب) فلما وَلىَ « عثمان » ، جعل على الخراج « عبد الله بن سعد » وعلى الصلاة « عمرَو بنَ العاص » فما زالت النَّمائم تمشى بين الاثنين . حتى كتب عبد الله بن سعد الى « عثمان » يقول : « ان خراجى لا يستقيم مادام « عمرو » على الصلاة . فكتب « عثمان » الى عمرو : انه لاخير لك فى صحبة من يكرهك . فأقبل !! . » بهذا الأسلوب . كان عثمان يصوغ حتى كتب العزل ! .

ولعل سهولةَ خلائقه ، واليسر والاسجاح فى أعماله ، كانت منبعثةً فيه عن معان اسلامية ، تركزت فى نفسه ، فكان حرصه عليها يعدل حرصه على أصل من أصول شريعته ...

أخرج « ابن عساكر عن عطاء » قال : اشترى « عثمان » من رجل أرضا . فأبطأ البائع على « عثمان » فلما لقيه قال له : « ما منعكَ من قبض مالك ؟ قال : انك غَبَنْتَنى ، فما ألقى من الناس أحدا الا وهو يلومنى » .

« قال : أذلك يمنعك ؟ قال نعم . قال : « فاخترْ بين أرضك ومالك ؟ » ثم قال : « عثمان » : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أدخَلَ الله الجنة رجلاً كان سَهْلاً ، مُشْتَرِيا ، أو بائعاً ، وقاضياً ومقتضياً » .

★ ★ ★

كانت سياسة « عثمان » . ألا يأخذ أحدا بما يكره ، وكان ينفر من العنف . ولقد استوحى ذلك من « الاسلامية » الأولى التى اتصلت بالنبوة ، وأخذ أهلُها الدين من فم صاحبه ، فكانت لاتبيح أن تَبْنِىَ مجد الأشخاص على أشلاء المجتمعات ، بل كانت فى حرصها ، على أرواح الناس ، وعلى نظام المجتمع ، وعلى حقن الدماء ، وعلى الرَّهب والخوف من الله — كانت فى ذلك كله — تجعل رجالاتِها يُستَهدفون للأخطار ، ويصابرون الفتن ،

ثم يستعذبون الموت ، ولا يستبيحون دمَ رجل مسلم !! ، لعلّه يكون قد سيقَ فى الفتنة على غير بصيرة من الأمر ...

وكذلك كان « عثمان بن عفان » . أغرَتْ طبيعة سياسته اللينة ، رجلا شريراً دخل الاسلام على عهد « عثمان » وترك اليهودية ، واسمه « عبدالله بن سَبأ » ـ دخلَ وهو يريد أن يزلزل قواعد المجتمع الاسلامى ، ويبثّ فى أنحائه الفتنة ، وعمد الى الباس مآربه لباسَ الدين ، فكان أساس فتنته نشرَ فكرتين خطيرتين : فِكْرة « الوصاية » من رسول الله صلى الله عليه وسلم الى « على بن أبى طالب » وفكرة « الرّجعة » .

فالأولى توجب الخلافة « لعلىّ » والوثوب على «عثمان» والثانية توحى برجوع (محمد) عليه السلام الى الدنيا ، فكان يقول فى شيعته : « العجبُ مِمنْ يصدّق أن عيسى يرجع ، ويكذّب أن محمداً يرجع !!! » فقبل بعض الناس كلامه ...

بقيت الفتنة فى حدود معينة . و « ابن سبأ » رجلٌ واسع الحيلة ، وهو مصمم على المضىّ فى اشعال نيران الثورة فى الأمصار الاسلامية !...

وقعت فراستهُ فى الشام على « أبى ذرٍّ الغفارىّ » وكان رجلا صحابيا ، جليلا متبتّلا ، دائم العبادة ، شديد التمسك بالاعتقاد ، جريئاً صريحاً ، يقذف بالحق فى وجوه الناس ، ولا يخشى لومة لائم ، رآه الثوار أداةً صالحة لاثارة الجماهير ، وتعييب الخليفة وعمله .

ذهب اليه « ابن سبأ » وقال : ألا تعجبُ يا أبا ذرٍّ « لمعاوية » يقول : المالُ مالُ الله ! ألا ان كلّ شىء لله ؟ ولكنّ معاوية يريد أن يحتجن « يحجز » المال دون المسلمين ، فمالهُ لا يقول ، مالُ المسلمين ؟؟ » .

تدسّستِ الفكرة الى نفس « أبى ذر » ثم استقرتْ !! ، وكبرت ونمتْ وفَشَتْ فى الجماهير !! ، فكانت (ثورة) اجتماعية اشتراكية !! ، يراها « أبو ذر » من الدين !!! حتى علق الفقراء بها والحّوا على الأغنياء فيها ...

كتب « معاوية » فى الشام الى (عثمان) يشكو اليه « أبا ذرٍّ الغفارى »

ويطلب الرأى . فماذا كان من عثمان ؟؟ كان منه الذى هو من طبيعته !! : ملاينة" ومحاسنة" ، وأخذ للأمور بالتى هى أرفق ...

كتب الى « معاوية » يقول ، « ان الفتنة قد أخرجت خطمها وعينيها ، فلم يبق الا أن تثبت ، فلا تنكأ القرح !!! جهز « أباذر » الىّ . وابعث معه دليلا وزوده ، وارفق به ، وكف الناس ونفسك ما استطعت !!! » .

هكذا سافر « أبو ذرّ » فى حماية الخليفة آمنا عزيزا . فلما دخل على « عثمان » قال له : — « ياأبا ذر » مالأهل الشام يشكون ذربك[1] فأخبره : أنه ينبغى أن يقال : — مال الله ، ولا ينبغى للأغنياء أن يقتنوا مالا !! فقال « عثمان » : — يا أبا ذر علىّ أن أقضى ماعلىّ ، وآخذ ماعلى الرعية ، ولا أجبرهم على الزهد .. !!

فى هذا الحوار يبدو الخليفة فسيح الصدر ، جم الحلم ، مقدّراً « أبا ذر » قدره لا يغضب ولا يسخط !! غير أن الناس فى المدينة نفروا من آراء « أبى ذر » فابهالوا عليه . فأسرع الى « عثمان » وقال : « ان الناس قد أنكرونى !! فقال له اختر ؟! حيث تقيم فاختار « الربذة » خارج المدينة — فخط بها مسجدا ، فأقطعه « عثمان » نخيلا ، ووهبه ابلا ، وجعل فى خدمته مملوكين ، وكان يقول « يا أبا ذر » : — « اتق الله ، واكف يدك ولسانك !! » .

بتلك السياسة السمحة كان « عثمان » يعالج الأمور ، ويداوى الفتن . حمى « أبا ذر » من المجتمع ، وحمى المجتمع منه ، وأبقى عليه حرمته ومهابته فما عذبه ، ولا حبسه ، ولا ضيق عليه ، ولا نقم منه حرية رأيه !! ، وهى سياسة مطبوعة" فى قالب « عثمان » الرحيم الخيّر الحليم . لكنّ الفتنة كانت قد أعضلت ، وفشت فى الأمصار ، وزحفت على موطن الخليفة ، وعلى داره ...

فكتب الى العمال يقول : — « أما بعد فانى آخذ العمال بموافاتى

---

(١) الذرب — حدة اللسان .

فى كل موسم فلا يُرفع الىَّ شىء علىَّ ، أو على عمالى ، الاّ أعطيته ، وليس لى ولا لعمالى حقٌّ قِبَلَ الرعية الا متروك لهم ، وقد رفع الىَّ أهلُ المدينة ، أن أقواماً يشتمون سراً وآخرينَ يضربون ، فيامن ضرب سراً ، وشتم سراً : —

مَن ادَّعى شيئا من ذلك فليوافِ الموسم « موسم الحج » وليأخذْ بحقّه كيف كان !! منى أو من عمالى !! أو تصدَّقوا ، فان الله يحب المتصدقين !!» .

قلما قُرِىءَ هذا الكتاب فى الأمصار بكى الناس ، ودعوْا لخليفتهم « عثمان » وكان يقول بملء فيه لرعيته : — انْ وجدتم فى كتاب الله أن تَضَعُوا رجلىَّ فى قَيْد فضعوهما !! » .

لكنَّ الفتنة كانت صمَّاءَ ، فَجَلَّ الخطب عن الاقتناع ، وحاصرت الجماهير دار (عثمان) وصار الدفاع عن النفس ، يتطلب كل وسيلة فشرع لفيفٌ من كبار الأمصار والمهاجرين الذين لازموه فى الحصار يقاتلون ويدافعون ، فكان « عثمان » يأمرهم بالكفّ عن القتال !! ، ويقول : « انى أحب أن ألْقَى الله سالما مظلوماً !!! » لقد صبر حتى لقى حتفه ، ولا يأمر أصحابه بالدفاع عنه !! .

★ ★ ★

وهكذا أطفأ الثُّوار هذا الضياء الساطع ، وتولى كِبرْه رأسُ الشر ، وداعية الفرقة ، « عبد الله بن سَبَأ ! » ولم يطفىء شِرَّتهم الا أن رأوا « عثمان » ذا النورين والسيوفُ تَشْتَجِرُ فوق رأسه ، وهو يتلو كتاب الله !! ، ثم يقول « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عهِدَ الىّ عهداً ، فأنا صابر عليه !! » .

★ ★ ★

ألا لقد صدق « علىّ » رضى الله عنه اذْ يقول : « ان قتلَةَ عثمان قد ثَلَموا فى الاسلام ثلمة لاتسد الى يوم القيامة !! » .

المحاضرة الرابعة عشرة :

النشاط الإسلامي ينهض بالمجتمع

أخلاق إسلامية

القرآن باعث النهوض ـ تصويره لسقوط الأمم ، كيف تكونت الرجولة الاسلامية ؟ ـ ميادين النشاط الاسلامى ـ النشاط الجسمى ـ النشاط العقلى ـ الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تدفع بالمسلمين الى المجد ـ تصوير الترف المبيد ـ (محمد) عليه السلام ـ يكره البطالة والاستجداء ـ المسلم يأبى أن يستذله المال ـ النشاط لا ينافى التوكل على الله ـ حقيقة التوكل ؟ ـ المسلم لا يقتل الزمن بل ينتفع به ـ الوعيد الشديد على الفراغ ـ (على) بن أبى طالب يعمل بيده لقوت يومه ـ مقياس الخير عند المسلمين ـ الأعمال والعبادات ـ (أبو بكر الصديق) يضرب فى الأرض : يتجر فى البلاد النائية : ينمى موارد المجتمع : يعمل لعيشه وهو خليفة المسلمين ـ المسلمون يستنبتون الأرض ، ويستنبطون وسائل الثراء ـ (عبد الرحمن بن عوف) يثرى من التجارة ـ ثراء (عثمان بن عفان) ـ مشاركته بماله فى علاج المجتمع ـ الرجل المسلم لا يهدم أخاه ـ الأخلاق الاسلامية : أسست حضارة ، هزت عروشا ـ خطاب عبادة بن الصامت (للمقوقس) ـ فقيه اسلامى يقود الأساطيل ـ (أبو أيوب الأنصارى) يحارب وهو على فراش المرض ـ المسلمون عند أسوار القسطنطينية ـ صفحة لامعة للاسلام والمسلمين !!

* * *

أيها المستمع الكريم :ـ

حديثنا الليلة ، حديث موصول بأخلاق الرجل المسلم ، وبما كان للخلق الاسلامى من آثار امتدت وترامت ، حتى صبغت دنيا ذلك العهد صبغة اسلامية باهرة . ولقد انبعثت تلك الأخلاق ، وأمامها « الحق والقرآن »

وشريعة سمحة ، فمكّن ذلك للمسلمين فى الأرض ، وجعلهم أئمة ،وجعلهم الوارثين .

اتعظ المسلم بما فعل الخمود والترف فى اهلاك مَنْ كان قبله كالرومان الذين لم يبدأ فناؤهم الا يومَ أخلدوا الى البطالة ، واللهو والعبث ، وحسِبوا أن حياة العمل والكد والنشاط ، لاتجمل الا بالعبيد !!

فأكثروا من اقتناء العبيد ، وعهدوا اليهم بأعمالهم ، وقَنِعوا بالسيادة العاطلة الواهنة المسترخية ، فما هو الا أن فسدت رجولتهم ، وامّحت نخوتهم ودالت دولتهم ..!

لقد كثرت ميادين النشاط للمسلم ، وتنوعت مظاهرها ، فكان نشاطه الجسمى لايفتُر ، ولا يهدأ ، وكان نشاطه العقلى لايخمد ولا يسأم : فامّا رأيْتَهُ رأيتَ حركة سرمدية ، ودأبا موصولا .

استَمَع الى كتابه الأعلى — الى قوله تعالى :—

« فامْشُوا فى مَناكِبِها وكلُوا مِنْ رِزْقِهِ » ثم أصْغِ إلى قوله الأقدس :

« فإذَا قُضِيت الصلاة فانتشروا فى الأرض ، وابتغوا مِنْ فضْلِ الله »

فانطلقَ المسلمُ ولم يَدعْ سهلا ، ولا جَبَلا ، ولا واديا ، ولا عامراً ، ولا غامراً ، الا وقد تحصن باسلاميته ، ثم اقتحمه واستعمره ، وأجرى الخير فى جنباته ، وأطلع السعادة فى آفاقه !!! .

لم يضيّق المشرّع من حدود النشاط الاسلامى ، ولم يصغّر من معانيه بل وسّعها ، وكبّرها ، وترك لها الحدود الفسيحة ، فلقد رُوى :— أن صاحب الشريعة سيدنا « محمد عليه السلام » كان جالسا مع أصحابه يوما ، فنظروا الى شاب ذى جَلَد وقوة ، قد بكر ليسعى ، فقالوا : ويحَ هذا لو كان شبابه وجلده فى سبيل الله !! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تقولوا هذا ، فانه ان كان خرج يسعى على وُلْده صغارا ، فهو فى سبيل الله . وان كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين ، فهو فى سبيل الله ، وان كان خرج يسعى على نفسه يُعِفُّها ، فهو فى سبيل الله . وان كان

خرج يسعى رياء ومفاخرة ، فهو فى سبيل الشيطان » رواه الطبرانى ...

* * *

ولقد نظر « صلى الله عليه وسلم » وهو الحكيم الربانى ، الى ما يفعل الكسل فى الأمم ، يوم يُسْئِمُها العمل، وتُعييها مذاهب النشاط ، فمثّل لنا صورة العهود التى تطحن الأمم طحناً وتبيد الشعوب ابادة وان الصورة التى رسمها لنا الحديث الشريف لأصدقُ ماتكون الصُّور ، وأنطقُ ماتكون الشواهد ، فقال عليه السلام :— « أخشى ما خشيتُ على أمتى كِبَرُ البَطن ، ومداومةُ النوم والكسل » رواه الدار قطنى عن جابر رضى الله عنه .

فلينظر المسلم كيف تنتفخ البطون ؟؟ وتتقلص الهمم ؟ ويطول الرقاد وتمتد الراحة ؟؟ كل ذلك يكون اذ يُعْوز الناسَ النشاطُ . فيقع ما كان « عليه السلام » يخشاه ..

ولقدشاء صاحب الشريعة — عليه السلام — أن ينتزع معنى الاستكانة والركون الى سؤال الناس مافى أيديهم ، فكان — عليه السلام — يرسل كلماتِه الحكيمةَ ، ويوجه نصحه المهذب ، من غير تأنيب ، ولا تعنيف .

قال أبو سعيد الخُدْرِىّ : أقبلت لأسأل رسول الله « صلى الله عليه وسلم » فوجدته يقول : « مَن يَتَصبَّر يُصَبِّرْه الله ومن يستعفِف يُعفَّه الله ، ومن يستغْنِ يُغْنِهِ الله » ، قلتُ (فما أنا بسائِلُك اليوم ...)

وروى اسماعيل بن محمد ، بن سعد بن أبى وقاص ، عن أبيه عن جده ، رضى الله عنهم ، « أن رجلا أتى النبى (صلى الله عليه وسلم) . فقال يارسول الله ، أوصنى وأوجز ، فقال : « عليك باليأسِ مما فى أيدى الناس ، فانه الغنى . واياك والطمع فانه الفقر الحاضر ، وصَلِّ صلاتك وأنت مودِّع . واياك وما يُعتذر منه ... »

لقد كان المسلم يرى نفسه أكرمَ عليه من أن تَذِلَّ لمتكرم ، أو تسترقَّ

لمستعبِد . مهما علت سماحته ، وعظمت مروءته ، واستمعوا : الى حديث أبى ذر الغِفَارى — وهو المقل الزاهد — يأبى عطيةَ (عثمان بن عفان) على عظيم شأنه ، وجلال نفسه ، روى الامام أبو الحسن يحيى بن نجاح . فى كتاب سُبُل الخيرات : « أن عثمان بن عفان رضى الله عنه أرسل الى أبى ذر الغفارى — رضى الله عنه — بصُرَّة ، فيها نفقة على يدِ عبدله . وقال له : ان قبلها فأنت حُر !! فأتاه بها ، فلم يقبلها ، فقال : اقبَلها — يرحمك الله — فان فيها عتقى !! فقال « أبو ذر » : ان كان فيها عتقك ففيها رِقِّى ، وأبى أن يقبلها !! . »

* * *

فانظروا الى هذا الاباء الاسلامى ، والى تلك النفس الحرة الأنِفَة ، تعلموا أين كنا ؟؟ والى أين صرنا ؟؟ ..

* * *

ألا ان شر الأدواء ما التبس أمره على الطبيب ، حتى يَهلِك المريض . فلقد سمعنا فاشيةً فشتْ عن الأمم الاسلامية ، بأن النشاط والعمل ، واستنباط وسائل العزة ، واقتحام المخاطر — كلٌ ذلك ينافى التوكل على الله ، والرضا بقدره وقضائه !! وهذا ضرب من التلبيس وخلط الحق بالباطل ، يوشك أن يستأصل الهمة ، والنخوة والشجاعة ويجعل الذِّلة والمسكنة سائغة هانئة ، مطلوبة !! .

أيها المستمع الكريم :

ما كان العمل وابتغاء الرزق ، والتقلب فى البلاد ومجالدة الأيام ، والأخذ بالأسباب — ماكان ذلك كله منافياً للتوكل على الله ، والركون الى قضائه ، والثقة به ، ولقد شاء صاحب الشريعة « محمد عليه السلام » أن

يجمع تلك المعانى ، ثم يبرزها فى عبارة جليَّة صريحة ، لعلَّها فصلُ الخطاب فى هذا الباب .

جاءه أعرابى الى المسجد ، وناقته من خلفه يقودها ، فسأل النبى (عليه السلام) :— أأعقل ناقتى ، أم أدعها وأتوكل ؟؟ قال له عليه السلام :— « أعقلها وتوكل » . فهل بعد هذا يقال بأن صدق التوكل ينافى الاستمساك بالأسباب ، ومكافحة الأحداث ، والمزاحمة ، والمسابقة ، والمنافسة . وانتزاع المجد وصيانة الحق ؟؟ !! .

ولقد أخرج الحاكم ، وابن أبى الدنيا ، عن معاوية بن قُرَّة قال :— « لقى عمرُ بن الخطاب ناساً من أهل اليمن فقال : من أنتم ؟؟! فقالوا : متوكلون !!. قال كذبتم !! ما أنتم متوكلون !! انما المتوكل الذى ألقى حبَّةً فى الأرض ، وتوكل على الله ... » .

* * *

لقد نظر الاسلام الى الزمن نظرة فاحصة ، والزمنُ ماض لايقر ، متجدد لا يقف وهو سجلُّ الأعمال ، وعنده أنباء العظماء ، وفيه تخليدٌ لحسنات المحسنين ، ولأعمال العاملين . فأقسم الله سبحانه وتعالى فى محكم كتابه بالزمن وقال : « والعَصْر انَّ الانسان لفى خُسر الاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات » أليس فى هذا القسم ما يُشعر بجلال المقسمَ به وعظِم شأنه ؟ ووجوب الحرص عليه ، والانتفاع به والعمل فيه ؟ وأن الخسران المبين . شاملٌ للعاطلين المتبطلين لاَصقٌ بالعالة الساكنين — خسرانَ أنفسهم ، وخسران أممهم ، وأما الذين يعملون ، ويدأبون ، ويُصلحون . ولايَفْتُرُون ، فأولئك هم عناوين فخار ، ومصابيح رشاد — أولئك هم حماة الأمم ، ودعاة النهوض ، أولئك هم المسلمون حقاً ، لهم درجاتٌ عند ربهم ، ومغفرةٌ ورزق كريم .

أيها المستمع الكريم :

ليس أشد وعيداً على الفراغ والتواكل من قوله عليه الصلاة والسلام : « أشدُّ الناسِ عذاباً يوم القيامة المَكْفىُّ الفارغ !!! » والمكفىُّ الذى يكفيه غيره ضروراتِ الحياة ، والفارغ المتعطل المخلد الى البطالة والكسل .

* * *

واستمعوا : — ما يفعل النشاط الاسلامى بالامام الأعظم ، والسيد الكريم « على بن أبى طالب » اذْ عضّه الجوع يوماً ، فلم يستكن ، ولم يذل ، وانما تماسك ، وراح يطلب القوت من أسبابه !!! ، قال كرم الله وجهه : — « جُعْتُ يوماً فخرجتُ أطلب العمل فى عوالى المدينة ، فاذا أنا بامرأة قد جمعت مَدَراً — تراباً متلبداً — تريد بلّه بالماء ، فبادلْتُها كلَّ ذَنوب[1] على تمرة !! فملأتُ ستة عشر ذنوبا حتى مجلت[2] يدى — ، ثم جئتُ المرأة فبسطتُ كفّى لترى المرأة أثر العمل ، فعدَّتْ لى ست عشرة تمرة ، فأتيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأخبرته فأكل معى منها ... »

تلك قصة صغيرة تُرينا كيف تأبى النفوس الاسلامية أشد الاباء ، وكيف ترى فى العمل « أىَّ العمل » فضيلةً وكرامة ، وصيانةً لماء الوجوه أن يبذل ، وأنه مهما يكن فى طلب القوت من عنت ومشقة ، ومهما يكن من آلام وصعاب تعترض العاملين ، فذلك خير من استجداء الناس ، ركوناً الى الراحة ونفوراً من النشاط ...

* * *

ويروى البخارى ومسلم حديثاً : هو قانون النشاط الاسلامى ، الذى يبعث العزّة ، والأنفة فى كلِّ نفس اسلامية ، يقول (عليه الصلاة والسلام) :

---

(١) الذنوب ـ الدلو العظيمة من الماء .

(٢) مجلت ـ ظهر بها الاحمرار من العمل .

« لأنْ يأخذَ أحدكم حبلا فيذهبَ ، فيأتى بِحُزْمَةِ حطب على ظهره . فيكفَّ بها وجهه ، خيرٌ له من أن يسأل الناس — أعطوْه أو منعوه — » .

اذا قَصُرَت الهمم . واستلانَ الناس حياة الدَّعة ، ذهبوا يعللون هذا الفراغ المميتَ بأعاليل وأباطيل — راحوا يقولون اننا نتفرغ للعبادة ، ونُخْلِص نفوسنا لله ، فليستمعوا ما يقوله صاحب الرسالة (عليه السلام) فى شأنهم ، ومَن على شاكلتهم ...

جلس عليه السلام يوماً فجعل أصحابه يُثنون على رجل ، فقالوا : « ان — فلانا — يصوم النهار ويقوم الليل !! ويكثر الذكر ، فقال : أيكم يكفيه طعامه وشرابه ؟؟ فقالوا كلُّنا يارسول الله ، فقال « كلكم خيرمنه .. » .

سمع الصحابة ذلك ، فاندفعوا يعملون وينشطون ، حتى قرن الله التجار منهم بالمجاهدين فى سبيل الله ، قال تعالى :

« وآخَرُونَ يضْرِبُون فى الأرضِ يبتغون من فضل الله ، وآخرون يقاتلون فى سبيل الله » .

فهل هناك شرف للعاملين فى الحياة وراء هذا الشرف ؟؟! .

* * *

كان (أبو بكر) الصديق مثالا للنشاط الاسلامى ، فلم يقعده مكانه من رسول الله ، عن أن يضرب فى الأرض ، وينمّى تجارته ، لأنه يرى فى ذلك تنميةً لموارد المجتمع الذى يعيش فيه ، وقدبلغ ماله أربعين ألف دينار ، فكان يعتق من ذلك المال المستضعفين ، وكان يَعُولُ منها فقراء المسلمين .

ولقد حفزه النشاط الاسلامى ، لأن يخرج فى تجارة الى (بُصرى) ، وهو الحريص على صحبة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — والمرافق الدائم له .

« أخرج ابن عساكر عن أم سلمة قالت : لقد خرج (أبو بكر) على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تاجراً الى (بُصرى) !! .

فانظروا « أبا بكر !! » وكيف كان يرى هذا النشاط التجارى الاسلامى

مُحبّباً الى (محمد) عليه السلام ، الذى لا يرضى لأصحابه التعطّل والمقام الى جواره .

ما كان (أبو بكر) يرى حياة الدّعة والتواكل ، وما كان يرضى لنفسه أن يعيش من فضل سواه ، حتى بعد أن وَلِىَ أمر المسلمين وصار خليفتهم !

انه اندفع على عادته ، الى السوق للمتاجرة ، والعمل ، حتى صدّه المسلمون عن ذلك ، ورأوا أن مِثْلَه فى مكانته حرىٌّ بأن يُفرِغَ نفسه لشئون أمته .

قال ابن سعد : — لما استُخْلِفَ (أبو بكر) أصبح غاديا الى السوق ، وعلى رأسه أثواب يتجر بها ، فلقيه « عمرُ بن الخطاب » و « أبو عبيدة بن الجراح » فقالا : « كيف تصنع هذا ؟ وقد وَلِيتَ أمر المسلمين ؟ قال : فمن أين أطعم عيالى ؟ قالا ، نفرض لك ، ففرضوا له كل يوم شطر شاة ...

أرأيت كيف أن الخلافة فى جلالة شأنها ، لم تصرف « أبابكر » عن الحقيقة وهى أنه رجلٌ مسلم !! ومن واجب الرجل المسلم ألا يترفع عن العمل والا يميت فى نفسه روح النشاط !! .

* * *

سرى روحُ النشاط الاسلامى فى كل ناحية ، وتناول جميع الأعمال فكان العالم المفكر الفيلسوف « ابن حزم » الأندلسى يقول : « اعلموا أن اللذةَ والسلامة والعزَّ والأجرَ فى أصحاب فلاحة الأرض » وأرسل العلماء قضاياهم ، يتناقلها الناس فى هذا المعنى المقتبس من التشريع العملى للصدر الأول ، فقد جاء فى كشف الظنون : « لو علم عبادُ الله رضاء الله فى احياء أرضه ، لم يبق فى وجه الأرض خراب ... » .

* * *

علمهم الاسلام الشمم والعزة ، فخالطت قلوبهم ، وجرت مجرى

أنفاسهم . وانظروا يوم هاجر المسلمون تاركين ثَراءهم وديارهم الى المدينة اجابةً لداعى الحق وتعزيزاً لكلمة الله ، لقد كان « عليه السلام » يؤاخى بين كل مهاجر ، وبين كل أنصارىّ ، فلما آخى بين « عبد الرحمن بن عوف » وبين « سعد بن الربيع » قال سعد لعبد الرحمن ، « ان مالى شطران لى شطر ولك شطر .. وان لى زوجتين أطلّق احداهن لتتزوج منها .. فقال له عبد الرحمن لاحاجة بى الى مالك ، ولا الى أهلك ، بارك الله لك فيهما ، ولكن دلنى على السوق .. » .

وتاجر « عبد الرحمن » فأثرى فى الاسلام اثراءً ضخماً حتى لقد قَدِمَ له مرة سبعمائة بعير تحمل البُرّ ، والدقيق ، والطعام ، فلما دخلت المدينة سمع لأهلها رجة !! فتصدق بها وبما تحمل فى سبيل الله .. » .

* * *

ولقد غرس فيهم الاسلام السخاءَ والبذل ، فاطمأنت نفوسهم الى أنّ ما عند الله خير وأبقى !! انّ سخاءهم جعلهم يجودون بأرواحهم ، فكيف بأموالهم ؟ .

روَى ابنُ عباس ، « أن الناس قَحِطُوا على عهد « أبى بكر » فقال « أبو بكر » : لا تمسون حتى يفرّجَ الله عنكم !! » فلما كان الغد ، جاء البشير اليه ، فقال قَدِمَتْ « لعثمان » ألفُ راحلة بُرًّا وطعاما !! .

قال ، فغدا التجار على « عثمان » فقرعوا عليه الباب ، فخرج اليهم ، فقال ماتريدون ؟ قالوا : بِعْنَا ماعندك ، حتى نوسع به على فقراء المدينة ؟ .

فقال لهم « عثمان » ادخلوا — فدخلوا — فاذا ألفُ ، وِقْر ، قد صُبَّ فى دار « عثمان » !! فقال لهم ، كم تُربحوننى على شرائى من الشام ؟ قالوا العشرة اثنى عشر !! .

قال عثمان : — لقد زادونى !! قالوا العشرة أربعة عشر !! قال : — لقد زادونى ، قالوا العشرة خمسة عشر !! قال : لقد زادونى : قالوا مَنْ زادك ؟

ونحن تجار المدينة ؟ قال : — لقد زادنى الله لكل درهم عشرة !! •
[من جَاءَ بالحَسَنَةِ فَلَهُ عُشْرُ أمثالِها] قالوا لا نقدر على ذلك !! قال : فأشْهِدكم معشرَ التجار ، أنها صدقة على فقراء المدينة !! •

★ ★ ★

لقد نزع الاسلام من تلك النفوس الخيِّرة كلَّ حقد ، وكلَّ مَوْجِدَة ، فلن ترى رجلاً حَرْباً على رجل ، ولا عالما حاقدا على عالم !! ودونك حديثاً عن امامين عظيمين هما « الشافعى » و « ابن حنبل » هذا الحديث يصوِّر لنا مابينهما من الولاء • والحب والتقدير !! وكيف يريان أن فضل الواحد منهما هو على مقدار ما يسدى للناس من نفع ، ومن خير ، ومن سداد !! •

نزل الشافعى ضيفا على « أحمد بن حنبل » ، وكانت هناك ابنة لأحمد ، تسمع أخبار الشافعى ، وتتشوق الى رؤية صلاحه ، وعبادته ، فرَقَبت عبادتَه بالليل ، وذكرَه فى الأسحار !! لكنَّ « الشافعى » أصبح مستلقياً على ظهره حتى الفجر « وابن حنبل » مشغول بذكره وعبادته !! فلما أصبح الصباح ، قالت (ابنةُ أحمد) لأبيها : — «رأيتك تعظِّم «الامام الشافعى»!! وما رأيت له فى هذه الليلة لاصلاةً ، ولا ذكراً ، ولا ورداً !! » فبينما هما فى الحديث ، قام « الامام الشافعى » ، فقال له « أحمد بن حنبل » : — كيف كانت ليلتك ؟؟ قال مارأيت ليلة أطيب منها !! ولا أبرَكَ ولا أربح !! فقال أحمد : — وكيف ذلك ؟؟ قال : — لأنى رتَّبتُ فى هذه الليلة مائةَ مسألة ، وأنا مستلق على ظهرى ، كلها فى منافع المسلمين !! ثم ودَّعه ومضى • فقال أحمدُ بن حنبل لابنته : — « هذا الذى عمله الليلةَ وهو نائم ، أفضل مما عملته وأنا قائم !! » •

★ ★ ★

وكان « أحمد بن حنبل » رضى الله عنه ، يقول : — « ماصليتُ صلاة

منذ أربعين سنة ، ألا وأنا أدعو « للشافعى » ! فقال له ابنهُ : — « أىُّ رجل كان « الشافعى » حتى تدعو له كل هذا الدعاء ؟؟ قال الامام أحمد : — « يابُنىَّ ، كان الشافعىّ كالشمس للدنيا ، والعافية للناس ، فانظر يابنى هل من هذين خَلَفٌ ؟؟ !! .

* * *

لقد استطاعت هذه الأخلاق أن تؤسس حضارة ، وان تكون مجتمعا ، وأن ترفع الراية الاسلامية فى الصحارى والقفار ، والبرّ والبحر ، وأن تخاطب الملوك والأمراء ، خطابا عزيزاً قوياً حازماً ، خطابَ مَن يضع عمره أمام عقيدته يحميها ، ويناضل عنها !! فلا يهدأ ولا يستقر أوْ تكونَ له الغَلَبَةُ والعزة ، ولأمته السلطان الواسع ، والجلالة المتألقة !! .

* * *

واستمعوا : الى « عُبادةَ بنِ الصَّامت » الأتقى الأبر يحدِّثنا نشاطه الحربىّ ؟! كان عبادةُ بن الصامت ، سفيراً لجيوش المسلمين ، عند « المقوقس » حاكم مصر .

« وعبادة » قد أوتىَ بسطةً فى الجسم ، ولكنه كان حالك السواد . وكان جلالُ الاسلام قد خلع عليه رهبةً وهيبةً !! فكان الناظر اليه يرتعد من صورته .

وكذلك وَجِل « المقوقس » يوم شاهده ماثلا أمامه ، فقال : — نَحُّوا عنى هذا الأسود ، وقدموا غيره !! فقال رفاقه المسلمون : — انه أفضلنا رأيا وعلما وهو سيّدنا وخيرنا ، وأكرمُنا موضعا وسابقة ، وعقلا ورأياً !! فقال له المقوقس : — تقدم وكلمنى برِفْق .

فقال « عبادة » ، وهو يجادل « المقوقس » فى عاصمة امارته ، ووسط ديارِه ومنَعَته : —

« لقد سمعتُ مقالتك ، وانّ فيمن خلّفتُ من أصحابى ألفَ رجل ، »
« كلّهم مثلى ، وأشدّ سوادا منى ، وأفظع منظراً ، ولو رأيتهم لكنت »
« أهيَبَ لهُم مِنى !! وأنا قد ولّيتُ وأدبر شبابى ، وانى مع ذلك »
« — بحمد الله — ما أهاب مائةَ رجل من عدوّى ، لو استقبلونى جميعاً ، »
« وكذلك أصحابى .. ذلك بأن رغبتنا وهمّتنا الجهادُ فى سبيل اللهُ ، »
« وابتغاء رضوانه ، وليس غزوُنا عدوًّا ممن نحارب ، لرغبة فى الدنيا ، »
« ولا لحاجة الى الاستزادة منها ولكنّ الله عز وجلّ ، قد أحلّ لنا ذلك ، »
« وان كان لأحدنا قناطير الذهب أنفقناها فى طاعة الله ... »

فلما سمع المقوقس ذلك ، قال لمن حوله : — هل سمعتم مثل هذا الكلام قط ؟؟ لقد هبتُ منظره !! وان قوله لأهيبُ عندى من منظره !! ما أحسَب الا أنهم سيملكون الأرض كلّها !! .

ثم أقبلَ على عُبادة فقال : — أيها الرجل الصالح . قد سمعتُ مقالتك ، وما ذكرتَ عنك ، وعن أصحابك ، ولعمرى مابلغتم مابلغتم الا بما ذكرتَ ، وما ظهرتم على من ظهرتم ، الا لحبّهم الدنيا ، ورغبتهم فيها !! ولكنى أخشى عليكم ، مَن تَوَجّه لقتالكم مِن جمع الروم !! فهم لايُحصَوْن عدداً ، وهم معروفون بالنجدة والشدة ، وانّا لنَعْلم أنكم لن تقووا عليهم ، ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم !! ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل دينارين ، ولخليفتكم ألفَ دينار !! فتقبضوها ، قبل أن يغشاكم مالا قوة لكم به !!..

فقال عُبادة : — وهو يستوحى هواتف اسلاميته الجريئة النشيطة المتحفزة ، قال «للمقوقس» : — « ياهذا ، لاتغرّنّ نفسك ، ولا أصحابك..!! أمّا ما تخوّفنا به من جَمْع الروم وعددهم ، وكثرتهم ، وأنّا لانقوى عليهم ، فلعمرى ماهذا الذى تخوفنا به ، ولا بالذى يكسِرنا عما نحن فيه ، ان كان ماقلتم حقّاً ؟ فذلك والله أرغبُ مايكون فى قتالهم !! وأشد لحرصنا عليهم !! لأن ذلك أعذرُ لنا عند الله ، اذا قَدِمْنا عليه ، فان قُتلنا عن آخرنا ، كان أمكن لنا من رضوانه وجنته .

وما من شيء أقرّ لأعيننا ولا أحبّ الينا من ذلك . واتّا معكم حينئذ على احدى الحُسْنَيَيْنِ : اما ظفِرْنا بكم ، فعظُمتْ لنا غنيمة الدنيا !! وامّا ظفرتم بنا ، فعظمت لنا غنيمة الآخرة !! وانها لأحبُّ الخصلتين الينا بعد الاجتهاد منا .

وان الله « عز وجل » قال لنا فى كتابه :

« كمْ مِنْ فِئَةٍ قلِيلة غَلَبَتْ فئة كثيرة باذنِ الله ، والله مع الصابرين » .

وما منا رجل الا وهو يدعو ربّه — صباحا ومساء : — أن يرزقه الشهادة وألاّ يردّه الى بلده ، ولا الى أرضه ، ولا الى أهله وولده وليس لأحد منا همٌّ فيما خلّفه . وقد استودع كلٌّ واحد منا ربَّهُ ، أهلَه وَوَلَدَه ، وانما همُّنَا ما أمامنا ...

وأمّا ظنك أنا فى ضيق وشدة من معاشنا . فنحن فى أوسع السعة !! لو كانت الدنيا كلُّها لنا ما أردنا منها لأنفسنا أكثرَ مما نحن فيه . فلا تُطمع نفسك فى الباطل !! .

* * *

أيها المستمع الكريم :

بهذا الأسلوب الممتلىء حماسةً ونشاطاً ، كان « عُبادة » يخاطب أميرَ البلاد . وهو على بيِّنة من أمره وأمر عقيدته ، لايرضى بما دون المجد ، ولا يقنع لأمته الا بأن تكون كلمتها هى العليا !! .

« ولعُبادة » أمثال وأشباه ، جعل الله قرّة أعينهم فى مطارح النوى ، وفوق أمواج البحار ، فحققوا العزة لقبيلهم ، ونشروا فى الدنيا محامدهم ، وأمْلَوْا على الأنام ارادتهم ...

* * *

فهذا عالم جليل ، اسمه «أسدُ بنُ الفرات» . كان فقيها . بل كان شيخَ الفتيا ، فلم ترض نفسُه أن تحيا وتموت ، بين المحابر والدفاتر .

رأى أنّ للمجتمع عليه حقًّا ، فراح يقود الأساطيل الاسلامية فى البحر ، يغزو « صِقِلية » ، حتى فتحها ، لزيادة الله الأول ، ابن ابراهيم الأغلب ..

وهكذا ، لم يَدَعَ النشاط الاسلامى ميدانا ، ولا فناً ، الا وأحاط به علما ، وجال فيه جولانا ، برغبة حافزة ، وبلاء صادق .

* * *

ولقد يكون العظيم مِن هؤلاء ، فى النزع الأخير ، يودع دنياه ، ولكنّ نشاطه لا ينطفىء ، وعزمه لا يهنُ ، فلا يدع الدنيا ، الا وقد كتب سورةً للمجد مقروءة على الأيام والسنين ..!!

* * *

خرج « أبو أيوب الأنصارى » مع « يزيدَ بنِ معاوية » ، فى طائفة لغزو القسطنطينية ، فثقل المرض « بأبى أيوب » ، فسأله « يزيد » ، ألك حاجة يا أبا أيوب ؟؟ قال :— مالى الى دنياكم من حاجة !! ولكن أرجو أن تُوغِلُوا فى بلاد الروم ، وأنا محمول معكم !! فلقد سمعتُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« يُدفن عندَ سورِ القسطنطينية رجلٌ صالح » وانى لأرجو أن أكون ايّاه ، فجعل يزيد يتقدم بسريره ، وهو مُسجًّى ، وحوله القتال يدور فلما رأى « قيصرُ » ذلك ، قال عَجَباً « ليزيد » !! ولأبى يزيد ، يأتون بصاحب رسولهم ، فى ديارنا ، حتى اذا ماتركوه ، نبشنا قبره ، وتركناه للكلاب !! فقال « يزيد » : أما والله لو بلغنى ذلك ، لما تركتُ ببلاد الاسلام نصرانيا الا قتلته ، ولا بيعةً ، ولا كنيسةً الا هدمتها !! فبعث اليه « قيصر » لله أنت ولله أبوك !! وحق المسيح .. لأحفظنّ قبر « أبى أيوب » بنفسى .

وبنى على قبره قُبَّة !! ولا زال مشهده بجوار القسطنطينية الى اليوم .. رمزا للعقيدة ، وما تحدثه من الأعاجيب !!.

★ ★ ★

أيها المستمعون الكرام :

ذلك نبأ عن خُلق الرجل المسلم ، الذى أيده الله بنصره ، وأعزّه بعونه . ولعلّ فى ذلك ، بلاغا لمن كان له قلب ! ولعلّ فى الماضى أسوةً حسنةً ، لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيراً ..

المحاضرة الخامسة عشرة :

الفاتح الإسلامي الأكبر

سعد بن أبي وقاص

قرابة (سعد) من « محمد » عليه السلام ـ الاسلام ينشىء (سعدا) فى مدرسته ـ صناعته وهو شاب ـ تفكيره فى الدعوة الاسلامية الجديدة ـ هو الرابع فى السابقين الأولين ـ حكاية اسلامه ترويها بنته (عائشة) ـ الفكرة الدينية تملك عليه مشاعره ـ نضارة الاسلام مع نضارة سنه ـ بين البر بالأم والبر بالعقيدة ـ أم تجاهد ابنها ليرجع عن الاسلام ـ نزول القرآن آمرا ببر الأم وصيانة العقيدة ـ أول دم أريق فى سبيل الله ـ موقف (سعد) فى (أحد) ـ بسالته فى حراسة رسول الله ـ اسم (سعد) يقترن بالفتح الاسلامى ـ فى حرب فارس ـ (عمر) يختاره لقيادة الجيوش ـ يقيمه مقامه فى الجند ـ خطبة (عمر) فى (سعد) ـ جيشان : صناديد ، ورعاديد ـ (سعد) يثل عرش الأعاجم ـ اعتزاله الفتنة بين المسلمين ـ أسفه وبكاؤه لفرقة المسلمين ـ اعتزازه بآثار الجندية ـ وصيته كيف يدفنونه ؟ ـ لقاؤه لله راضيا مرضياً .

★ ★ ★

أيها المستمعون الكرام :

« سعد بن أبى وقّاص » قرشىٌّ من بنى زُهرة فهو فى خؤولة « محمد صلى الله عليه وسلم » الخالُ المشهَّر !! جَمَعتْ له تلك الخؤولة الى نقائبه، السؤدد — من جميع أطرافه ...

وانا الليلة اذْ تتحدث عنه انما تتحدث عن عظيم ، نشّأه الاسلام ، وصنعه على عينه « محمدٌ » صلى الله عليه وسلم . فامتزجت فطرته السليمة باليَنبوع الروحىّ وأضاءت بالقبس المحمدىّ ، فخرج على الدنيا « سعد »

عظيما لا كالعظماء ، وفاتحاً ولا كالفاتحين ، يَزِينُ التواضعُ الاسلامى جلالةَ شأنه ، ويُجمِّل الرهبة منه خوفُه من الله ..

* * *

كان « سعد » يوم أسلم فتىً فى اهاب الشباب ، لم يسلخ السابعةَ عشرةَ من عمره بيد أن ملاعب الفتيان لم تعرفه ، كما كانت تعرفه يومئذ مرامى النِّبال ، فقد عكف الشاب « سعد » على بَرْىِ النبال ، واصطنعها ، وشُغِفَ بها ، ومن عَجب . أن تلك السِّن الجامحة اللاهية ، التى اعتادت أن تصرف الشبابَ عن جِدِّ الحياة ، وتوجههم الى حيث يلعبون ويعبثون ، ويكلَّفون بالمتاع ، ويحيَوْنَ فى عالم بعيد عن الفكر ، وعن النظر — تلك السّن — ماصرفت « سعداً » عن أن ينظر ، ويفكر ، ويرغب فى أن يهتدىَ الى الحق ، فما كادت تظهر الفكرة الاسلامية ، ويدعو اليها « محمد صلى الله عليه وسلم » حتى انتبه « سعدُ بنُ أبى وقاص » الى هذا الحدَثِ الجديد ، فشُغل به ، وفكر فيه !! وكان غيرَ مطمئن الى الظلام الذى يُغَشّى عقائد الناس ، وكأننا به يخلع غَرارة الشباب ، ويكتسى اهاب الشيوخ والحكماء !! فينكشف له أن « محمداً عليه السلام » يدعو الى عقيدة لاتعقيد فيها ، ولا لَبْس ، ولا التواء ، ثم يرى فى نقاء سيرة (محمد) ، وطهارة خلقه ، ماهو حرىٌّ باجابته ، والاصاخة الى دعوته ، والاستباق الى صحبته ! فأقدم « سعد » على اعتناق الاسلام ، فكان الرابعَ فى السابقين الأولين .. !! .

وانه ليحكى حديث اسلامه وترويه عنه ابنته « عائشةُ » كما سمعتْه منه يقول :

رأيتُ فى المنام قبل أن أُسلم بثلاث ، كأنى فى ظلمة بحر ، لا أبصر شيئاً اذ أضاء لى قمر ، فاتبعته !! فكأنى أنظر الى مَن سَبقنى الى ذلك القمر !! فأنظر الى « زيدِ بنِ حارثة » والى « علىِّ بنِ أبى طالب » والى

« أبى بكر » وكأنى أسألهم : متى انتهيتم الى هاهنا ؟؟ قالوا الساعة !! وبلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الى الاسلام مستخفياً . فلقيته فى « شِعب جياد » وقد صلى العصر . فأسلمتُ . فما تقدمنى أحد الا هؤلاء .

* * *

انظروا كيف مَلَكَتْ الفكرة مشاعر « سعد » وتمثلت له فى يقظته وفى منامه !! وانظروا كيف أرته الرؤيا الصادقةُ ، ظلمات الجاهلية ، وقد غشيت فيها البصائر ؟ وكيف كان « سعد » حتى فى منامه — حريصا على أن يكون سبَّاقاً الى الاهتداء ، بضوء القمر المحمدىّ ، الذى شق هذا الظلام الطامس ، فهو يسائل الثلاثة الأُوَل ، الذين سبقوه الى الاسلام — يسائلهم فى لهف ، وحرص ومنافسة ، متى عهدكم بهذا القمر .. ؟؟ .

اذاً كان « سعد » مأخوذاً بالفكرة الاسلامية ، وكان حريصا عليها ، وكان مشغوفا بالسبق اليها ...

وقد كان ذلك ، وهو فى السابعة عشرة من عمره ، فهو الفتى المسلم الذى اتسقت نضارةُ الاسلام مع نضارة سِنّه ، وبلغ أشُدَّه واستوى ، واستحصد عزمُه ، وكذلك كانت الفكرة الاسلامية تستقوى ، وتنمو ، وتشتد ، مع سعد ، وبسعد ! .

* * *

ولقد امتُحِنَ « سعد » بعد اسلامه ، امتحانا قاسيا رهيبا ، فقد كان له قلبٌ رقيق ، وشعورٌ فياض ، بالحَدَبِ على والدته ، فهو بار رحيم بها ! مكرم لها . « وأم سَعد » ماتزال مشركةً متمسكةً بدينها ، الذى لقيت عليه آباءها ... فلما أسلم ابنها « سعد » هالها الأمر ، وتعاظمها الحال ... وهى تعرف فى « سعد » رقةَ القلب ، وفرطَ الحنان .

فأرادت أن تؤثر فيه من ناحية الرّقة القلبية ، لعلّه يرجع عن الاسلام ، وفكرتْ فى أن تضرِب عن الطعام والشراب ، حتى اذا ما رآها « سعد » عليلةً متهالكة . كان حرياً أن يرِق لها ، ويرضيها ، بالرجوع الى دينها ، ابقاءً على حياة تقترب من الفناء ...

★ ★ ★

قال « سعد » نفسه ، يروى تلك المأساة : « لما أسلمتُ ، وكنتُ رجلا باراً بأمّى . قالت : ياسعد ما هذا الدين الذى أحدثتَ ؟؟ لتدَعَنّ دينك ... أوْ لاَ آكل ولا أشربُ ، حتى أموتَ . فتعيَّر بى .. فقلت : لاتفعلى يا أم .. فأنا لا أدع دينى ..

ومكثتْ يوما وليلة ، لاتأكل ولا تشرب ، فأصبحت وقد جَهِدَتْ ! فقلت والله لو كانت لكِ ألفُ نفس ، فخرجتْ نَفْسا نَفْسا ماتركتُ دينى هذا بشىء !! فلما رأت ذلك ، أكلتْ وشربت .. فأنزل الله هذه الآية :

« وإنْ جَاهَدَاكَ على أنْ تُشرِكَ بى ما لَيْسَ لكَ بِهِ علمٌ فلا تُطِعْهُمَا ، وصاحِبْهُمَا فى الدنيا مَعروفا . . . » .

فكأنّ الوحىَ السماوىّ . جاء مصدّقاً للشعور بالواجب — شعور تلك النفس المؤمنة القوية ...

★ ★ ★

سَرَت العقيدة فى جوارح « سعد » فحماها ، واعتزّ بها ، وناضل عنها بكل ما يستطيع ، حتى كان سعد" أول مُريق للدم فى سبيل الاسلام — وهو يحمى عقيدته !! استمعوا : كيف يغضب « سعد » لله ... ؟

كان « سعد » فى نفر قليل من المسلمين يصلّون مستخفين ، بعيدين عن أعين المشركين ، والمشركون يقعُدون لهم كل مَرصد ، ويَقصُّون آثارهم ، فعلموا أن « سعداً » ورفاقة يلوذون بشعب من شعاب مكة فأسرعوا اليهم

يناكرونهم ويعيبون عليهم اسلامهم !! وانتقلت الملاحاة الى المناجزة فالمقاتلة، فغضب « سعد » وتناول رجلا من قريش بِلِحْيِ جمل — بِفَكِّه — فكان الدمَ الأولَ الذى سال دفاعاً عن الاسلام .. وغضباً لله !! .

★ ★ ★

أيها المستمع الكريم :

لقد حلت بالمسلمين مِحن، أظهرت صناديدَ العقائد ، وأبطالَ الاسلام!! فمن أشدّ تلك المحن يوم « أحُد » وقد خالف المسلمون ما أمرهم به رسول الله « صلى الله عليه وسلم » فلاقَوْا جزاءً وفاقاً ، لخلافهم نبيَّهم ، حتى بلغ من ذعر المسلمين ، واضطرابهم يومذاك ، أن أرْجِفَ فيهم بموت محمد « صلى الله عليه وسلم » !!.

فى ذلك الهول الأكبر كان « سعد » يصوِّب سهامه فى صفوف المشركين ويَنْضَحُ عن رسول الله « صلى الله عليه وسلم » فى ثبات ، ورِباطة جأش أدهشت محمداً — عليه السلام — فقال له : ارْمِ فدَاكَ أبى وأمّى .. ارم أيها الغلام القوى !!.

★ ★ ★

ولقد تألق نجم « سعد » وترامت أنباؤه ، واقترن اسمه بالفتح الاسلامى الأكبر ، يوم جمعَ الفرسُ جنودَهم ، وأعدّوا عدتهم ، واستنفروا ذوى الحميَّة فيهم لكىْ يفصلوا فى أمر العرب ، أو فى أمر المسلمين ..

هنـاك — جاءوا بجيوش جرّارة ، بلغت مائةَ ألف ، أو يزيدون ، وأمدُّوها بالذخائر والأفيال ، وتأمّر عليهم القائد الأشهر « رستم » فرأى « عمر بنُ الخطاب » أن اليوم يوم الفصل ، وما هو بالهزل !! وأن الفرس قد استنفدت كلّ الحيل ، وجعلت مصيرها معلقاً بنتيجة تلك الموقعة عند « القادسية » ...

عند ذلك بعث « عمر » رُسُلَهُ الى القبائل يستنفرُها ، وينتدب لأمر الفرس فُرسانَ العرب ، وخطباءَها وشعراءَها ، وأهل الرأى والنجدة فيها !!! .

ثم ، أراد « عمر » أن يلىَ امرة الجيش بنفسه !! فقام فى الجميع مستشيرا يقول : — أحضرونى الرأى ، فانى سائر !! فأجمع مَلَؤُهم ، على أن يبعث رجلا من الصحابة ، ويقيمَ هو لِيُمِدَّه بالجنود ، فان كان الذى يشتهى من الفتح ، فهو الذى يريد ويريدون ، والا أعاد رجلا آخر ، وندَب جنداً آخر ، حتى يجىء نصر الله ...

سمع « عمرُ » الى ذوى الرأى ، فوقف خطيباً فى الجيش ، يقول : —

« أما بعدُ ، فان الله عز وجل ، قد جَمع على الاسلام أهله ، فألَّف بين القلوب ، وجعلهم فيه اخوانا ، والمسلمون فيما بينهم ، كالجسد لايخلو منه شىءٌ من شىء أصاب غيره — وكذلك يحقٌ على المسلمين ، أن يكون أمرُهم شورى بينهم وبين ذوى الرأى منهم ، فالناس تَبَعٌ لمن قام بهذا الأمر !! ما اجتمعوا عليه ورضُوا به — لزم الناسَ — وكانوا فيه تبعاً لهم .. »

« أيها الناس : انى انما كنتُ رجلا كأحدكم ، حتى صرفنى ذوو الرأى عن الخروج ، فقد رأيتُ أن أقيم وأبعثَ رجلا .!! فقال بعضُ الحاضرين ، اننا نعرف رجلا ؟ قال «عمر» : فمن هو ؟؟ قالوا : انه الأسد عاديا .!! قال من هو ؟ قالوا « سعد » فانتهى عمر الى رأى مُشيريه ، وأمَّر « سعداً » على جيش العراق ، ثم أوصاه فقال :

« ياسعد ، سعد بن وهيب ، لا يغرنَّك من الله أن قيل . خالُ رسول الله ! » «وصاحب رسول الله .! فان الله (عز وجل) لايمحو السيىء بالسيىء، ولكنه » « يمحو السيئة بالحسنى » .

«ان الله ليس بينه وبين أحد نَسبٌ الاطاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم» « فى ذات الله سواء ، الله ربُّهم ، وهم عباده ، يتفاضلون بالتقوى ، ويدركون » « ماعنده بالطاعة ، فانظر الأمرَ الذى رأيتَ النبىَّ صلى الله عليه وسلم »

« منذ بُعثَ الى أن فارقنا ؟ فالزمه فان الأمر !! هذه عظتى لك ، ان تركتها »
« ورغبتَ عنها ، كنتَ من الخاسرين ، واعلمْ أن للقلوب حقائق ، يُنشِئُها »
« الله انشاءً . منها السرُّ ومنها العلانية . فأما العلانية فأن يكون حامِدُه »
« وذامُّه فى الحق سواء » .

« وأما السرّ فيُعرف بظهور الحكمة من قلبه على لسانه ، وبمحبة »
« الناس ، فلا تزهدْ فى التحبُّب ، فان النبيين قد سألوا محبتهم ، وان الله »
« اذا أحب عبداً حبَّبهُ ، واذا أبغَضَ عبدا بغَّضه . فاعتبر منزلتك عند »
« الله تعالى بمنزلتك عِند الناس ..!! » .

* * *

أيها المستمع الكريم :—

تلك وصية « عمر » لـ « سعد » اذْ ولاه أمرَ الجيوش . قالها على رؤوس الأشهاد ، وجعلها وازعة « لسعد » يزداد بها فناءً فى خير المجموع ، وتقضى على ما عساه يتسرب الى نفسه ، من زَهْو بقرابة رسول الله ، أو اعتزاز بالوشيجة القرشية ، التى تميِّزُه عن الناس ..!! .

* * *

سارت جموع المسلمين بقيادة « سعد » ولها فوق أسلحتها ، سلاحان من عقيدة وخُلُق ، اجتمعا فى خطب « عمر » وعظاته ، فليس يبالى الجندىُّ المسلم على أىِّ جنب كان فى الله مصرعه !! .

أما جيوشُ الفرس ، على وفرة العدد ، واجتماع العُدة ، فقد كانت قلوبهم هواء وعزائمهم منخوبة لا يعرفون لأى شىء يحاربون ؟ وعن أى شىء يدافعون ولهذا كانوا يقرنونهم فى الأصفاد والسلاسل ، خشية الفرار من الصفوف !!! ذلك شرُّ ما ابتُلِىَ به جيش ، لأنه فقر واملاق من القوة المعنوية . ولهذا دارت على الفرس الدوائر ، ومكَّن الله « لسعد » ولجيشه .

فَثَلَّ عرشَ الأعاجم ومزّق ملكهم ، وَرَكَزَ رماح الاسلام فى سهلها وجبلها ..

* * *

بقى (سعد) عَلَماً اسلامياً على طول الأيام ، وكان يعتزل الفتن ، وينأى عن الشر .. فلما وقعت الفتنة بين « علىّ » و « معاوية » أقام ببيته لا يبرحه وأمر ألاّ يبلغوه نبأً من أنباء الخلاف ، حتى يجتمع الناس على امام واحد ...

* * *

ومن مأثورات « سعد » وقد انتشرتِ الفتنة بعد موت « عثمان » أنه قال « مابكيتُ فى الدهر ، الا ثلاثةَ أيام ، يوم توفى رسول الله ... ويوم « قُتل عثمان » واليوم أبكى على الحق ، فعلى الحق السلام ... »

ولما حضرته الوفاةُ ، وكان فى ثراء موفور ، ومال كثير — دَعَا بجُبَّة من صفوف خَلَق ، وقال : كفنونى فيها ، لأنى لقيت المشركين فيها يوم بدر ... وانما كنتُ أخبئها لهذا اليوم ..

* * *

أيها المستمع الكريم :

ألا بارك الله على تلك النفوس ، التى أبتْ الا أن تَلقَى الله كما أحبّ اللهُ أن يراها ، مُلَفَّفَةً فى ثياب طُهرها ، مُكَفَّنةً فى أعلام التقوى والشرف والجهاد ...

المحاضرة السادسة عشرة :

الحادثان العظيمان في تاريخ الدعوة الإسلامية

الاسراء والمعراج

الاسراء والمعراج عجيبتان ربانيتان ـ معنى الاسراء ـ معنى المعراج ـ محمد رسول الله يتحدى المشركين ـ المشركون يشتد جحودهم بمحمد عليه السلام ـ أخبار الاسراء والمعراج ينقلها خمسة وأربعون صحابيا ـ تلك الأخبار ترويها الأجيال ـ العلم لا يزال قاصرا ـ فى الكون نواميس مجهولة ـ العقل الانسانى محدود ـ عظائم النواميس الكونية ـ الأجرام الهائلة تقطع الأبعاد الشاسعة فى لحظات ـ ليس يضير الحقائق جحود الجاحدين ـ ليس ما كشفه العلم هو كل ما فى الوجود من نواميس ـ كل يوم يظهر جديد فى العلم ـ آراء العلماء فى تغير دائم ـ رئيس مجمع ترقى العلوم يقرر أن كنه المادة غير معروف ـ عجائب العالم الروحى ـ سلطان الكائنات الروحية على العالم المادى ـ فعل الرياح ـ الرياح أجسام لطيفة وليست روحية ـ السلطان الروحى اللطيف لبعض الكائنات ـ عجائب الكهرباء ـ خواص الكهرباء غير حقيقة الكهرباء ـ الراديو وعجائبه ـ سهولة تصور الاسراء والمعراج لأنها فى حدود القدرة الالهية ـ وما أوتيتم من العلم الا قليلا ـ تصوير الفضائل لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى تلك الليلة ـ تمثيل المعانى السامية له ، فى سراه ، وفى معراجه ـ حديث السماء وعجائبها ـ فرض الصلاة ـ مراجعة لبيان قدر الصلاة ـ الاسراء والمعراج فى تاريخ الدعوة الاسلامية : هما برهان ناصع على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ الوحى الالهى ، والنصر الربانى يؤيدان محمدا عليه السلام ٠٠ !!

★ ★ ★

أيها المستمعون الكرام :

حديثنا الليلةَ حديثُ الاسراء والمعراج ـ حديث العجيبة الربانية ،

واللطيفة الروحية . فالاسراء . توجهه — عليه السلام — ليلا من مكة الى بيت المقدس ، ورجوعه من ليلته .

والمعراج . صعوده عليه السلام ، الى العالم العلوىّ ، وتلقّيه فيض التجلىّ وشهوده آيات ربه الكبرى !! .

وليس يَسَعُ مَن يؤمن بكتاب الله ، ويصدّق بما جاء عن رسول الله ، الا أن يَسْتَيْقِن وقوعَ هذين الحادثين « الاسراء والمعراج » فلقد قال تعالى ، وهو أصدق القائلين :

« سُبحانَ الذى أَسْرى بِعَبْدِهِ ليلاً من المَسجِدِ الحرَامِ إلى المسجد الأقصى ، الذى بارَكْنَا حَوْلَهُ لنُرِيَهُ من آياتنا ، إنه هو السَّميعُ البصير » .

وأشار الى حديث المعراج فى قوله تعالى : —

« والنجم إذا هَوَى ، ما ضلَّ صاحبُكُم وما غَوَى ، وما يَنطِقُ عن الهوَى . إن هُوَ إلّا وَحْىٌ يوحَى ، عَلّمه شديد القُوَى ، ذو مِرّةٍ فاستوى وهو بالأفقِ الأعْلى ، ثم دَنَا فتدلّى ، فكان قاب قَوْسينِ أو أدنى ، فأَوحَى إلى عَبْدِه ما أوحَى ، ما كَذَبَ الفُؤادُ ما رأَى . فتمارُونَه على ما يَرى ؟ ؟ ولقد رآه نزلة أُخْرى عِند سِدرَة المنتهى ، عِندها جنَّة المأوى ، إذ يَغْشى السِّدرَة ما يَغشى ، ما زَاغَ البَصَرُ وما طغَى ، لقد رأى مِن آيات ربِّه الكُبْرى ! ! » .

* * *

أيها المستمع الكريم :

تناول الاسراءَ والمعراجَ ، علماءُ المسلمين . على تبايُن العصور ، وفى شتى الأبحاث ، فانتهوْا الى أن هذا السُّرى كان فى الليل ، وذلك الصعود فى السموات — كان بروحه وجسمه « عليه السلام » وذلك الذى انتهى اليه العلماء ، هو ما يتّسِقُ مع تحدّيه « عليه السلام » للمكابرين الذين وجدوا فى خبرِ الاسراء والمعراج ، فرصةً تُظهر أحقادهم ، وتنبِش

أضغانهم ، وتبث نمائمهم، فاشتد جحودهم وانكارهم ، وتعويقهم للدعوة الاسلامية ، وهى اذ ذاك تنشط وتنهض وتذاع ...

أيها المستمعون الكرام :

أحايث الاسراء والمعراج ، سرت بين الأمة الاسلامية ، سريانا مستفضياً ، ووعتها بطون الكتب ، وتحدث بها الرواة ، حتى نقلها من أعاظم الرجال ، خمسة وأربعون صحابياً ، بطرق شتى ، وأخذها جيل عن جيل ، فى تواتر واجماع . فليس ينقص من قدرها ، أن يقوم فريق محدود الأفق ، ضيق العطن ، يزعم الوقوف خلف ما كشفه العلم ؟ وان شئت فقل « الظن » من أوصاف للسموات ، وأنباء للمناظير المكبرة ، التى تقرب المريخ والمشترى ، والزهرة ، وعطارد .. وكارب موجودات ، لا تزال تستعصى على قوة المناظير ، وتتسامى على عطارد والمريخ !.

« وخلق الانسان ضعيفاً » .

* * *

أيها المستمع الكريم : —

انه لجميل بنا ، وحسن منا ، أن نرعى نواميس الحياة ، وأن نؤلف ما بينهما ، وبين شئوننا . ونقارب ما بينهما وبين حياتنا — ولكن من المجازفة العقلية ، أن نجحد ما عسى أن يكون فى الوجود ، من نواميس أخرى . لا يزال العقل الانسانى يعثر منها كل يوم على جديد . وقد تنفد الأزمان والدهور ، وتخمد الأفكار والعقول ، والنواميس الكونية تتكشف ولا تنفد ! وتتجلى ولا تنتهى !.

وعجيب أن يقف الجحود أمام سرعة البرق ، الذى قطع الفيافى ، والقفار من مكة الى بيت المقدس ، وعاد فى فترة قصيرة .. وحجة هذا الجحود العلمية قانون السرعة ، وناموس الحركة ...

نعم . عجيب أن يستعصى الجحود عن ادراك السرعة « البراقية » !!

ولهؤلاء الجاحدين ، حجج وبراهين على (السرعة) التى تتحرك بها الكواكب السيارة !! فلديهم قد ثبت أن نجم المشترى ، يجرى ثلاثين الف ميل ، فى الساعة فيجرى تسعة أميال ، كلما تنفّس الانسان !! والمشترى أكبر من أرضنا بألف وأربعمائة مرة !! .

فيأيها العلم الجاحد !! انّ لِنَجْم المشترى الهاً — تبارك وتعالى — هو الذى جعل هذا الجسم الهائل الكثيف ، يقطع الأبعاد الشاسعة فى لحظات !! فكيف يتغابى العلم . أن يتصور رُوح القدس — ومعه ذو الروح الأكمل — محمد عليه السلام — وهما يَسْرِيان من مكة ، الى بيت المقدس ، على مقتضى ناموس لا نعرفه !! وان كان الوجود يشتمل عليه .. مادام العلم قد أثبت — سرعةً عجيبة — لأجرام كثيفة !! .

* * *

ما أجرم الجحود — انه يتناول كلّ أمر — فيعطل العقول !! ويصدم الغرائز !! الخيِّرة فى الانسان !! وهل يضيرُ الحقائقَ ، أنْ جحدها جاحد ؟ لأنه لم يرها !! — أو لأن عقله لايتسع لادراكها ؟؟ — ألا أيها الجاحدون ، لما لا تدركون !! .

« انما بَغْيُكُم على أنفسكم » .

* * *

أيها المستمعون الكرام :—

ليس فيما كُشف الى الآن ، من قوانين الجذب العام ، ونظام الأفلاك ، ومَسَابِحِ النجوم ، وعناصر الكواكب ، ونواميس الحركة ، وطبقات الهواء ، وتحديد الحركات ، ومعايير السرعة — ليس ذلك كله ومايتصل به — ما يقف أمام « الاسراء والمعراج » — الا اذا كان هو كلّ ماحواه الكون ، وانتهت اليه النواميس ؟!! وليس الأمر كذلك !! .

فاننا نشهد كل يوم كشفا عن ناموس !! وابطالا لناموس !! حتى لقد صرح بعض جهابذة الفرنجة :— بأنّ أخوف ما نخافه ، أن ما نفاخر به اليوم من العلوم ، يُصبح بعد مائة سنة باطلا منسوخا !! ويؤثر لرئيس مجمع ترقى العلوم بجامعة كمبردج سنة ١٨٥٤ :— ان كُنه المادة غير معروف، وان منتهى علمها مبتدأ جهلها !! ..

★ ★ ★

ألا انّ حق الكرامة العقلية على الانسان ، أن يُنهنه من طغيان الجحود ، اذا ما جهل أسرار الوجود !! فان قدرة الله لا يتعاظمها ناموس !! وسواء أكان « الاسراء والمعراج قد جرى أمرهما ، على ناموس من النواميس التى بثّها الله فى الكون ، أم جرى على غير ناموس !! فهو أمر فى حدود القدرة العَلِيّة ،الشاملة .. التى وسعت كل شىء ...

« وما قَدَرُوا الله حقّ قدرِهِ والأرض جميعاً قبْضَتُه يوم القيامة ، والسموات مَطْوِيّاتٌ بِيَمينه ، سبحانه وتعالى عمّا يشركون » .

★ ★ ★

أيها المستمعون الكرام :—

لا يجد الجحود لسانا ، الا فى حدود المادة ، الكدرة الكثيفة ، فأمّا لدى العالَم الروحى ، وأمام الكائنات اللطيفة ، فأنت تَتَفَقَّد الجاحدين ، فهل تُحِس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً ؟؟ لا . ان للكائنات الروحية اللطيفة ، سلطانا بعيد المدى ، على العالم المادّى ، سلطاناً من أمْر الله يُعجز القُوى ، ويحل العُرَى ، ويدهش العقول .

ودونكم ما يشهده الحسّ ، مما تفعله الرياح . وهى أجسام لطيفة فقط .. وليست روحية .. انها تزعزع الأشجار الباسقة ، وتقتلع الأوتاد العاتية ، وتُفَتِّتُ الصخور الجاثمة !! وهذه قوة — الكهرباء — والكهرباء —

من اللطافة بحيث تُرى آثارها ، ولا تُرى حقيقتها !! انها تحوّل خواص الأجسام الى أضدادها .. وتبعث اليوم فى الدنيا حياة جديدة .. انها تحمل الأثقال ، وتُقلقل الأجبال ، وتُرسل الحركة العنيفة ، وتبعث البارقة الخاطفة ، وتُجرى أضخم الاجرام ، وترسل الصواعق ، وتنشر الضوء ، وتؤجّج النيران ..

نحن نشهد تلك الآثار لقوّة لطيفة ، هى — الكهرباء — نراها — رأىَ العين ، ونُجريها مجرى اليقين .. فكيف يَتَعاظَمُنَا مالسلطان الأجسام الروحية اللطيفة . على المادة الكثيفة ؟؟ .

★ ★ ★

أيها المستمع الكريم :

أكان للناس عَجَباً ، أن أفيضت الروحية اللطيفة على « محمد » ، وعلى « جبريل » ؟ فصدر عنها من الآثار ، مثلُ — الاسراء ومثل المعراج — . ونحن اذا طوينا القرون القهقرى ، فرجعنا الى ماقبل اليوم — منذ قرنين اثنين — أفكُنّا نحسَبُ مَوجاتِ الأثير ، تَنْقُل الى أقطار الدنيا ، نبراتِ الخطباء وارنان الغناء ، وعزف الآلات ؟! — والخطيب — والمغنىّ — والعود — لايجاوز مكانه المحدود ؟ أفكنّا نوقن بوجود ناموس ، يجرى بسفائن فى الجو ، لا فى البحر وان شئت فقل ، مُدُناً مُتَنَقّلة على جناح الرياح ؟؟ لقد صرنا اليوم ، وصار ما كان أدخلَ فى باب المستحيل ، وهو ممكن !! يُرى ، ويُحَسّ وصدق الله العظيم :

« وما أوتيتم من العلم الا قليلا » .

★ ★ ★

أيها المستمعون الكرام :

لقد شاء الله أن يُكْرِم عبده « محمداً » عليه السلام « بالاسراء

والمعراج » ، وأن يجعل من الحادثَيْنِ ، مصداقاً لكل ما يبلّغه عن ربه •• !!

ولقد شاهد فى مسيره « عليه السلام » مُثُلاً ، وصوراً للفضائل الانسانية فأصبح يحكيها حكايةَ الثَّبْتِ المتيَقّن ، وفيها من العظات والعبر ، صنوفاً وألواناً !! ••

جاء فى حديث أبى هريرة ، عن الطبرانى ، والبيهقى ، وابن جرير ، وأبى يعلى ، أنه — عليه السلام — مَرَّ ليلةَ أُسرى به على قوم ، يزرعون ويحصدون فى يوم ، وكلما حَصدوا ، عاد كما كان !! فقال لجبريل : ما هذا ؟ قال : هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله ، تُضاعف لهم الحسنة ، سبعمائة ضعف ، وما أنفقوا من شىء فهو يخلفُه وهو خير الرازقين •••

ثم أتى على قوم تُرضخ — تشدخ — رؤوسهم بالصخر ، كلما رضخت عادت كما كانت ، ولا يُفَتَّرُ عنهم من ذلك شىء ، فقال ماهذا ؟ ياجبريل ، قال : هؤلاء الذين لا يؤدُّون زكاة أموالهم !! « وما ظَلَمَهُم الله ولكنْ أنفُسَهم يَظْلمونْ » •

ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيجٌ فى قِدْر ، ولحم نيىء فى قدر ، فجعلوا يأكلون من النيِّىء الخبيث !! ويدَعون النضيج !! فقال ما هؤلاء ، ياجبريل ؟ قال : هذا الرجل من أمتك ، تكون عنده المرأة الحلال الطيب ، فيأتى امرأةً خبيثةً ، فيبيت عندها ، حتى يُصبح !! ••

والمرأة تقوم من عند زوجها حلالا طيباً ، فتأتى رجلاً خبيثاً ، فتبيت عنده حتى تُصبح !! •

ثم أتى على رجل ، قد جمع حزْمةً عظيمة • لا يستطيع حملها ، وهو يَزيد عليها !! قال : ما هذا ياجبريل ؟ قال : هذا الرجل من أمتك ، تكون عنده أمانات الناس ، لا يقدر على أدائِها ، وهو يريد أن يحمل عليها !! ••

ثم أتى على قوم ، تُقرض ألسنتُهم ، وشفاهُهُم بمقاريضَ من حديد ، كلما قُرِضتْ ، عادت لا يفتّر عنهم من ذلك شىء !! قال : ما هذا ياجبريل ؟ قال هؤلاء خطباء الفتنة ! : الذين يَقولونَ مالا يفعلُون •

ثم أتى على جُحْر صغير ، يخرج منه ثور عظيم ، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج ، فلا يستطيع !! فقال ما هذا ياجبريل ؟ قال : — هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ، ثم يندم عليها ، فلا يستطيع أن يردّها !!! .

ولقد ذكر ، فى رواية أبى سعيد الخدْرِىّ عن البيهقى ، وابن جرير ، قال : هؤلاء الذين يأكلون أموالَ اليتامى ظلماً .

وأنه «عليه السلام» مرّ بقوم ، يُقطع من جنوبهم اللحم ، فيطعَمُون!! وأنهم الغمازون(١) !! اللمّازون !! .

* * *

أيها المستمع الكريم :

هذا ضربٌ من التمثيل ، وتصوير المعانى ، أتيح لسيدنا رسول الله « صلى الله عليه وسلم » ، أن يراه فى تلك الليلة المشهورة ، ليكون أوقعَ فى النفوس ، وأبعد أثراً فى جمال الفضيلة ، وقبح الرذيلة !! .

* * *

أما حديث المعراج ، فقد رواه الشيخان ، اللذان لا يتطرق الشك فى صحة ما يرويان ، رواهُ البخارى ، ومسلم ، ونقله القاضى « عياضٌ » فى شفائه ، عن أنس بن مالك « رضى الله عنه » قال : —

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أُتِيت بالبراق ، وهو دابّةٌ فوق الحِمار ودونَ البغل ، يضع حافره عند منتهى طرفه ، قال : — فركبته حتى أتيتُ بيت المقدس ، فربطْته بالحَلْقة التى تَرْبِطُ بها الأنبياء ، ثم دخلتُ المسجد ،فصليت ركعتين ، ثم خرجتُ فأتانى جبريل باناء من خمر ، واناء من لبن ، فاخترتُ اللبن !! فقال جبريل ، اخترتَ الفطرة !!

ثم عرج بنا الى السماء الأولى ، فاستفتح جبريل ، فقيل من أنت ؟ قال :

---

(١) الغمازون — المشيرون بأعينهم لعيوب الناس — واللمازون — العيابون .

جبريل ، قيل ومن معك ؟ قال : « محمد » قيل : وقد بعث اليه ؟ قال قد بُعث اليه ، فَفُتِح لَنا ، فاذا أنا « بآدم » فرحَّب بى • ودعا لى بخير •

ثم عَرَجَ بنا الى السماء الثانية ، فاستفتح « جبريل » فقيل من أنت ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال « محمد » ، قيل : وقد بعث اليه ؟ قال : قد بعث اليه • فَفُتِح لنا ، فاذا أنا بابْنَىَ الخالة : يحيى وعيسى بن مريم ، فرحبا بى ، ودعوا لى بخير •

ثم عرج بنا الى السماء الثالثة « فذكر مثل الأول » ، ففُتح لنا فاذا أنا « بيوسف » واذا هو قد أعطى شَطر الحسن ، فرحَّب بى ، ودعا لى بخير •

ثم عرج بنا الى السماء الرابعة :— وذكر مثله — فاذا أنا « بادريس » ، فرحب بى ، ودعا لى بخير ، قال تعالى « ورفعناه مكاناً علياً » •

ثم عرج بنا الى السماء الخامسة ، فذكر مثله — فاذا أنا « بهرون » فرحب بى ، ودعا لى بخير •

ثم عرج بنا الى السماء السادسة ، فذكر مثله ، فاذا أنا « بموسى » فرحب بى ودعا لى بخير •

ثم عرج بنا الى السماء السابعة ، فذكر مثله ، فاذا أنا « بابراهيم » ، مُسنداً ظهره الى البيت المعمور ، واذا هو يدخله سبعون ألف ملك • لا يعودون اليه ••• ثم ذهب بى الى « سدرة المنتهى » ، فاذا أوراقها كآذان الفِيَلَة !! واذا ثمرها كالقلال !! قال فَلَمَّا غَشِيها من أمر ربى ما غشيها — تغيَّرت ، فما أحدٌ من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها ، فأوْحى الىَّ ما أوحى ، وفرض علىَّ وعلى أمتى خمسين صلاة ، فى كل يوم وليلة • فنزلتُ الى « موسى » فقال : ما فَرَضَ ربُّكَ على أمتك ؟ قلت خمسين صلاة • قال : ارجعْ الى ربك ، فسله التخفيف • فان أمتك لا يطيقون ذلك ، فانى قد بلوتُ بنى اسرائيل قبلك ، وخَبَرتُهُم ••• قال فرجعت الى ربى •

قلتُ يارب خفِّفْ عن أمتى ، فحطَّ عنى خمساً ، فرجعتُ الى موسى ، فقلت • حَطَّ عنى خمساً ، قال : ان أمتك لايطيقون ذلك ، فارجع الى ربك ،

فسله التخفيف . قال : فلم أزل أرجع بين ربِّى — تعالى — وبين « موسى » حتى قال سبحانه « يا محمد ، انهن خمسُ صلوات ، كلَّ يوم وليلة ، لكل صلاة ثواب عشر !! فتلك خمسون صلاة ! ومن هَمَّ بحسنة ، فلم يعْمَلها ، كتبت له حسنة ، قال :— فنزلت حتى انتهيتُ الى « موسى » ، فأخبرته ، فقال : ارجع الى ربك فسله التخفيف ، فقلت قد رجعتُ الى ربى حتى استحيتُ منه !! . ثم رجع عليه السلام من ليلته .

★ ★ ★

أيها المستمعون الكرام :—

ان حادثَى الأسراء والمعراج ، لهما أبعد الأثر فى تاريخ الدعوة المحمدية ، بل هما آية صدق وبرهانُ يقين ، على صحة النبوة والرسالة ! فليس يصح فى الأذهان ، والدعوة تلاقى فى مكة أعنفَ التسفية والتكذيب — ليس يصح أن يقوم « محمد » عليه السلام فى الوقت العصيب ، ويفاجىء خصومه الألداء ، بحديث الاسراء والمعراج — من عند نفسه — لكى يقدِّمَ لهم المادة يبنون منها تكذيبهم ، والعُدَّة التى يهيئون منها أسلحتهم ، للعصف بدعوته ! .

ان « محمداً » عليه السلام ، هو أحصفُ وأحزم من أن يَذكُرُ فى الصباح — « حديث الاسراء والمعراج » ، الا وهو مؤيدٌ بالعناية الالهية ، تنصره فى عمله ، مستعينٌ بالوحْى الالهى ، يضىء له السبيل ، ويكفيه مؤونة الدليل ويرحم الله ناهج البردة « شوقى » ، وهو يقول فى الأسراء والمعراج :

مشيئةُ الخالق البارى وصنعتُه ❊ وقدرةُ الله فوقَ الشكِّ والتُّهَمِ

المحاضرة السابعة عشرة :

أمين الأمة الإسلامية

أبو عبيدة بن الجراح

أبو عبيدة صورة للنفس المؤمنة ـ مأثورات : لرسول الله « صلى الله عليه وسلم » فى أبى عبيدة ـ تقبل أبى عبيدة للحق ـ فطرته الخيِّرة ـ اسراعه فى اجابة الدعوة الى الاسلام ـ فناؤه فى عقيدته ـ أبو عبيدة يقتل أباه المشرك دفاعا عن العقيدة ـ نزول القرآن فى تلك الحادثة العظيمة ـ انكار الذات فى سبيل لله ـ تلقيب « أبى عبيدة » بأمين الأمة ـ سموه بالحق فوق الأشخاص ـ ايثاره لغيره فى الساعات العصيبة ـ عمر بن الخطاب ، يهم بمبايعة أبى عبيدة على الخلافة ـ اباء أبى عبيدة ذلك لنفسه ـ تقديمه لأبى بكر الصديق ـ فتوح أبى عبيدة ـ أبو عبيدة يعظ الجند فى الصفوف ـ ساعة الوفاة ـ أبو عبيدة يهتم بشؤون المسلمين ، فى اللحظات الأخيرة ـ كلمته التى يودع بها الحياة ـ عظماء المسلمين ـ صور للكمال الانسانى .

★ ★ ★

أيها المستمعون الكرام :

حديثنا الآن ، يتصل بعظيم من عظماء المسلمين بل هو يصف صورةً من صور الايمان الحق ، تمثلت بشراً سويا ..

فلقد سرَتْ معانى الدين ، فى تلك النفس المكملة ، نفسِ أبى عبيدة ابن الجراح ، وجاوزت ذلك ، فأخضعتْ كل جوارحه لداعى الحق ، فلم تعد جارحةٌ ولا خافقةٌ من خوافقه ، ولا خاطرةٌ من خواطره ، الا وهى صادرة عن المَوْرد العَذْب الطهور ، موردِ الدّين الحنيف .

فليست حركاته الا تلبيةً لنوازع الايمان . وليست سكناته الا ركوناً الى هواتِف الحق ...

نظر اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قلّب فيه النظر ، فاستبان أن الصورة الماثلة أمامه — من مَفْرِق الشعر الى أخمَصِ القدم — صورةٌ للايمان الصادق ، يشيع فيها ، ويجرى منها مجرى النَّفَس ، فلمَس « صلى الله عليه وسلم » خاصرةَ « أبى عبيدة » وقال: — « انَ هاهُنَا خويْصِرَةً مؤمنة ! » رواه ابن عساكر ، عن جابر .

وليست خاصرةُ أبى عبيدة التى صغَّرها « عليه السلام » — تصغير تكبير واعظام — هِىَ وحدها موطن الايمان : لا : انَّ كل ما كان يبدو من أبى عبيدة ويقع عليه النظر المحمدىّ الشريف ، كان يبدو فيه الايمان ، ويطل منه اليقين ! فكان أبو عبيدة ، اذا ما أقبل على رسول الله « صلى الله عليه وسلم » ، أعجبه منه أنه نسيجُ دين ويقين ...

قال أبو بكر الصديق : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأبى عبيدة — كلمات — لأنْ يكون قالهن لى ، أحبَّ الىَّ من حُمُرِ النَّعَم ، قالوا : وما هنَّ ياخليفة رسول الله ؟؟ قال : —

« كنا جلوساً عند رسول الله ، فقام أبو عبيدة ، فأتبَعَهُ رسولُ الله بصره ثم أقبل علينا ، فقال : « ان هاهنا — يشير لأبى عبيدة — لَكَتِفَيْن (١) مؤمنين » .

* * *

وجاء وفد نجيران الى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقالوا : يامحمد ، ابعث لنا من يأخذ لك الحق ، ويعطينا اياه فقال : والذى بعثنى بالحق ، لأرسلنَّ معكم أميناً حقَّ أمين !! قال أبو بكر — فرفعتُ رأسى لأرِيَه نفسى ، وما تعرضتُ للأمارة غيرها ! فقال عليه الصلاة والسلام: قم يا أبا عبيدة ! فبعثه معهم ..

* * *

(١) تثنية كتف .

أيها المستمع الكريم :

أرأيتَ كيف تكشَّف ايمان « أبى عبيدة » لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصار يراه فى خاصرتيْه ، وفى كَتِفَيْه ؟؟ .

وانه لتصويرٌ نبوىٌّ رائع ، للحقيقة التى امتزجت بأجزاءِ أبى عبيدة ، فهو ان بَطَش ففى سبيل الله ؛ فان استقوى فعلى أعداء الله ؛ واذا سارع فاجابة لداعى الله .

ولقد كانت فطرة أبى عبيدة ، من الفِطَر المُعَدَّةِ لتقبُّل الحق المهيَّئَةِ للفيض الربانىّ ، فلم يلبث أن سمع حديث التوحيد ، وأصغى الى دعوة محمد عليه السلام حتى استجاب وآمن ، واستَيْقَنَ فى السابقين الأولين ! .

لم يعدل به عن الصراط المستقيم عنادٌ ولم يأخذه فى الحق كبرياء .

* * *

أخرج الحافظ بن عساكر فى تاريخه عن يزيد بن رومان ، قال : « انطلق عثمان بن مظعون ، وعبيدة بن الحارث ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأبو عبيدة ابن الجراح ، حتى أتَوْا رسول الله . صلى الله عليه وسلم فعرض عليهم الاسلام وأنبأهم بشرائعه ، فأسلموا . فى ساعة واحدة ، وذلك قَبْل أن يدخلَ — عليه السلام — دارَ الأرقم ، وقبل أن يدعُوَ فيها ...

* * *

أيها المستمع الكريم :

ماكادت تلك الفطرة السليمةُ ، يلابسها اليقين حتى فَنِيَتْ فى سبيل العقيدة ، وراحت تُبَيِّنُ للناس نوعاً من عظمة الأيمان ، استعلى على الطبائع الانسانية ...

فلقد شاهد أبو عبيدة ، وهو يدفع فى أقفية المبطلين ، يوم « بدر » .

يوم تحزّبَ الباطل ، وتحالف أنصاره — شوهد أبو عبيدة ، يكشف بسيفه سواد المشركين ، وهم يَحْذرونهَ ، ويجانبونه ، الا رجلا واحداً كان يتصدى لأبى عبيدة !! — وأبو عبيدة يَصدفُ عنه .. فلمّا بَرِمَ به ، والرجل لا يزال مُلحاً فى مواجهته ، استوحى أبو عبيدة يقينَه ، وأهوى بسيفه ، فشجَّ رأس هذا المتصدى له . أتعلم أيها المستمع الكريم : من المقتول ؟؟ انه عدوُّ الله .. انه والد أبى عبيدة .. يالله .. ما أعز العقائد ، وما أعلى الحق ..

فيالعَزيمة المؤمنين .. ويالجَلال الايمان ...

ولدٌ يقتل الشركَ فى شخص أبيه ، وينتزع وشيجة القرابة ، ابقاءً على وشيجة القُرْبة .. للدين ، وللعقيدة ...

انها — والله — لمحنة المعتقدين ، واختبار المستيقنين ، وانه لصنعٌ حرىٌّ بأنْ يقدِّره الوحى الالهى حقَّ قدره ...

فلقد سجل الكتاب المحفوظُ الخالد ، هذه العظمةَ المؤمنةَ ، فقال أصدق القائلين :

« لا تجد قَوماً يؤمنُون بالله وَاليوم الآخر يُوادُّونَ مَن حَادَّ اللهَ ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم ، أو إخْوانَهُم أو عشيرتَهم ! ؟ أولئك كتب فى قلوبهم الإيمانَ وأيَّدهُم بروحٍ منه » .

★ ★ ★

أيها المستمع الكريم :—

أسلم « أبو عبيدة » فى الرَّعيل الأول — أيام كان المسلم يفرُّ بدينه ، أو يتجرعُ غصص الحياة ، دفاعا عن عقيدته . والله سبحانه وتعالى يقول ، فى شأن أبى عبيدة وأمثالِه ، من السابقين الأولين :—

« لا يستوى مِنكم مَن أنفقَ مِنْ قَبلِ الفَتْحِ وَقَاتَلَ ، أولئك أعظمُ درجةً من الذين أنفقُوا من بَعدُ وقاتلوا . وكُلاًّ وَعَد اللهُ الحسنى » .

ولقد كثر المسلمون من بعدُ، وشهدوا المشاهد، وحضروا الوقائع، لكنَّ معنى واحداً، كان يَفْضُلُ به « أبو عبيدة » !! وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، يلْمحُهُ ويَشِيدُ به، ثم ظهر أثره بعدُ، فى سيرة أبى عبيدة. ذلك المعنى هو انكارُ الذات، واسلامُ النفس، وفاءً للعقيدة، وأمانةً على الحق .. !!.

أخرج الحافظ فى أسْدِ الغابة، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لكُلِّ أمَّة أمين"، وان أمِينَ هذه الأمة، أبو عبيدة ابنُ الجراح !! ».

هذا اللقبُ الخالد، لازَم أبا عبيدة، وصدرتْ عنه آثار" مجيدة، لخير المجتمع الاسلامى ...

روى ابنُ عساكرٍ، عن موسى بن عقبة، أن عمرو بن العاص، لما كان فى غزوة ذات السلاسل — فى مشارف الشام — وخاف من جانبه الذى هو به بعث الى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يستمدُّه. فندب « رسول الله » المهاجرين والأنصار، وفيهم أبو بكر، وعمر، فى سراة من المهاجرين، وأمَّر عليهم أباعبيدة بن الجراح، وأمَّد بهم — عمرو بن العاص — فلما قدموا على « عمْرو » قال لهم: أنا أميركم !! وقد أرسلتُ الى رسول الله، صلى الله عليه وسلم — أستمدُّه بكم ؟ فقال المهاجرون :— بل أنت أميرُ أصحابك ! و « أبو عبيدة » أمير المهاجرين فقال عمرو: أنتم مَدد" أمْدِدْتُ به !! فلما رأى ذلك « أبو عبيدة » وأبو عبيدة هو أبو عبيدة !! قال: تَعلَّم ياعمرو: ان آخر ما عهد الىَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال: « اذا قدمتَ على صاحبك فتطاوعا !!» وانك ان عصَيْتنى لأطيعنَّك. وسلَّم أبو عبيدة الامارةَ لعمرو بن العاص !!.. يرحم الله أبو عبيدة، ويرحمُ الله عمرو بنَ العاص، فكلاهما الخيرَ أراد. وكلاهما يستبق فى الخيرات !!.

* * *

أيها المستمع الكريم :—

انفرد « أبو عبيدة » بتلك النقائب ، فحليته القلوب ، وتطامنت له نفوس الصحابة أجمعين ، فلم يزده اكبار الصحابة له ، واعجابهم به ، الا شعوراً بأقدار الرجال ، والا تواضعاً أمام قداسة الحق ...

أخرج ابن عساكر ، قال: قال — «عمر» لأبى عبيدة — يوم السقيفة — هلم أبايعك !! فانى سمعت رسول الله يقول : « انك أمين هذه الأمة » فقال أبو عبيدة ، كيف أصلى اماماً ، وخلفى رجل أمره رسول الله ، أن يؤمنا ، يوم قبض ??? والرجل المقصود ، هو « أبو بكر الصديق » .

فيا لها من نقائب ، لا يزدهيها الاعظام والاجلال !! ولا يزيدها ذلك ، الا عرفاناً بالصواب ، ووقوفاً عند الحق ...

* * *

لقد انطلق أبو عبيدة ، سهماً من سهام الاسلام ، وسيفاً من سيوفه المسلولة يدوخ الجيوش ، ويحاصر المدن ، ويلقى الرعب فى قلوب الروم ، ففتح دمشق والأردن ، وحمص ، وبعلبك . ثم سار الى حماه ، والى حلب . ثم سار الى انطاكية ، ثم جعلت جيوشه تضرب فى الشمال ، والشرق ، حتى أتمت فتح سورية ، وبلغت الفرات شرقاً ...

وكان يوزع العدالة بين الأمم المغلوبة ، قسمة مقتبسة من العدل العمرى ، فأمن الرعايا ، وانتشر السلام ، وسعدت الانسانية فى ظلال القانون السماوى ، وذاقت حلاوة الطمأنينة ، وانصرفت الى التعمير والانشاء ...

* * *

أيها المستمع الكريم :—

كيف بك اذا تمثلت قائداً فاتحاً ، يسير وسط جيشه ، واعظاً منذراً

مرشداً ، ينتزع الغرور من صدور الجند ، ويذكّرهم بما هو خير وأبقى ؟!..
ويقول للجنود : ألا ربَّ مُبَيِّض لثيابه ، مدنّس لدينه !! ألا ربَّ مُكْرِم لنفسه ، وهو لها عدوٌّ مُهين !! ادْرأوا السيئاتِ القديماتِ ، بالحسنات الحديثات !!! .

* * *

بقى هذا البطل يغالب الأبطال ، ويتوسط القتال ، ويُلقى بنفسه وسط المعامع ، حتى شاء الله أن تنطوىَ تلك الحياة القوية العريضة ، فراح أبو عبيدة فى اثر وَباء ، وهو يقود الجنود ، ولما حضرته الوفاة لم ينس أمانته ، ولم ينس امامه (عُمَر) فقال لمن حضر : أقْرئوا أمير المؤمنين السلام ؛ واعلِمُوه أنه لم يبقَ من أمانتى شىء ؛ الا وقد قمتُ به وأدّيته ، ثم التفت الى مَنْ حوله وقال :— انى مُوصيكم بوصية ، ان قبلتموها ،لن تزالوا بخير !! — « أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وصوموا رمضان ، وتصدّقوا ، وحُجوا ، واعتمروا ، وتواصوا ، وانصحوا لأمرائكم ، ولا تَغُشُّوهم ، ولا تُلْهِكم الدنيا ؛ فازَّ امرأ لو عَمَّر ألف سنة ، ما كان له بُدٌّ من أن يصير الى مصرعى هذا الذى ترون !! الله كتب الموت على بنى آدم !! فهم ميّتون ، وأكْيَسُهُم أطوعهم لله ، وأعْمَلُهم ليوم معاده !! والسلام عليكم ورحمة الله » . ثم صاح يا معاذُ بنَ جبل : صلِّ بالناس ...

ثم انطفأ هذا السراج الوهّاج !!! .

فقام معاذ وقال :— والدِّينِ العظيم ، انكم أيها المسلمون ، فُجِعتم برجل ما أزعمُ أنى رأيتُ عبداً أبرَّ صدراً ، ولا أبعدَ من الغائلة ، ولا أشدَّ حباً للعامة ، ولا أنصحَ لهم منه ، فترحّموا عليه ، رحمه الله ...

* * *

أيها المستمع الكريم :

تلك عظمة" اسلامية ، خلصت جميعها من الهِنات وَوَسِعت الفضائل ، ولم تَسْتَعبِدها الشهوات . وان بعض المتحدِّثين اليوم ، عن عظماء الأجيال الحديثة ، ليروْن بعض النقائص فيهم ، فيُغْضون عنها ، ويصيحون بأن العظمة فوق النظام !! وأنه يجب أن يسموَ العظماء والملوكُ ، عن الخضوع للقوانين !! وأن يُسْمَحَ لهم ، بما يحْرُم على غيرهم !! .

* * *

ألا انَّ عظماء المسلمين كانوا خاضعين — من أعماق سرائرهم — للقانون السَّماوىّ وكانوا يطيعونه ، ويستمعون له ، طاعَةَ الأحرار ، لا طاعةَ العبيد ، وسماعَ الأبرار ، لا سماعَ الفجَّار ، ولم تُعْرف فى حياتهم هِنَةٌ ، ولا منقصةٌ ، وتلك هى العظمةُ حقاً ... ولا سعادة للمجتمع الا اذا كان قادتُه قُدوةً له .. !!

المحاضرة الثامنة عشرة :

زواج المسلمين وزواج نبيهم ﷺ

خصوم الاسلام يحرفون مبادئه ـ يعرفون الحق ثم ينكرونه ـ المبشرون والمستشرقون ـ تخليط الجهلة والمعاندين ـ الروح الاسلامى مسعد الانسانية القانون الاسلامى نظام للمجتمع البشرى ـ الاسلام لا يصادم الغرائز ـ الاسلام يهذب الطبائع ـ العفاف حياطة للمجتمع ـ كلمة المعز لدين الله قبيل فتحه مصر ـ كلمة الزواج فى لسان الشرع ـ الزواج داعية المودة والرحمة ـ الزواج ميثاق غليظ ـ الأسلوب القرآنى التهذيبى عند ذكر الزواج ـ الأناة والتفكر قبل فصم عروة الزواج ـ التشكيك فى الوجدان ـ على أى شىء تبنى البيوت دعائم الزوجية فى رأى عمر ـ تعدد الزواج من غير حاجة جهل بحكمة التشريع حدود الشريعة فى تغيير الزوجات ـ اباحة التعدد محوطة بالعدل ـ متى يصبح تعدد الزوجة جورا وطغيانا ؟ ـ العدل كلمة رهيبة ـ أصل السعادة أن يكون للمرء زوجة واحدة ـ الحروب المبيدة ـ الأوبئة الحاصدة ـ وجوب تكثير النسل ـ ضرورات التعدد ـ كتاب الفرنجة يشيدون بمبادىء الاسلام ـ محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ينصرف عن النساء فى ميعة شبابه ـ ينصرف عن عبث الشباب ـ لا تعرف عنه ريبة ـ لايؤخذ بظنة ـ يتعب خصومه فى البحث عن عيب فيه ـ لا يلم بمأثمه ـ محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم يشغله شأنه الروحى عن دنيا المتاع واللذات ـ يتزوج بخديجة وهى شيخة ، وهو فى الخامسة والعشرين ! لا يبدل سواها بها ـ تزوجه بسودة بنت زمعة ـ حكمة الزواج ـ سودة لم تعرف بجمال ولا بمال ـ عرفت بالخلق والعقيدة ـ تزوجه عليه السلام بعائشة وبحفصة ـ معنى ذلك الزواج ـ رعاية الصداقة ـ لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ـ محمد عليه السلام وطبيعته الانسانية ـ الشريعة عامة للنساء والرجال ـ نساء النبى يبلغن الأحكام لغيرهن !!

* * *

أيها المستمعون الكرام :

يتحدث الكثيرون فى زواج المسلمين • وفى زواج نبيهم — صلى الله عليه وسلم — : حديثاً نابياً عن الحق والصدق ، بعيداً عن التحقيق العلمىّ ، وعن طبائع الاجتماع ، منقطعاً عن التاريخ الاسلامى الصحيح وهؤلاء المتحدثون ، وهُمْ كُثْرٌ — لايعدون أحد رجلين :

أما الأول — فشانىءٌ للأسلام ولمبادئه ، من غلاة المبشرين والمستشرقين! الذين تستيقن نفوسهم الحقّ ، ثم يجحدونه بغياً وظلما •

وثانى الرجلين — تراه فى علمه رقيقَ الحال ، وتلمح على رأيه طابَع التقليد • لا يفرّق بين أقوال المخلّطين ، وبين تحقيق المحققين •• ! من أجل هذا — نسوق الحديث الآن ، ونفصّل الخطاب :

لقد جاء الاسلام ، ومعه سعادةُ البشر ، ورحمتُهم ، ووقايتهم ، وتنظيم مجتمعاتهم ، فشرع لهم من الدين النظم والقوانين ، ولقنهم من الآداب والأخلاق ، ما يكفل للانسانية بقاء سعيداً وحياةً مطمئنة ! لا جموحَ فى الرغبات ولا سَرَفَ فى النزعات ! لم يصادم الاسلام غريزة ، ولم يقاوم طبيعةً ! لكنه هذّب الغرائز ، وقوّم الطبائع ، ليؤلّف بذلك جماعات تسودها الفضيلةُ • ويحوطها القصد والاعتدال • فاذا ما نظرنا الى الزواج الاسلامىّ ، نراه قد ردّ الميول الجامحة ، وكبح من الأثَرَة الطاغية ، وغالب النفوس ، وقمع الأهواء ، وجعل من العفاف حياطةً للمجتمع ••• !

ولقد يحدثنا التاريخ ، أن الاسلام قد عُنِى بشؤون المرأة ، زوجةً ، وأمّاً وعضواً فى المجتمع ، لأن كل تفريط ، أو افراط فى شؤون المرأة ، مؤْذِنٌ بانهيار الأمم ، وذَهاب ريحها ، ويحضرُنا هنا مثل سريع ؛ ذلك أنّ (المعزّ لدين الله) لمّا فتح مايلى افريقية حتى المحيط ، أخذ يرنو الى مصر وهو واجم متهيّب ، ثم لم يزل متردّداً فى الاقدام على غزو مصر ، حتى قال له قائل : إن قصور الأخشيد قد غَرِقت فى الترف !! وان النساء هناك قد استُهِنّ بالفضيلة !! فما لبث أن قال كلمته المعروفة — « اليوم فتحتُ مصر ؟!! » •

أيها المستمع الكريم :—

جاءت كلمة الزواج على لسان المشرع الاسلامىّ ، فكانت طبيعةُ الاشتقاق مؤْذِنةً بأن الأصل الطبيعى ، أن يكون للرجل امرأةٌ واحدة يكون بها ، وتكون به زوجاً .

ثم ما برح الأسلوب التعليمىّ القرآنىُّ ، يذكر الزواج ، مقترناً بكرائم الصفات ، من المودة والرحمة ، والألفة والمساكنة والملابسة ... ثم عظّم الاسلام رباط الزواج تعظيماً ، وسمى عَقْدَهُ ميثاقاً غليظاً !! قال تعالى :—

« وأخذْنَ مِنكُم ميثاقاً غليظاً » .

واستمعوا الى الأسلوب التهذيبىّ فى الزواج ، يقول تعالى :

« ومن آياته أن خَلَقَ لكم مِن أنفسِكُم أزواجاً لتَسكُنوا إليها وَجَعَل بَينَكم مَودَّةً ورحمة » .

فاذا ما أصغى المسلمُ ، الى هذا الأدب الالهى ، كان حريا ألا يسارع فى هدم بيته ، وفَصْم عروته ، واشقاء أسرته ، لنزوة حضرت ، أو بادرة بدرت ، أو هوًى عرَض . ولنستمع الى قوله تعالى :—

« وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهنَّ فعسى أن تكرَهوا شيئاً ، ويجْعَلَ الله فيه خيراً كثيراً » .

أليس هذا تشكيكاً فى الوُجدان ، واطفاءً لغضب الغضبان لكى يُبقى على زوجه ؟؟ .

* * *

فى ضياء تلك الآيات الكثيرة ، كان أئمة المسلمين يُشرِّعون للناس ما يجنِّبهم عثراتِ التعجل ، فى فصم عروة الزواج ...

حدَّث الرواة أن « عُمَرَ » رضى الله عنه ، قال لرجل طلق امرأته : « لِمَ طلقتها ؟؟ قال : لا أحبها !! فقال : أكلُّ البيوت بُنِيتْ على الحب ؟ أين الرعاية وأين الذمم ؟! » .

أيها المستمع الكريم :—

اذا كان المشرع الاسلامى ، وأسلوب الوحى السماوى • قد جعلا للزواج كل أولئك المعانى السامية ، فكيف التوى الأمر وانقلب ، حتى صار يقال : أوليس تعدد الزوجات ، وكثرة الفرقة ، وسهولة الطلاق ، مبعثاً لهاتيك الويلات ؟••

وقبل أن نعرض لهذا التساؤل وهذا القول ، يجمل بنا أن نعرض لآيتين كريمتين ، لنعرف مراميهما الصحيحة ، ونفقه حكمتهما التشريعية ، وعند ذاك — تتبين أين هو مصدر الشقاء ؟ وما هو مبعث الشرور ؟ أهو الزواج الاسلامى الذى أحكمت نظمه ، ثم فصلت من لدن حكيم عليم ؟؟ أم هو الجهل بتلك الحكم !! وتلقى الشريعة من غير مناهلها ومنابعها ؟• وهل المسلمون اليوم فى تزاوجهم ، قد وقفوا عند حدود شريعتهم ؟ وأدركوا أسرار كتابهم ؟•• يقول تبارك وتعالى :—

« فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ، ورباع ، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ... » .

ثم يقول فى آية أخرى :

« ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ، فلا تميلوا كل الميل ..!! »

اذن — ماذنب المبادىء الاسلامية ، وقد ضربت حول اباحة التعدد نطاقاً محكماً من العدل ؟ ، وجعلته ضرورة من الضرورات التى يقتضيها اصلاح المجتمع ، وبناء دعائمه ، ورفع الجور والضرر أن يتسرب الى البيوت !!

أليس تعدد الزوجات الذى يجر الى الشقاء محرماً قطعاً لأنه داع الى الجور ؟•

أليس وضع كلمة « العدل » ، والعدل كلمة رهيبة — هى سر سعادة الأفراد والجماعات ؟• — أليس ذكر العدل هنا — يصور لنا بشاعة الجور ، اذا انعكس الأمر ؟ — جور يبعثه الرجل المزواج ، ثم يورثه بعد ذلك بنيه وحفدته ، ويرسله معاول فى بناء مجتمعه ؟ •

أيها المستمع الكريم :—

لقد أراد المشرع الاسلامى ، أن ينبّه الى حقيقة لا مِراء فيها ، وهى : أنّ الأصل فى السعادة الزوجية ، والحياة الكاملة المنزلية أن يكون للرجل زوجة واحدة ..!! ولكن .. قد تعرض للأمم وللأفراد ، أحداث توجب استثناءً من هذا الأصل ، فقد تنتاب الأمم حروبٌ تجتاح رجالها !! أو ثوراتٌ وأوبئةٌ تبيد أكثر النوعين تعرضا لها ، وهم الذكور .. — هنا — تجىء الضرورة ، وهنا — محل الاستثناء ، فليس التعددُ فى ذاته أمراً مباحا ، وليس ارضاءُ الشهوات الجامحات مقصوداً للشريعة المطهَّرة — ولكن هى الضرورات الاجتماعية ، التى تعرِّض المجتمع للأخطار . ولقد صدمت تلك الضرورات — أخيراً — الباحثين من علماء الاجتماع ، ورأوا بأعينهم مايُستهدف له بعض المجتمعات فى أوربا ، من أخطار كثرة النساء ، واباحة الاختلاط وتضييق حدود الزواج !! رأوا ذلك رأى العين ، فكتبتْ احدى الكاتبات الاجتماعيات كلمات مؤثرةً ، نشير الى بعضها ، وليرجعْ اليها من شاء ، فى تاريخ الأستاذ الامام « محمد عبده » المعروف بالمنشآت .

قالت تلك الكاتبة الانجليزية :—

« لقد كثرت الشارداتُ من بناتنا ، وعمَّ البلاء ، وقلَّ الباحثون عن »
« أسباب ذلك !! واذْ كنتُ امرأةً ، فانى أنظر الى هاتيك البنات ، وقلبى »
« يتقطَّع شفقةً عليهن ، وحزنا لهن ، وماذا عسى يفيدهن حزنى وتوجعى !! »
« وان شاركنى فيه الناس جميعاً ؟ لا فائدة الا فى العمل على ما يمنع هذه »
« الحالة الرِّجْسَة . ولله در العالم الفاضل — توماس — فانه رأى الداء »
« ووصف الدواء وهو : الاباحة للرجل أن يتزوج أكثر من واحدة !! بذلك »
« يزول البلاء وتصبح بناتُنا ربات بيوتٍ !! وأمهات أولاد شرعيِّين !!.. »
« اننا نعانى تحريم زواج اثنين ، فقد ألْقَى ببناتنا شواردَ ، وقَذَف بهنَّ »
« الى التماس أعمال الرجال ، فكثر الاختلاط ، وتفاقم الشر » انتهى كلام السيدة الباحثة .

هكذا ، هكذا ، يرجع الباحثون الى تعرّف الحقائق الاجتماعية ، التى لم يُغْفِلها المشرّع الاسلامى ، من قبل أربعة عشر قرنا ...

* * *

أيها المستمع الكريم :—

ان زواج المسلمين ، قد أحيط بالمودة والرحمة ، أحيط بما يكفل سعادةً للأسرة ، ونظاما للبيت ، وقوةً للمجتمع ، ومعالجةً للأخطار الاجتماعية ، فى حدود القصد والاعتدال ...

* * *

أما زواج « نبى المسلمين » صلى الله عليه وسلم ، فزواجٌ اكتملتْ عنده الفضيلة كل الفضيلة ، وشاعت فيه الحكمة ، وقُصد فيه الى خير المجتمع ..

لقد صححت رواياتُ السيرة النبوية ، أنه « عليه السلام » بقى زُهاءَ خمسة وعشرين ربيعا ، من حياته الشريفة ، لاتمتد عينه الى مأثمة ، ولايُعرف عنه المامٌ بريبة ، ولا شغف بالنساء ، وذلك فى عهد الشباب الجامح ، وَسنّ الفتوّة النّامية — ورسول الله — قد اكتَمَلت رجولته ، واشتهرت وَسامته !! غير أنه رجلٌ ولا ككل الرجال !! وقد اصطفاه الله وطهره ، وأعدّ منه مادة لتاريخ الانسانية !! .

ولقد كان أعداؤه ، يَعُدون عليه الهِنات ، ويتَتَبَّعون سيرته فى الخلوات والجلوات ، فأتعبهم « عليه السلام » بنقاء سلوكه وعفته ، وقهرهم على أن يَشهدوا بأمانته وصيانته !! ، فليعرف المتحدثون عن أخلاقه — عليه السلام — أن تلك النفس المختارة ، لتُمثّل للناس صورَ الكمال الأعلى ، تلك النفسَ الطيبة الراضية المرضية ، التى شُغِلت بهداية الأمم ، واتصلت بالعالم العلوىّ ، وسَبَحتْ فى أفق الوحى — ليست هى النفسَ الممعنةَ فى الرغبات ، الذاهبةَ مع الميول !! وحاشا لمحمد — عليه السلام — أن يتنكّب فى زواجه سواء السبيل .

لقد تزوج « عليه السلام » بخديجة ، وهى امرأة ثيِّب ، فى حدود الأربعين ومحمد — عليه السلام — فى الخامسة والعشرين ، أو الثالثة والعشرين ، وعَمَّر هذا الزواج المبارك خمسةً وعشرين عاماً ، يُظلله الوئام والحب ، والوفاء والاخلاص لا تمتد عينه — عليه السلام — أنْ يُبَدِّل بها سواها ، أو يشركَ معها غيرها ، على كثرة ما كان فى العرب يومذاك — من تعدد الزوجات — والسرف فى الشهوات — وانَّ فى ذلك لاشارةً واشادةً « بالزوجة الواحدة » .

فلما ماتت — خديجة — بقى باراً بذكراها !! وفياً لصديقاتها !! ولما تزوّج بعدها — ولا بُدَّ له أن يتزوج — تزوج « بسودةَ بنت زَمْعَة » وهى أرملة رجل من المسلمين السابقين ، أسلمتْ مع زوجها ، ولَقِيَتْ من عنت الأعداء وقسوتهم ، ما جعلها تهاجر مع زوجها الى البلاد النائية !! الى الحبشة .

وبقيت بجوار زوجها ، حتى مات !! نازحا غريبا !! مهاجراً فى سبيل الله !! فكانت « سوْدَةُ » حريةً بالرعاية والعزاء بعد موت زوجها الكريم .

لم تُعرف « سَوْدَةُ » يومئذ بجمال ، ولا بمال ، بحيث يستبق الناس الى زواجها ! ولكنها عُرفت بالخلق والعقيدة والمجالدة !! فرفعها ذلك الى شرف أمومة المؤمنين !! .

ثم تزوج عليه السلام من — عائشة — و — حَفْصة — والأولى بنت وزيره ، ونصيره وصديقه ، الذى وضع حياته ، وماله ، وجاهه ، ومناعم حياته فى كِفة وصديقه — محمداً — فى كِفة أخرى ، فرجح محمدٌ على ذلك كله !! .

والثانية ، بنتُ عُمَرَ الفاروق ، الذى أعز الله به الاسلام . وقد شاءت الحكمة النبوية ، والوفاء المحمدىّ ، أن تتوثق الصلات بين البيوت الثلاثة ، بيت محمد عليه السلام ، وبيتى وزيريه — أبى بكر ، وعمر — .

ولا يَهْرِفنَّ أفَّاكٌ بأن الزواج ، كان لغير هذا المعنى السامى ، فلقد تروى السيرُ الينا ، أنه — عليه السلام — خطب عائشة ، وأبقاها سنتيْن ، لا يبنى بها .

أما الرغبة فى — حفصة — فلم تكن لغير حق أبيها عُمَر ، واستمعوا — لعمر — يحدثنا عن ذلك قال : « والله لقد كنا فى الجاهلية ما نَعُد للنساء أمراً حتى أنزل الله فيهن ما أنزل ، وقَسَم لهن ما قسم !! قال : فبينما أنا فى أمر ، اذْ قالت لى امرأتى لو وضعتَ كذا وكذا !! فقلتُ لها ومالك أنتِ ولما هاهنا ؟ . وما تكلفك أمراً لا أريده ؟ فقالت : عجباً لك يابن الخطاب ، ماتريد أن تُراجَعَ أنت ؟ وان ابنتك لتراجعُ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حتى يَظلَّ يومَه غضبانَ !! قال عُمر : فَدَخَلْتُ على حفصة ، فقلت لها : يابنيَّة ، انك لتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى يظَلَّ يومَه غضبان ؟ فقالت حفصة : وان أنا راجعتُه ؟؟ فقلتُ : انى أحذِّر عقوبة الله !! وغضبَ رسوله يابنيّة — والله — لقد علمتُ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يُحبك — ولولا أنا — لطلقك !! » .

* * *

أيها المستمع الكريم :—

لعلَّ تلك القصة ترينا أن الحياة الزوجية النبوية لم يكن يسمو اليها غيرُ أشرفِ المقاصد ، وأطهرِ المرامى !! وكذلك كان لكل زوجة من أمهات المؤمنين ، سببٌ صحيح يعلو بها الى البيت النبوى العظيم .. الى أمومة المؤمنين !! .

* * *

أيها المستمع الكريم :—

هناك حقيقة تاريخية معروفة فى ترتيب نزول الآيات ، فقد كان للمسلمين جميعا ، أو لنبيهم — أن يتزوجوا كما شاءوا ، لأن العهد عهدُ بناء — لاعهد معالجة للعادات الزوجية ، المتأصلة فى النفوس !! فلما كانت السنةُ الثانية من الهجرة ، وقد اكتَمَل شأن الدين ، وقوِيت أركان المجتمع الاسلامىّ ،

ونما عـديده — عند ذاك — تحدد عـددُ الزوجات ، ونزلت آياته فكان تشريعاً للمستقبل ...

اذنْ — فرسـول الله صلى الله عليه وسـلم ، كان كباقى المسلمين ، لم يخصَّ نفسه بما حرَّمه على غيره ، كما أذاع تلك الفِرْيةَ المفترون . بل الآيات قد أحاطت زوجاته وزواجه وما حُلِّلَ له ، وما حُرِّم عليه — أحاطت كل ذلك بقيود لعلَّها أضيق مما أتيح لكل مسلم .. !! .

* * *

أيها المستمع الكريم :

ليس نظامُ الزواج عند المسلمين ، الا نظام البناء للأسرة ، والصلاحَ للمجتمع ، وليس زواجُ النبى — صـلى الله عليه وسلم — ، الا زواجَ الحكمة العالية .. والمقاصد السامية !! .

* * *

انَّ رسول الله صـلى الله عليه وسلم انسانٌ كالأناسىّ !! يحبُّ أن يُعْقِب ، وأن ينسل !! وقد فَقَدَ الذكران من أولاده ! أولا !! أفلا يخطر له حب النسل كأى انسان ؟؟ .

ثم هو مأمور بتبليغ الرسالة الى الجنسين كافة ، من اناث ، وذكور !! فكيف تنتقل الشريعة الى نصف الأمة من الاناث ، الا على لسان زوجاته ، أمهات المؤمنين ؟؟ .

وسنذكر بعدُ — الحِكَم فى زوجاته الباقيات وصدق الله العظيم :

« وَقُلْ جاءَ الحقُّ وَزَهَقَ الباطلُ انَّ الباطلَ كانَ زهوقاً » .

المحاضرة التاسعة عشرة :

عود إلى زواج النبي ﷺ

زواجه من زينب وأم سلمة وصفية أمهات المؤمنين

التاريخ الصادق فى زواجه بأمهات المؤمنين ـ لكل زيجة أسباب وحكم ـ انهيار الروايات الآثمة ـ جهل وتضليل ـ فعله « عليه السلام » تشريع لأمته ـ زينب أم المؤمنين كانت ربيبة لرسول الله ـ قرابتها منه صلى الله عليه وسلم ـ نشأتها فى بيت النبوة ـ رغبته عنها وهى بكر ـ اختياره لزيد زوجا لها ـ زيد ربيبه « عليه السلام »وعتيقه ـ زيد متبنى له « عليه السلام » زيد يسمى زيد بن محمد ـ فى زواج زيد بزينب تشريع المساواة ـ انهاء للعصبية والمفاخرة بالانساب ـ لم يكتب التوفيق لهذا الزواج ـ نفرة بين الزوجين ـ شقاق واختلاف ـ نهيه « عليه السلام » عن فصم عروة الزوجية ـ أمر النبى « عليه السلام » لزيد أن يمسك عليه زوجه وأن يتقى الله ـ طلاق زينب من زيد ـ تحرجه « عليه السلام » من التزوج بزينب بعد طلاقها ـ تردده فى الاقدام على هذا الأمر ـ ابطال التبنى وآثاره الجاهلية ـ تمييز البنوة الصحيحة من بنوة المتبنى ـ الأدعياء غير الأبناء ـ حلول الوقت الذى تزوج فيه « عليه السلام » من زينب ـ اطاعة أمر الله فى ذلك ـ فعله « عليه السلام » تشريع لأمته .

زواجه ـ عليه السلام ـ من أم سلمة ـ تطييب خاطرها بعد مصابها ـ كيف مات عنها زوجها ـ زوجها مهاجر من السابقين الى الاسلام ـ أم سلمة المؤمنة الحزينة ـ كفالة أيتامها ـ تسابق المسلمين الى زواجها رحمة بأطفالها ـ حزم أم سلمة وعقلها ـ رفضها التزوج من أبى بكر ومن عمر ـ حوار بينها وبين أم المؤمنين عائشة .

زواجه ، عليه السلام ، من صفية بنت حيى ـ وقعة خيبر ـ موت زوجها الأول (كنانة بن الربيع) ـ صفية تقع فى السبى ـ حديثها مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قبل الزواج ـ أمره لها أن تختار بين الاسلام وبين اليهودية ـ اختيارها الاسلام ـ عطفه عليها وبره بها ـ زواج صفية من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أذهب الأحقاد . وأزال العداء . وأطلق الأسارى أحرارا ـ زواج كله اليمن والبركة والخير .

★ ★ ★

أيها المستمع الكريم :—

نعود الآن الى الحديث فى زواج « سيدنا محمد » صلى الله عليه وسلم — وتعرّف التاريخ الصحيح لكل زوجية عقدها والبحث وراء الحكمة التى بعثت على تكرار زواجه — فلقد صار من الحقائق الخالدة أن كل ماعرض له — عليه السلام — من شئون الحياة العامة والخاصة ، ليس الا صادراً عن رُشد هو أبلغ الرشد الانسانىّ ، وكمال هو منتهى الكمال البشرى وحكمة هى الحكمة البالغة التى تنزّل بها الروح الأمين على قلبه ليكون من المرسلين ...

ولقد ذكرنا كيفَ طَهُرتْ سيرته فى وقدة الشباب وجموح الصبا !! حتى لقد ذلّت أمام طهارته وأمانته خصومةُ أعدائه أجمعين ، ! وسموه طوعاً أو كرهاً السيّد الأمين !! وعرفنا كيف بنى « بسَوْدَة بنت زمعة » التى مات عنها زوجها المسلم المهاجر !! فكان الزواج النبوىّ جابراً لخاطرها الكسير ، وعرفنا كيف بنى « بعائشة » و « بحفصة » بنتى وزيريه السابقيْن الأوليّن !! .

ونريد الآن أن نبين كيف تزوج — عليه السلام — من « زينب » بنت أميمة بنت عبد المطلب ، فلقة صرّح بالاثم خصوم الاسلام وأعداء الحق ، ورفعوا عقائرهم بزواج «زينب» على وجه التعيين !! وراح خيالهم الخاطىء ، وتصويرهم الهابط — بل راحت جرأتهم على الحق وعلى التاريخ — راح كل ذلك يوحى اليهم قصص عشق وغرام !! — وانها — فى الحق لمقالات آفكات" — بل هى لهو الحديث .!! بل عبث الأهواء تتسامى عنه سيرة محمد — عليه السلام — النقية الكاملة !! .

★ ★ ★

وليس المقام مقام عرض لسخف تلك الأقاصيص — بل نحن نقصر القول على سرد التاريخ الصادق ، وسوق الحق الصُّراح ، فى زواج النبى صلى

الله عليه وسلم « زينب » فلقد جعله — عليه السلام — للناس شرعةً ومنهاجاً ، يعملون به ، ويقتفون اثره ...

كانت « زينب » كما أسلفنا من ذوى الرحم — بل هى بنتُ عمته صلى الله عليه وسلم ، نُشِّئت — اذن — فى البيت النبوىّ ، ودرجت وشبّت فى الرعاية المحمدية . فهى ليست بعيدةً ، ولا غائبة عن عينه — صلى الله عليه وسلم — وهى معروفة الصفات ، منكشفة النقائب ، مخلوطة بالبيت المحمدىّ — فلو رغب فى زواجها عليه السلام — أولَ الأمر لما كان فى الأمر عجب ولا غرابة !! لكنه مع هذا كله — خطبها وهى بكر لعبده العتيق — زيد بن حارثة — وكان محبوباً منه ، متبنىّ له — يدعوه الناس : زيد بن محمد . فلما علم « عبد الله » أخو « زينب » بتلك الخِطبة ، تعاظمه الأمر ، وعزّت عليه قرشيتُه وهاشميتُه ، وكرِه أن تصبح أخته تحت عبد رقيق أشْتُرِىَ ثم أُعتق !! مهما يكن من أمره ، ولو صار متبنّىً لمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

رأى « عبد الله » أن ذلك الأمر عارٌ عليه وعلى أخته ، ورآه خروجا على تقاليد البيوت العريقة ، وما زال ينفر وتنفر أخته أن ينزلا بتلك المصاهرة الى مستوى العتقاء ... !! .

لكنّ محمداً — عليه السلام — جاء ليَشْرَعَ للناس المساواة ، ثم يطبق الشريعة على أهله أولَ الأمر — جاء ليضرب العصبيّة والفوارق بين الطبقات ضربات قاضيات !! فما زال يطلب خطبة « زينب » « لزيد » ولاتزال « زينب » ولا يزال أخو زينب يتأبّيان .! حتى نزل الوحى بالأمر الحاسم : « وما كان لمؤمن ولا لمؤمنة اذا قضى الله ورسولُه أمراً أن يكونَ لَهُمُ الخِيرَةُ من أمْرِهم ومن يعص الله ورسولَه ، فقدْ ضلّ ضلالا مبينا » هنا خضعت « زينب » وأطاعت ورضى أخوها بما اختاره الله ، وتم هذا الزواج ..! غير أن طبائع الزوجين لم تتحول بعدَ الزواج .. فما زالت « زينب » تعاودها النَّعَرَةُ النسبيّة ، وما زالت ترى نفسها قرشية —

هاشمية ، وما زالت تفاخر زوجها فتفخره بحريتها الأصيلة وأتعب الأمر زيداً . وجرح نفسه ، التى عزت بعزة الاسلام ، وشكا أمره لرسول الله صلى الله عليه وسلم . واستجار به مستأذناً راغباً فى أن يفارق زينب لكنه عليه السلام — كان يهدىء من نفس « زيد » ويقول له : « أمسك عليك زوجك واتق الله .. » فصبر زيد حتى اذا ما نفد صبره طلق « زينب » .

* * *

هنا شاءت الحكمة الالهية أن تقضى على عادة كانت تخضع لها العرب خضوعاً ، وتتخذها شرعة وقانونا — تلك العادة — هى الصاق الأدعياء بالبيوت وخلطهم بالأسر .. واعطاؤهم كل حقوق الأبناء ، فكانوا يرثونهم ويورثونهم ويجعلون لهم من الحرمة مالحرمة النسب ...

فأراد المشرع الاسلامى الحكيم أن يحدد علاقة التبنى ، وأن يميز البنوة الصحيحة من البنوة المدعاة ، وأن يجعل علاقة المتبنى علاقة أخوة ومساواة فى ظلال النظام الاسلامى الجديد ... قال تعالى :

« وما جعل أدعياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل » .

بتلك الآيات تحددت الأمور ، ووضحت الأحكام ، فاذا ما طلق ابن التبنى زوجته ، فما على أبيه الذى تبناه من حرج اذا هو بنى بتلك الزوجة !! لأنها أجنبية منه . حلال له — ذلك هو الحكم الجديد . وهو يعارض العادة الجاهلية . بنت الأجيال . التى لاتفرق بين الابن النسبى وابن التبنى !! بل تجعلهما فى الحكم سواء .. فالمسألة اذن بعد صدور حكم الله تحتاج الى هدم جرىء للماضى ولآثار الماضى .. وجوباً لانفاذ أمر الله .. واعلاناً لحكمه ..! .

ورسول الله قدوة للناس ، وامام لهم ، فمن شأنه ، ومن واجبه — وقد طلق « زيد » زوجته ، و « زيد » عرفه الناس ودعوه زيد بن محمد — من شأنه

عليه السلام . أن يبيّن حكم الله للنـاس بصورة عملية ، وأن يتزوج من « زينب » بعد زواجها الأول. كلّ هذا متسق ومستقيم . غير أنه عليه السلام كان يدبر الأمر فى نفسه ، ويعرضه على خاطره ، ويقرّر ما عسى أن يقول الناس ؟؟ انهم سيقولون ان « محمداً » اقترن بمطلقة ابنه « زيد » وما هكذا تعارف العرب ...

كان هذا التقدير يجول بالخاطر النبوىّ الشريف ، فنزل العتاب بقوله تعـالى : « وتُخفى فى نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه .. » هذا التردّد منه عليه السلام لايمكن أن يَبقى ، ومحالٌ أن يبقى ، فلا بد أن يشرع محمد عليه السلام تشريعاً عمليا ، فى شجاعة وحزم .. لهذا وحده تزوّج عليه السلام « بزينب » وأبطل بفعله ما كوّنته القرون من العادات ، وما جعلته الجهالات شريعات ...

يقول تعالى : « فلما قضَى زيدٌ منها وطراً زوّجناكها ، لكى لا يكونَ على المؤمنين حرجٌ فى أزواج أدعيائهم اذا قضوْا منهنّ وَطَراً ، وكان أمر الله مفعولا .. » .

هكذا تبين الآية الحكمة فى هذا الزواج ، وتحددها تحديداً وتكشف عنها كشفاً !! وتلك قصة زواج النبى صلى الله عليه وسلم « زينب » وسند القصة كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فقلْ لمن يضربون فى بيداء الخيال الخاطىء من أعداء محمد . يا أيها النـاس (انما بغيُكم على أنفسكم) .

* * *

أيها المستمع الكريم :—

تزوج صلى الله عليه وسلم أيضا « أم سلمة » — هنداً بنت أبى أمية — وكانت من قبـل ذلك ، زوجة لابن عمها « أبى سلمة » وهـو من السابقين الأولين — أسـلم فى أول الناس ، ثم أوذى !؟ ثم هاجر الى الحبشة فرارا

بدينه — وقد صحبته زوجته أمُّ سلمة — فلما كانت الهجرة الكبرى الى المدينة ، هاجر — ومعه أم سلمة أيضا — فهى قد شرفت بالهجرتين !! .

بعد ذلك مات عنها — أبو سلمة — سنة ثلاث من الهجرة ، وقد ترك فى كفالتها أبناءها الأيتام الأربعة !! .

وكان — أبو سلمة — رجلا باراً تقياً ، وفياً يعنيه أمر — أم سلمة — بعده ، ويرجو لها الخير أن مات وتركها . فكان من دعائه لهـا :— اللهم ارزق — أم سلمة — بعدى رجلا خيراً منى ، لا يحزنها ولا يؤذيها ! وكان أبو سلمة يحدثها حديثاً سمعه من رسول الله — صلى الله عليـه وسلم — فيقول لها :— سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :— مامن عبد يصاب بمصيبة فيفزع الى ما أمره الله به من قول (انا لله وانا اليه راجعون) . ثم يقول : اللهم أجرنى فى مصيبتى ، وعوضنى خيراً منها ، الا آجره الله فى مصيبته ! وكان قميناً أن يعوضـه الله خـيراً منها ! قالت — أم سلمة — فلما مات — أبو سلمة — ذكرت ذلك الذى حدثنى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلتُه ! ثم قلتُ : أنَّى أُعاض خيراً من —أبى سليمة— ؟؟.

★ ★ ★

أيها المستمع الكريم :—

تلك هى — أم سلمة — ؟ امرأة مؤمنة ، سابقة مهاجرة ، وهى أم يتامى ! وهى حزينة بمصابها حزنا جعلها تشك أن فى الناس مَن يشابه — أبا سلمة — أو تجتمع فيه خـلالُ الخير كما اجتمعت فى — أبى سلمة — وأبو سلمة له على المسلمين حقوق ، ولأبنائه على المجتمع حقوق . فمن يكفل هؤلاء ؟ ومن يرعى ذكرى — أبى سلمة — . لامراء أن كل هذه الأسباب قد اجتمعت فجعلت كبار المسلمين يعرضون لزواج — أمِّ سلمة — زَواجَ وفاء وبر ليس غير .

تقدم اليها — أبو بكر — فأبت . وخطبها — عمر — فردته .

وعرض لها رسول الله صلى الله عليه وسلم فخطبها ، وبيْنها وبينه حجاب فقالت :— أيْ رسول الله • وما تريد الىّ ؟؟ ما أقول هذا الا رغبةً لك عن نفسى •• انى امرأة قد أدبر منى سنى •• وانى أم أيتام •• وانى لشديدة الغيرة ، فقال لها — عليه السلام — أمّا ماذكرت من سنّ ، فما زلت أكبر منك •• وأمّا ماذكرتِ من الأيتام ، فعلى الله وعلى رسوله •• فرضيتْ ، وتزوجها — صلى الله عليه وسلم — كفالةً لهؤلاء الأيتام • وتنفيساً عن تلك المرأة فيما فُجعت به من المصيبة الكبرى •

★ ★ ★

وتحضرنا هنا مكرمة من مكارم — أم سلمة — تدل على رجاحة العقل ، وقوة الرأى • لمّا خرجت — عائشة — فى الجيش الذى يقاتل — علياً — ويأخذ بثأر — عثمان — عظم على فريق كبير من المسلمين أن تتعرض زوجاته — صلى الله عليه وسلم — من بعده لتلك الفتن العمياء الصمّاء •• وكان من هذا الفريق المحايد — أمّ سلمة — فكتبت الى عائشة : ياعائشة •• ما كنتِ قائلة لرسول الله لو لقيك ببعض هذه الفلوات ؟ ناصبةً قَعوداً — راكبةً جملا — من منهل الى منْهَل • وغداً تَرِدين على رسول الله صلى الله عليه وسلم — هاتكةً حجابا ضربه عليك ؟؟ فأجابتها عائشة :— من عائشة أمّ المؤمنين الى — أم سلمة :— سلام عليك • فانى أحمد الله اليك الذى لااله الاهو ••• أمابعدُ • فما أقبلنى لوعظكِ ، وأعرَفنى لحق نصيحتك • وانْ أمضِ ، فالى ما لا غنى بى عن الازدياد منه •• والسلام •••

★ ★ ★

هذا حوارٌ حرىٌ بأن نتروّى فيه ، وأن نشيد بنساء النبى — صلى الله عليه وسلم — فقد اجتمع عند هذا الحوار حزمٌ ومضاءٌ •• ونصاعة رأى ، وقوة بيان •

ثم نعود الى زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم فنقول :

انه تزوج أيضا (صفية بنت حُيى) بن أخطب سيد بنى النضر .. وكانت (صفيّة) تنزع بنسبها الى هرون أخى موسى .. وكانت قبل زواجها برسول الله زوجةً لكنانة (بن الربيع) فقتل عنها يوم خيبر ...

وقد كانت واقعة خيبر مُبدّدةً لقوة بنى النضر ، قاضية على آمالهم ، فلما تم الغزو ، جىء لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالغنائم والسبايا . وبينها « صفية » فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم — لم يزل أبوكِ من أشدّ النـاس عداوةً لى ، حتى قتله الله فقالت : يارسول الله . ان الله يقول فى كتابه : «ولا تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أخرى» . فعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم من حسن جوابها .. ونور بصيرتها .. وتكشّفت له نقائب الخير التى انطوت عليها نفسها . وأشعر قلبه الشريف الحَدَب والعطف على منكوبة اسرة كريمة المحتد فقال لها : — اختارى ، فان اخترت الاسلام أمسكتك زوجـة لى ، وان اخترت اليهودية فعسى أن أعتقك فتلحقى بقومك .. فقالت : يارسول الله . لقد هويت الاسلام ، وصدّقت بك . قبل أن تدعوَنى ومالى فى اليهودية أرب . ومالى فيها والدٌ ولا أخ .. وخيَّرتنى بين الكفر والاسلام . فالله ورسوله أحب الىّ من العتق . وأن أرْجعَ الى قومى ..

كان هذا الحوار قوىّ الدلالة على صدق فراسته — صلى الله عليه وسلم فى — صفيّة — من عقل سـليم ، وفطرة نقية . وان الأمْر يحز فى نفسها حزاً . وأنها تعتز بشرف الاتصـال بالبيت النبـوى . فلم يلبث — عليه السلام — . أن قال للحاضرين : (قوموا . فان صفية أمّكم ..) وكان هذا مؤذناً بالزواج الأطهر . الذى أذهب الأحقاد وداوى الجراح .. وكانت فيه الحكمة كل الحكمة .. ولقـد بادر كل صحابىّ الى عتق أرقائه من أقارب — صفية — اذْ كيف يُسترق أصهار الرسول ؟ .

* * *

أيها المستمع الكريم : —

تلك أطراف من زواج سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانها لمفاخر منشَّرة على الأجيال . فيها الطُّهْر ، وفيهـا الخيرُ وفيها الاصلاح ، وفيها رعاية الألفة للمجتمع .

★ ★ ★

فلتبقَ سيرتُك يارسـول الله تعطِّر الأرجاء . — والله يعصمك من الناس — وما هذه الأراجيف الا حبائل الشياطين ، وان فى الأنس لشياطين .. وصدق الله العظيم :

« مَن كان يَظُنُّ أن لَنْ ينصُرَه الله فى الدنيـا والآخرة ، فَلْيَمْدُدْ بسبب إلى السماء . . . ثم ليَقطَعْ . . . فلينظرْ . . . هل يذهبن كَيدُه ما يغيظ ؟ » .

المحاضرة العشرون :

أحسن القصص

القصة القرآنية

سيدنا ابراهيم الخليل

أثر القرآن فى الاصلاح الاجتماعى ـ ليس للقرآن شبيه فى كتب التاريخ أصدق الوقائع ما يذكرها القرآن ـ قصص القرآن كلها عبر ورشد وصلاح ـ القصة القرآنية تبين سنن الوجود ، وتظهر قواعد العمران ـ القصة القرآنية ليست قصة تسلية ولهو ـ قصة ابراهيم «خليل الله» هى اخلاص للعقيدة ـ وهى فناء فى سبيل الفكرة ـ وهى حوار منطقى رفيع ـ القرآن الكريم يذكر (ابراهيم)تسعاً وستين مرة فى ثلاث وستين آية ـ جدال ابراهيم لقومه ـ الحق والباطل فى نضال ـ الباطل المدحور ـ وسائله وأساليبه الهابطة ـ قوة الدليل فى أسلوب ابراهيم ـ فى حجج ابراهيم لذة عقلية ـ صفات الاله الحق ـ شدة القرب من الله تقوى الخوف والخشية ـ رقة القلوب عند الأبرار ـ حب الأبرار للخير حتى لأعدائهم ـ طمأنينة القلب ، واقتناع العقل ـ طاعة (ابراهيم) لربه تعلو على وشائج القرابة ـ محنة شديدة لابراهيم ـ أمره بذبح ولده ـ انقاذه لأمر الله ـ شروعه فى الذبح ـ طاعة الأبناء للآباء ـ فداء الذبيح ـ قصة ابراهيم تهون آلام الحياة ـ وتعلم الثقة بالله ـ وفيها عظة وبطولة ـ ابراهيم أمة وحده !!

★ ★ ★

أيها المستمعون الكرام : —

أنزل الله على رسوله محمد — صلى الله عليه وسلم قرآنا عربياً ، يهدى الى الرشد ...

واذا كانت نظريات الفلسفة ، وقواعد الأخلاق ، وتجارب العلوم ، من

طويل الأزمان والآباد ، لم تستطع كلها أن تنشىء جيلا من الناس ، ولا فئة من الجماعة ، تقوم على اصلاح الانسانية ، اصلاحا عادلاً طاهراً ، نقياً عفيفاً — فقد استطاع القرآن أن ينهض — وحده — بتلك المعجزة الاجتماعية الكبرى ...

★ ★ ★

ومن الوسائل التى عُنِىَ بها القرآن ، فى هذا الانقلاب الاجتماعىّ العظيم سَوْقُ القَصص فى قصار السُّور وطوالها ، وصوغُها فى أسلوب علوىّ متميزّ ، يشيع فيه نور الهداية ، ويشعُّ منه ضياء العبرة ...

ليس القَصَصُ فى القرآن الكريم قَصصاً للتفكُّه ، ولا بياناً للمادة التاريخية التى عمادها الأرقام والأشخاص ، والأمكنة ، ممَّا لا رُوحَ فيه ، ولا عبرة ، ولا عظة ، ولا رشد ، ولا صلاح ...

ان القرآن لأسمى وأقدسُ من أن يحاول انسىٌّ أو جنىّ ، أن يجعل له شبيهاً فى كتب التاريخ ، أو مصطلحات الفنون فيجىء بأسفار الملل والعهود القديمة ، ويستخرج من أحداثها وقضاياها ما يوافق ، وما يخالف قَصَص الكتاب المجيد !!! ان مقارنة ما فى القرآن بما تزعمه كتب التاريخ — انه لنزق وطيش وابعاد عن الرشد ...

وما تاريخ الأقدمين من قبل القرآن — الا فتراتٌ مُشْتَبهة الأعلام حالكة الظلام !!! لكن القَصَص القرآنىّ ، فى هذا الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه — مسوقٌ للعظة والاعتبار — لا للسمر والسُّمار ، ومسوقٌ للحكمة والانتفاع — لا لتحديد المواقع والبقاع !! وصدق الله العظيم :—

« لَقَدْ كان فى قَصَصِهِمْ عبرةٌ لأولى الألباب » .

★ ★ ★

لقد سيقت القصة فى القرآن ، لبيان سنن الله ، ولتوضيح قواعد الاجتماع :—

« قد خَلَتْ من قَبْلِكم سُنَنٌ ، فسِيروا فى الأرضِ ، فانظروا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ المكذبين !؟ .. » .

لقد جرى سَنَن الكتاب الكريم ، أن يكتفىَ من القصة بموضوع العبرة ومحلّ العظة ، ولا يَعنيه أن يُطْنبَ فى أجزائها ، ولا أن يُسْرِف فى أحداثها ، ولا أن يَلَوّن مفرداتها ، فَرُبَّما كان فى ذلك صرفٌ للفكر عن المغزى واقصاءٌ للذهن عن الحكمة ...

من أجل هذا — أُحكمت القصةُ القرآنية ، على غير ما يعرفه المؤرخون ، وعلى غير ما يستَحْليه القُصَّاص !! ويأنس اليه الحكاة ...

القصة القرآنية استبطانٌ للرشد ، وابرازٌ للعبرة ، واستثارة للحكمة ..

وبعدُ — فسنأتى على بعض قِصَص القرآن ، فى فترات من تلك الأحاديث وسنُعنى بما عُنِىَ به كتاب الله اذْ يسوق القصة .. ، جاعلين الاهتداء بما يوحى اليه القصَصُ الالهى نُصبَ أعيُنِنا ...

وسنبدأ بقصة أبينا « ابراهيم » كما وردت فى سور الكتاب الحكيم .. وانها لقصة مليئةٌ بالبطولة والعظمة ، والرُّشْد والهدى — مليئةٌ باليقين وبالاخلاص للعقيدة ، مليئة بالحوار المنطقى ، فى النسق العالى ...

★ ★ ★

ذُكر « ابراهيم » خليلُ الله فى القرآن تسعاً وستين مرة . فى ثلاث وستين آية وذلك شرف فى سيرته ، وأىُّ شرف ! .

لقد رشَّده الله وأوضح له معالم الحق وآتاه الحجة القاطعة اذا ناقش ، والبرهان الساطع اذا حاور !! .

رأى « ابراهيم » قومه يعبدون الأوثان ، ويصطنعون بأيديهم آلهتهم ، فحاجَّهم ، وناقشهم ، مناقشةً واضحة ، من غير لجَاجة ولا مراء .

ناقشهم بلسان القرآن ، مناقشة الفطرة المستقيمة الخيِّرة ، فقال لهم :

« ماهذِهِ التَّماثِيلُ الَّتِى أنتُمْ لها عاكِفُونَ ؟.

فلم يجدوا غير أن يتعللوا بأباطيل العلل !!! :

« قالوا وَجَدْنَا آباءَنَا لهَا عابِدِينَ »

فلم ير « ابراهيم » هذا الجواب الا احتقاراً للعقل الانسانى ، واطفاءً لنور الفكر ، وذهاباً فى التقليد الى افناء الشخصية .. فقال لهم :

« لقد كُنتم أنتم وآباؤُكمْ فى ضَلالٍ مُبين . قالوا أَجِئْتنا بالحق أمْ أنتَ من اللاّعِبينَ ؟ قال بل ربُّكم ربُّ السَّموات والأرضِ الذى فَطَرَهُنَّ وأنَا على ذلِكم من الشاهدين » .

* * *

أيها المستمع الكريم : —

ارتقى « ابراهيم » من هذا البيان ، الى برهان عملى ، قام به فى جرأة ومَضاء ، لِيُبَيِّنَ أنَّ شأنَ الاله ، أن يكون نافعاً ضاراً فاذا لم يدفع عن نفسه الضُّر والأذى ، فأجدرُ ألا يَدْفَعَ عن غيره ذلك !! وألاَّ يستحق عبادة ولا تقديساً !!! .

وشاء أن يبالغ فى تسخيف آرائهم ، وامتهان آلهتهم ، فقام اليها جميعاً وأتى عليها تحطيماً ، حتى صارت قِطعاً قطعا ، وترك صنما كبيراً لم يمسَّه !!.

فلما شاهدوا ذلك جمعوا الناس ليحاكموا ابراهيم !! .

لم يجحدْ « ابراهيم » مافعل ، وانما سَخِر منهم ، وهزأ بهم فقال لهم : سلوا هـذا الصنم الكبير !! اذا كان ينطق ؟ فهو يحدثكم عما أصابها ؟؟ فأُسقِطَ فى أيديهم ، ولزمتهم الحجة !! غير أنهم لجُّوا فى عنادهم ...

انك لترى ذلك الحوار ، القوى بحجته ، البليغَ ببرهانه ، قد ذكره القرآن فى سورة الأنبياء ، حكاية لقول « ابراهيم » فقال : —

وتَاللهِ لأكيدنَّ أصنامَكُم ، بعـد أن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ، فَجَعلهُم جُـذاذاً (١)

---

(١) قطعا مكسرة .

إلّا كبيراً لهُم ، لَعلهم إليه يَرجِعونَ !! قالوا مَن فعَلَ هذا بآلِهتِنا إنه لَمِنَ الظالمين ؟!! قالوا سَمعنا فتًى يَذْكُرهُم يُقَال لهُ إبراهيم ! ! قالوا فائتُوا به على أعْيُنِ النـاس لَعلَّهم يَشْهدونَ . قالوا : أأنت فَعلتَ هذا بآلِهتنا يا إبراهيمُ ؟ قال بَلْ فَعلهُ كَبيرُهُم هذا ، فاسألوهم إن كانوا يَنطِقُون ؟ ! فَرجَعوا إلى أنفسِهم فقـالوا إنَّـكم أنتم الظـالمون ، ثم نُـكِسوا على رُءوسِهم ، لقد عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنطِقونَ » .

قال إبراهيم : « أفتَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مالا يَنْفعُـكم شـيئاً ولا يضُرُّكم ؟ أُفٍّ لَـكم ولمـا تعبدُون مِن دُون الله أفلا تَعقلون ؟ ! » .

لم يَرُق للجاحدين أن ينزلوا على حكم الحجة والبرهان، بعد أن أفحمهم «ابراهيم» فَعَمدوا الى التخلّص منه ، وأرادوا تحريق جسمه فى النيران !!.

وكذلك دأبُ الباطل ، فى جميع الأزمان . يَفرُّ من ميدان الاقتناع عاجزاً مدحوراً ، ثم يعمد الى الكيد والخيانة والعدوان !! .

لكنَّ العقيدةَ المكينة قد استولت على مشاعر « ابراهيم » وانبَثَّت فى وُجدانه ، فلم يبالِ بنيرانهم ، ولا بعذابهم !! .

لقد كانت النار برداً وسلاما عليه ، وكان مضرِبَ الأمثال فى الثبات ، والصبر ، والاستبسال ...

« قالوا حَرِّقوهُ وَانصرُوا آلِهتَكم إن كنتم فاعِلينَ ؟! قُلنا يا نارُ كُونى برداً وسَلاماً على إبراهيم !! » .

* * *

أيها المستمع الكريم : —

لم يسكن جهاد « ابراهيم » فى ايضاح الحق ، وتزييف الباطل ، فَعَمد الى ابتكار أسلوب فى الاقناع المُلْزِم ، متدرجا من منزلة الى منزلة ، عسى أن ينقذَ شُعاع من الخير الى العقول الضالة ، والفطَرِ المريضة .

عمد « ابراهيم » الى كوكب من الكواكب ، وقد جنَّ عليه الليل ...

نظر الى الكوكب !! فقال : هذا رَبِّى . لكنَّ النجم قد تحوَّل ، ثم غاب ، والاله لا يصحُّ فى العقول ، الا أن يكون دائما باقيا ، لا يزول ولا يتحوّل ...

ثم نظر بعد ذلك الى القمر ، وهو أكبرُ حجما ، وأسطعُ نوراً ، فقال : هذا ربّى ! لكنه ما لبث أن انحدر ، وأفَل . وما هكذا يكون الاله !!! .

« وابراهيم » يشعر فى أغوار نفسه ، بأن الأمر جليل الخطر ، عظيمُ الأثر وأنه ان لم يكن الهدى — هدى الله — فقد باء الانسان بالضلال والخسران .

فلما رأى الشمس متألقةً ، ترسل أشعتها ، وتبعث حرارتها ، قال : — هذا ربّى هذا أكبر من الكواكب والأقمار !! لكن الشمس قد انحدرت آخر النهار ، وأخذت تهبط وراءَ الأفق حتى أفَلَتْ ، ووضح أن كل ما فى الكون يتغير ، ويزول ، ويمضى ...

فلا مناص من أن الكل فى قبضة اله لا يزول ، يغيِّرها ويحركها وهو باق أبدَ الآباد ، ودهر الأدهار ، وأن مظاهرَ الوجود أدلةُ ربوبيته ، وروائع قدرته .

« وكذلك نرى إبراهيمَ مَلَكُوتَ السموات والأرض وليكونَ من الموقِنين . فلمَّا جَنَّ عليه الليلُ رأى كوكباً ، قال هذا ربِّى ... فلما أَفَلَ قال لا أُحِب الآفلين . فلما رَأَى القمرَ بازغاً ، قال هـذا ربِّى . . فلما أفَل قال لَئن لم يهـدنى ربى لأكونَنَّ من القوم الضالِّين .. فلما رأى الشمس بازغةً قال هذا ربى ، هذا أكبرُ ، فلما أفَلت قال يا قومِ إنى برىءٌ ممَّا تُشركونَ » .

* * *

أيها المستمع الكريم : —

الحجج والبراهين فى نقاش « ابراهيم » حججٌ فيها لذة عقلية ، وفيها أسلوب أقوى ما تكون الأساليب — اقناعا وبيانا !! فلقد خوّفه قومه من سطوة آلهتهم التى يُسَفِّهها ، ويَتَهزَّأ بها ، فصاح فيهم : أأخاف مالايسمعُ ، ولا يُبصر ، ولايضرُّ ولاينفع !؟ ولاتخافون أنتم سطوةَ « الله »

القائم على كل نفس ..!! فأيُّنا أحق بأن يخاف ويخشى ..؟ وأيُّنا أحق بأن يطمئن ويأمن ..؟؟ .

« وحاجَّه قومُهُ — خاصموه وخوَّفوه — قال : أتُحاجُّونِّى فى الله وقد هَدانِ ؟ » ثم قال :—

« وَكيف أخافَ ما أشركتم ؟ ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم يُنزِّلْ به عليكم سُلطاناً ، فأىُّ الفَريقين أحقُّ بالأمن إن كنتم تعلمون ؟ .. » .

* * *

أيها المستمع الكريم : —

لم يدعْ ابراهيمُ قومَه ، حتى صارحهم العَدَاء ، وبين لهم خصائص الاله الحقّ ، ولماذا وجبت له العبودية من دون تلك الأوثان المصنوعة ..؟؟ .

يَحْكِى القرآن الكريم ذلك فى سورة الشعراء فيقول :—

« واتْلُ عليهم نَبأَ إبراهيمَ . إذ قالَ لأبيه وَقومه ما تَعبُدون ؟ قالوا نعبُدُ أصناماً فَنظَلُّ لها عاكِفينَ . قال هل يَسْمعُونكم إذ تَدعونَ ؟ أو ينفعونكم أو يَضُرُّون ؟ قالوا بل وَجدْنَا آباءنَا كذلك يفعلونَ . قال أفرأيتمُ ما كنتم تعبدُون ، أنتم وآباؤُكم الأقدمُونَ — فإنهم عَدُوٌّ لى إلا ربَّ العالمين . الذى خَلَقنى فَهُوَ يَهْدِينِ . والذى هو يُطْعِمُنى وَيسقِين . وإذا مَرِضتُ فهو يَشْفِينِ . والذى يُمِيتُنى ثم يُحيينِ . والذى أَطْمعُ أن يَغفِر لى خَطِيئتى يومَ الدِّين » .

* * *

أيها المستمع الكريم : —

ان ابراهيم — على درجات قربه — وفرط اخباته ومراقبته لربه ليزداد شعوراً بأنه محتاج لرعاية الله ، فقير الى غفرانه ، مضطر الى دعائه فهو يقول ويحكى عنه القرآن :

« رَب هَبْ لى حكماً وألحِقنى بالصَّالحينَ . واجْعل لى لسانَ صِدقٍ فى الآخرين واجْعلنى من وَرَثةِ جَنَّةِ النَّعيم » .

ثم يهفو قلب « ابراهيم » رحمة وحدَباً على أبيه ، ويرجو أن يهديَهُ الله سواء السبيل ، وأن يُبَصرَهُ الرشدَ والهدى .

وكذلك قلوب الهُداةِ والأطهارِ ، تأمَلُ أن تمتلىء الدنيا خيرا ، وأن لايبقى على وجه الأرض شَرٌ ، ولايبقى جحود — وبخاصة — اذا ملأت القسوةُ والعَداءُ ، قلوب الأقرباء ، على الأطهار الأتقياء .. هناك يتحرّق القلبُ الأوّاب ، ويدعو :

« وَاغْفِر لِأبى إنه كانَ من الضالِّين ، ولا تُخزِنى يوم يبعثون ، يَومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بَنُونَ ، إلّا مَن أتَى اللهَ بقلبٍ سَليمٍ » .

* * *

أيها المستمع الكريم : —

سَن « ابراهيم » للباحثين والمفكرين فى العقائد طريقةً لاتدع للشكوك سبيلا الى ايمانهم ، فلقد يتناول العقلُ القضايا ويُقَلب أوجهَ الامكان ، ويُقيمُ الأقيسة ، ثم يقع الاقناع العقلى موضعَه من الانسان .

لكنَّ الطمأنينةَ القلبيةَ شيءٌ آخر لا يزال الانسان يهفو عليها ، ويتشوق اليها ، حتى يُصبح الأمر ممتزجا بشغافِ القلوب ، مستقراً بين طيات الجوانح .. فالحياةُ بعد الموت . أيسرُ من الوجود بعد العدم . يتقبّلها العقل ، ويصدقها .. لكنَّ القلب مشغوف بأن يطمئن الى ذلك ...

وكذلك فعل « ابراهيم » وحكى عنه القرآن :

« وإذْ قال إبراهيمُ ربِّ أرنى كيفَ تُحْيِي الْمَوْتى ؟ قال أوَلم تُؤْمنْ ؟ قالَ بَلى ولكن لِيطمئنَّ قَلبى . . قال فخُذْ أرْبَعةً من الطَّير فَصُرْهُن[1] إليك ، ثم اجْعل على كل جَبل مِنهُنَّ جُزْءاً ، ثم ادْعُهُنَّ يأتِينكَ سَعياً ، واعلم أن الله عزيز حكيم » .

---

(١) اذبحهن وضمهن اليك .

أيها المستمعون الكرام :

ان أرْوَعَ المأثورات فى قصة « ابراهيم » عليه السلام تلك الطاعةُ لله سبحانه وتعالى .. طاعةٌ تستنفدُ كلَّ شىء .. تستنفِدُ الشفقةَ الأبوية .. وتستنفد المقاومةَ الطبيعية .. ثم تتغلب على الهواجس وعلى الضعف الانسانى ..

★ ★ ★

لقد أُمرَ « ابراهيم » فى منامه أن يذبح ولده ، ابتلاءً من الله لذلك الايمان الوثيق ، واختباراً لليقين المكين ، وتعريفاً للناس كيف تفعل العقائد فى أنفس المعتقدين ؟ .

لم يتردد ابراهيمُ فى انفاذ أمر الله ، على هول الأمر ، وقسوته ، وعنفه ، وعلى مخالفته للطبائع البشرية ...

وقام من نومه ممتثلاً أمرَ ربه ، مؤثراً رضاءَ الله على تَصَدُّع كبده ، وسَحق عاطفته ...

أخذ ولده ، وسار فى عزم ومَضاء ... ولم يرض أن يفاجىء ابنه بذلك الحدَث — بل أخبره خبره قَبيل أن ينفّذه — فكان الولدُ سرَّ أبيه ، وصورة من ايمانه ، فلم يضجَرْ ... ولم ينفِرْ ، ولم يرتعْ ، ولم يرهب ، بل قال لأبيه : كما حكى القرآن « افْعَلْ ماتؤْمرُ ... » .

★ ★ ★

يحكى لنا القرآن ، تلك الحادثةَ العظيمة ، فيقول فى سورة الصافات :

« قال ـ أى ابراهيم ـ إنّى ذَاهِب إلى رَبِّى سَيَهدين، رب هَبْ لى من الصّالحين ، فَبشَّرناه بغُلام حَليم . فلما بَلغ معه السّعى قال يا بنى إنى أرى فى المنَام أنى أذْبَحُكَ ، فانظُرْ ماذا ترَى ، قال يا أبتِ افعَل ما تُؤمر ستَجِدنى إن شاء الله من الصابرينَ .

فلما أسلما وتلّه[1] للجبين ، ونادَيناه أن يا إبراهيم قد صدّقت الرؤيا ، إنّا كذلك نَجزى المحسنينَ ، إنَّ هـذا لهوَ البلاء المبين ، وفدَيناهُ بِذِبْحٍ عظيم ، وترَكنا عليه فى الآخِرين ، سلامٌ على ابراهيم ، كذلك نجزى المحسنين ، إنه من عبادنا المؤمنين ».

★ ★ ★

أيها المستمع الكريم : —

لمْ تكمل المأساة التى اختُبِرَ فيها ثبات ابراهيم ولم يتم الذبح الذى امتُحِن به فى خضوعه وطاعته واسلامه لله وحده لا شريك له ، وذلك رحمةٌ من الله ، ورأفةٌ بعباده .. فكان فداءٌ .. وكانت للغلام نجاة !! .

★ ★ ★

أيها المستمعون الكرام :—

اقرأوا قصة « ابراهيم » فى كتاب الله وتدبروها واعرفوا مراميها ، تستسهلوا صعاب الحياة ، وتهنْ عليكم آلام الدنيا .. وتوقنوا بفرج الله عند كل شدة وضيق « فانَّ مَعَ العُسْر يُسْرا ، انَّ مع العُسْرِ يُسْراً » ثم تؤمنوا « ان رحمةَ الله قريبٌ مِنَ المحْسِنينَ » .

اقرأوها ، تعرفوا صبر النُبوّات ، وأسرارَ الطاعات ، وتُدْرِكوا المنطق الأعلى ، والحِوار الشريف ، وتفهموا أن خلال الخير ، والعظمة التى تَوزّعت فى أمة ، قد تجمّعت كلها فى ابراهيم ...

★ ★ ★

« انَّ ابراهيم كان أمّة قانِتاً لله حنِيفاً »

---

(١) تله للجبين — صرعه ، وألقاه على عنقه وخده .

المحاضرة الحادية والعشرون :

أحسن القصص

القصة القرآنية

موسى "كليم الله"

القرآن الكريم يعنى بعبر التاريخ . لا بوقائع التاريخ ـ القصص القرآنى لا يحفل بالزمان ولا بوصف الجزئيات ـ يركز القصص فى العظة والاعتبار ـ القرآن كتاب حكم وعبر . لا حوادث وسير ـ قصة موسى درس قوى لغلبة الأقدار ـ تعلم الاذعان لمشيئة الله ـ فرعون يريد الفتك بموسى !! والأقدار تنشئه وتربيه على عينه ويده ـ القاؤه فى البحر ـ عناية الله تتلقاه ـ فرعون يأوى فى بيتـه من يمزق ملـكه ـ موسى يحطم الظلم والظالمـين ـ يستنقذ المستضعفين ـ قصة رجلين يقتتلان ـ يهودى ومصرى ـ استغاثة اليهودى بموسى ـ اغاثة ثم تأنيب ـ تآمر الفرعونيين بموسى ـ مؤمن من آل فرعون ـ نصيحـة بالفرار ـ خروج موسى خائفـا يترقب ـ لقاؤه الرجـل الصالح « شعيب » ـ زواج موسى من ابنة شعيب ـ الأمانة والقوة فى الرجال ـ الليلة المباركة ـ الوادى المقدس ـ الرسالة ووحى السماء ـ شدة وخوف يعقبهما امن وطمأنينة ـ قصة موسى ترويح للمكروبين ـ سلوة للؤمنين ـ أدب المرسلين فى ابلاغ الرسالة ـ حوار الحق مع الباطل ـ بين موسى وفرعون ـ مؤمن من آل فرعون يخطب ـ رشد وبلاغة ـ منطق سديد ـ الجدال الكريم ـ القضاء على البغى والبغاة ـ تدمير الطواغيت ـ تمام كلمة الله .

★ ★ ★

أيها المستمع الكريم : ـ

نعود الى القصة القرآنية على ما وعدنا من قبل ، ولقد عرفنا أن القصص القرآنى لم يقصد الى التفكهة ، ولا الى بيان المادة التاريخية التى عمادها الأرقام ، والأشخاص ، والأمكنة ، مما لا رُوح فيه ، ولا عبرَة ولا عظة !!

وبيّنا أن الأسلوب القصصى فى كتاب الله ، لم يُعن بالجزئيات ، ولم يسرف فى الأوصاف ، خشية أن ينصرف الذهن عن الباب المغزى .. وأن ينحرف عن مكان العظة ، وعرفنا أيضاً أن من الحقائق التى تعلو فوق الجدل — أن القرآن الكريم انما يُعنى بعبر التاريخ ، لا بوقائع التاريخ . فهو كتاب الحكم والعبر ، لا كتاب الحوادث والسير .

ولقد اتيح لنا أن نعرض لقصة ابراهيم خليل الله — والليلة نعرض لقصة — موسى كليم الله — على الطريقة التى أسلفنا ، قاصدين الى ماقصد اليه الهدْى القرآنى .. وعلى الله قصد السبيل ...! .

* * *

جاء القرآن الكريم بقصة موسى فى أساليب شتى ، وفى سور متكررة وفى آيات متشابهة ، وكلها مبين" عن حوار ، هو النسق العالى للحوار .. وهو المنطق السليم للعقل السليم ، يتحدر بالحجج ، ويشرق فيه الدليل ، وتسطع منه شمس الهداية ، وأول ما يأخذنا فى قصة موسى تأخذنا العظة الكبرى ، فى صنيع الأقدار وغلبة القضاء الالهى ، حتى لتذعن نفوسنا لأمر الله وهى راضية مطمئنة .. فهذا — موسى — شاء الله أن يصطنعه لنفسه . وصنعه على عينه ليكون نبياً ورسولا الى فرعون وملأه .. انظروا كيف ظهر — موسى — وليداً والموت ينتظره من فرعون !ولكن قضاء الله كان يهيء له الحياة فى بيت فرعون ؟.. وانظروا كيف ألقى فى البحر ، والبحر مطية الهلاك .. فحفظته يد الله ، ورعته عينه . على حين يذبح فرعون كل يوم عشرات الأطفال اذلالا لبنى اسرائيل . واستضعافاً لشأنهم .. وانظروا كيفَ تتدارك رحمة الله الشعوب العانية اذ يعظم فيها طغيان الجبارين .. يقول تعالى :

« إن فرعونَ عَلا فى الأرضِ وجعلَ أهلَها شِيعاً يَستضعِفُ طائفةً منهم ، يُذَبِّحُ أبناءهم ويستحيى نساءهم ، إنه كان من المفسدين ، ونُريد أن نمنَّ على الذين

استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الأرضِ ، ونُرِىَ فرعونَ وهامانَ وجنودَهما منهم ما كانوا يحذَرُونَ » .

* * *

وانظروا كيف اشتدت سُخرية الأقدار بفرعون .. فجعلت نجاة هذا الطفل المُلتقَى فى البحر ، على يد آل فرعون .. وجعلت رضاعه من ثدى أمّه رغبة من امرأة فرعون وتعطفا على آل فرعون .. وما أروع أن تكتمل القصة الواعظة .. بأن يهيىء فرعون لنفسه ، وفى بيته ، من يكون سبباً فى هلاكه وتمزيق ملكه !! كل ذلك يتجلّى فى قوله تعالى :

« وأوحينا إلى أمّ مُوسى أن أرضعيه فإذا خِفتِ عليه فألقيه فى اليمِّ ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادُّوه إليك وجاعِلوهُ من المرسَلين . فالتقطه آلُ فرعونَ ليكون لهمْ عدُواً وحَزناً ، ان فرعونَ وهامانَ وجنودَهما كانوا خاطئين ، وقالت امرأةُ فرعونَ قرةُ عينٍ لى ولكَ ، لا تقتلوه ، عسى أن ينفعَنا أو نتخذَه وَلَداً ، وهم لا يشعرون ، وأصبحَ فؤادُ أمِّ موسى فارغاً إنْ كادَت لتبدِى به لولا أن رَبطْنا على قلبها لتكُون من المؤمنين ، وقالت لأُختِه قُصِّيه[1] فبَصُرت به عن جُنُبٍ وهم لا يشعرون ، وحَرّمنا عَليه المراضِعَ من قبلُ . فقالتْ هل أدلُّكم على أهل بيتٍ يكفلونه لَكم وَهُمْ لَهُ ناصِحُونَ ، فرَدَدْناهُ إلى أُمِّه كى تقَرَّ عَيْنُها ولا تحزَنَ وَلِتعْلَمَ أنَّ وعد الله حقٌّ ، ولكنَّ أكثرَهم لا يعلمون » .

* * *

أيها المستمع الكريم : —

نشأ — موسى — وشبّ واكتمل ، وكان قويا شديدَ البأس ، يمقت الظلم ، وينصر الضعيف ، تدرج فى مدارج الكمال ، لينتهى الى الغاية — الى النبوة — الى محق الظلم والظالمين .

(١) قصيه — اقتفى أثره .

رأى يوما رجلا مصريا يأخذ عبرانياً ليسخره على الطريقة الفرعونية ، فاستغاث العبرانىّ « بموسى » فلبّاه ، وَوَكَزَ المصرىَّ وكزةً قضت عليه . ولكن « موسى » لم يلبث أن ندم على ما فعل وضرع الى الله ليتوبَ عليه ، فلما كان فى اليوم التالى خرج « موسى » الى المدينة خائفاً ، يتسمع لآثار مافعله بالأمس ، فاذا بالعبرانى نفسِه يقاتل فرعونياً آخر .. ولعلَّ الغوثَ الذى أغاثه به بالأمس « موسى » قد جعل منه مشاغباً مستمراً !! وهو مع هذا قد طمع فى عون « موسى » مرة أخرى لأنه اسرائيلى مثله . فشرع « موسى » يدفع المصرى ويؤنب الاسرائيلى ، ويقول له : انك لغوى مبين ! . فظن الاسرائيلى أن « موسى » يريد اليوم به شراً . فأعجله ، وقال :

« أتُريدُ أن تقتُلَنى كما قَتلْتَ نفساً بالأمس إن تريدُ إلا أن تكون جبَّاراً فى الأض وما تريدُ أن تكونَ من المُصْلِحين » .

* * *

تسامع الفِرْعَوْنيّون بتلك الأنباء ، وسرت بينهم ، وعلموا أن « موسى » قد قتل مصريا ، فأتمروا لقتله ، وبيّتوا أمرهم للخلاص من « موسى » لكنَّ عناية الله كانت قد نَدَبت من بينهم رجلا شريفاً ، عرف ما بيّتوه « لموسى » فجاءه من أقصى المدينة يسعى :

« قال يا مُوسى إن الملأ يأتمرون بك لِيقتلُوك ، فاخْرُجْ إنى لكَ من الناصحينَ ، فخرج منها خائفاً يترقّبُ قال ربِّ نجِّنى من القوم الظالمين » .

وكان الخير كلّ الخير فى هذا الخروج ، فقد وَجد — موسى — بعد خروجه من مصر — تلقاءَ مدين — وجد الشيخ الصالح النبىّ شعيباً — فى أرض مدين . فزوّجه ، وآواه ، ولقد رشح — موسى — لمصاهرته ، ورغّب فيه شعيبا ، وابنة شعيب ، صفتان جليلتان ، هما آية الرجولة — بل آية البطولة هما القوّة ، والأمانة !! ولهذا قالت ابنة شعيب لأبيها :

« يا أبتِ استأجِرْه ، انَّ خَيْرَ مَن استأجَرتَ القَوىُّ الأمين » .

فلما بلغ الكتاب أجله ، وتهيأ « موسى » للأمر العظيم — للرسالة الى فرعون • لِشَلِّ العرش الذى نصبت قوائمه على الجبروت ! وامتدت شرفاته فوق هامات المظلومين المنكوبين • المستضعفين المسخرين •• هنالك ، سار — موسى — بأهله • فلما صار الى جانب الطور قال لأهله :

« امكثوا إنى آنَسْتُ ناراً لَعَلِّى آتيكُمْ مِنها بقَبَس أو جَذْوَة من النار لعلكم تَصطَلون[1] فلما أتاهَا نُودِىَ من شاطىء الوادِى الأيمنِ فى البُقعَة المباركة من الشجرة أن يا موسى إنى أنا الله ربُّ العالمين » .

هناك كان مَهبِطُ الوحىِ • هناك كان بدء الرسالة • هناك كان اتصال الأرض بالسماء !!•

* * *

أيها المستمع الكريم : —

ما أروعَها عظةً ، وما أملأها لقلوب المؤمنين سكينةً وثقة وأملا ورجاء• رجل يخرج هارباً خائفاً ، ويجلس فى ظل شجرة جائعاً يقول :

« رَبِّ إنى لِما أنزَلْتَ إلىَّ مِن خَير فقير » .

لا سند له الا توكلٌ على الله ، والا ثقة بالله !! فيكون له فى طى تلك الشدائد كلها هذا الخير العميم • وهذا النصر المبين •• لاجرم أنْ كانت قصة — موسى — مِرْوَحَة الحزين ، وسلوة المؤمنين ؟ •

* * *

أيها المستمع الكريم : —

أصْغَ الى الأدب الإلهى ، والى السفارة الربانية تعرفْ كيف تكونُ الحكمة العالية • وكيف يكون الخطاب السامى • وكيف تؤلَّف القلوب النافرة • وكيف تعالج النفوس المنحرفة • يقول تعالى وهو يأمر موسى أن يبلغ رسالته الى فرعون :

---

(١) تصيبون دفئا •

« اذْهبْ أنتَ وأخوكَ بآياتى ولا تنِيا فى ذِكرى ، اذهبا إلى فرعونَ إنه طغَى فقولا له قولاً ليِّنا ، لعلّه يتذكر أو يخشى ، قالا ربنا إننا نخاف أن يفرُطَ علينا أو أن يَطغَى ، قال ، لا تخافا إننى مَعكما أسْمَع وأرى ، فأْتياهُ فقولا إنّا رسولا ربِّك فأرسِل مَعنا بنى اسرائيل ، ولا تعذِّبهُم قد جئناك بآية من ربك ، والسلام على من اتّبع الهدى » .

* * *

سار — موسى — برسالة ربه . وهو يعرف أنه سيخاطب بها أكبر الجبّارين فى الأرض !!! بيد أنه كان — عليه السلام — صورةً من صُور الحق ، لا يبالى أن يقذف به فى وجه الباطل .. ابتدر — فرعونُ — يردُّ على موسى . وقال كما يحكى القرآن : فَمَنْ ربُّكُما ياموسى ؟ . قال له موسى « رَبُّنا الّذِى أعطَى كلَّ شىء خَلَقَه ثم هدى ، قال فما بالُ القرون الأولى . قال عِلْمُهَا عندَ ربِّى فى كتاب لا يضل ربى ولا يَنْسَى ، الذى جَعَل لكم الأرض مَهْداً وسَلَكَ لَكُمْ فيها سُبُلا وأنزلَ مِنَ السَّماء ماء فأخْرَجْنا به أزواجاً من نبات شتى ، كلُوا وارعوْا أنعامكم ، ان فى ذلك لآيات لأولى النُّهَى ، منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى » .

* * *

بعد هذا الحوار القوىِّ القاطع لكلِّ حجة لم يجدْ فرعون غير أن يستخفَّ بموسى وبالحق الذى يمثّله موسى ، فقال كما يحكى القرآن الكريم : « انى لأظنُّكَ ياموسى مَسْحورا !! » .

أترَى موسى سكت عن تلك الجرأة الوقِحة .؟! لا ! انه لطم فرعونَ لَطمةً دفع بها تلك الأهانة ، فى ثبات الواثق من عقيدته ، المطمئن الى قوته ، قال موسى كما يحكى القرآن :

« لقد عَلِمتَ ما أنزَل هؤلاء إلّا ربُّ السموات والأرض بصائر!! وإنى لأظنكَ يا فرعون مثبوراً [1] » .

* * *

أيها المستمع الكريم : —

لايعدم الحق أنصاراً فى كل زمان ومكان ، فمن حيثُ يُعضِلُ الأمر ، ويعمُّ الفساد ، وتعشى عن الحق العيون — لابد من أن يظهر الله وسط هذا الضلال الشامل ، منْ يَعِينُ على الحقِّ ويجهر بالصدق ، فلقد عظمت الحيرة — بفرعون — وقومه . ماذا يفعلون بنبيهم — موسى — ؟ وقد جاءهم يُنزلهم من عروش جبروتهم ، وينافحهم ويناقشهم ، ويبطل كيدهم ؟؟؟ لم يروا غير أن يقتلوه ..!! فانبرى رجل مؤمن من آل فرعون ، يكتم ايمانه ثم طفق يجادلهم ، جدالا كله الحجة ، وكلّه الاقناع ، فى أدب من الخطاب ، وتلطّف فى الأسلوب ، قال لهم كما يحكى القرآن :

« أتقتلون رجلا أن يقولَ ربِّى الله ، وقد جاءكم بالبيّناتِ من ربِّكم ، وإن يك كاذباً فعليه كَذِبُه ، وإن يكُ صادقاً يُصِبْكم بعضُ الذى يَعِدكم ، إن الله لا يهدى من هو مُسرفٌ كذّاب . . ياقوم لكم الملكُ اليومَ ، ظاهرين فى الأرضِ فمن ينصرنا من بأسِ الله إنْ جاءنا ؟ قالَ فِرْعَوْنُ ما أُرِيكُمْ إلاّ ما أرى ، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد » .

فيردُّ هذا المؤمن أيضا ويقول :

« ياقوم اتّبعون أهدكم سَبيل الرشاد ، ياقوم إنما هذه الحياة الدُّنيا متاعٌ ، وإن الآخرةَ هى دارُ القرار ، مَن عَمل سيئة فلا يُجزى إلاّ مثلَها ، ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فأولئك يدخلون الجنةَ يُرزَقون فيها بغيرِ حساب ، وياقوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار ؟ ! ، تدعوننى لأكفرَ بالله وأشرِكَ به

(١) مثبورا — هالكا .

ما ليسَ لى به عِلمٌ وأنا أدْعُوكم إلى العزيز الغفّار ، لاَ جَرَم أنَّ ما تَدْعُوننى إليه ليسَ لَهُ دَعوةٌ فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وأنَّ مَرَدَّنا إلى الله ، وان المسرفين هم أصحاب النار » .

بهذا النقاش المهذّب ، تُبيِّن لنا القصة ، كيف يعلو الحقُّ عن الأساليب الجافة العنيفة ، وكيف يسمو عن القِحَة والبذاء ؟ وكيف يتخذ سبيله الى العقول وكيف يلامس مكان الاقناع من الأفهام ؟ .

* * *

أيها المستمع الكريم :—

لقد دالت دُولة فرعون ، وحَمِد بنو اسرائيل عواقب الصبر .. بعد أن كان فرعون يقتل أبناءَهم ويستحيى نساءَهم ، وبعد أن سخَّرهم فى أذل الأعمال .. فكانت عُقبى هذا كلّه أنْ تمت كلمةُ ربك الحسنى على بنى اسرائيلَ بما صبروا ودمَّرنا ما كان يصنعُ فرعون وقومُه وما كانوا يعرشون !! .

وهكذا أصبح كلُّ ظَلاَّم فى الأرض ، وكلُّ جبار بين الناس ، أثراً من الآثار ، وخبرا من الأخبار !!!.

المحاضرة الثانية والعشرون :

حلقة من أعلام الإسلام

محمد بن القاسم الثقفي - فاتح الهند

محمد بن القاسم فاتح وناشر دين ـ بلاد الهند الاسلامية تخلد ذكره ـ هو واضع أساس العقيدة الاسلامية فى الهند ـ ميلاده ـ أسرته ـ عقله وحزمه ـ بدء الفتح ـ زواجه من زينب أخت الحجاج ـ الفاتحون من رجال بنى أمية ـ بلوغ الفتح أسوار الصين ـ ثغر مكران ـ الاعداد لغزو الهند ـ سبب الغزو ـ اغاثة امرأة مسلمة من عدوان القرصان ـ من شيراز الى السند ـ عشرون ألف مقاتل ـ قوة الغزو البحرية ـ مسارعة القبائل الى جيش المسلمين ـ الفيلة فى جيوش الأعداء ـ احراقها بالنفط من جيش المسلمين ـ قتل الملك الوثنى (داهر) ـ تشتيت جموعه ـ اخضاع بلاد السند ـ الغنائم الكثيرة ـ الاصلاح والتنظيم ـ هدايا الهند الى الحجاج ـ تغير الخليفة على فاتح الهند ـ تلقيه العزل بالثبات ـ وداعه للهند ـ حب الهنود له ـ بطولة نادرة ـ تخليد الشعر لأعماله .

* * *

أيها المستمعون الكرام :

سلام عليكم — حديثنا الآن ، فى سيد من سادات الشباب الاسلامى ، فى محمد بن القاسم الثقفى ، أول فاتح فى الاسلام ، سمت به همته لاقتحام السند ، والتوغل فى شمال البلاد الهندية ، ومعه الخلق العربى ، والدين المحمدى ، فحيثما حل أقام مسجدا ، ونشر ثقافة ، ومحا رجس الاشراك ، وطوى ما بسطته الأوهام على العقول ، حتى لا تخضع الا لله الواحد القهار .

فاذا راح المسلمون اليوم يحصون الملايين من الموحدين ، فى القارة الهندية ، واذا راح صوت الأذان يصعّد فى السماء من أطراف الهند ، فمن

الحق ، أن يذكر مع ذلك ، وفى كل وقت ، محمد بن القاسم الثقفى ، الذى وضع الأساس ، لمن جاء بعده يبنى ثم يشيد .

محمد بن القاسم الثقفى ، هو من أسرة الحجاج بن يوسف الثقفى ، بل هو ابن عمه ، وربيبه الذى نشأ وترعرع فى البيئة الحربية ، بين قعقعة السيوف ، وصهيل الخيل ، فشب فى مهد البطولة ، حتى اذا بلغ سبع عشرة سنة — كان قد بلغ أشده واستوى ، فتفتحت أمامه ميادين المجد ، وتألق بين رجالات الحجاج ، فجمع على حداثة سنه ، عقلا وحزما وتجربة ، لا تجتمع للكهول .

فى تلك السن المبكرة ، وقد التمع (محمد) وتجلت خصائصه ، اختاره الحجاج ابن عمه ، ليكون زوجا لأخته (زينب) زينب التى فتنت الشعراء ، جمالا وعقلا ، عرض عليها أن تتزوج من محمد ، وهو ابن سبع عشر سنة ، وهو يومئذ أشرف ثقفى فى زمانه ...

لقد ولد محمد بن القاسم سنة ثلاث وسبعين هجرية ، على عهد عبد الملك ابن مروان ، وعمه الحجاج يومذاك ، يسير مجده الحربى من مكان الى مكان ، فهو تارة يقضى على عبد الله بن الزبير بالحجاز ، وينهى أمره وامر خلافته ، ويجمع الناس على عبد الملك ، وهو طورا يذهب الى العراق ، فيرد العراق الى طاعة الخليفة ، بعد أن ثار العراق ، وأبى الخضوع لسلطان الأمويين ، ثم هو يرمى بالجيش وراء الجيش ليسد ما تفاقم من أمر الخوارج فى فارس .

فلما استتبت الأمور ، وتطامن الناس الى الحكم الأموى ، تطلعت النفوس العربية ، تحثها وتثيرها العقيدة الاسلامية ، الى استئناف الفتوح شرقا وغربا ، وكان قطب الرحى الذى يدير هذه الفتوح — الحجاج ابن يوسف الثقفى — وهو الجلد الصارم الحازم ، وهو البصير الخبير بنقد الرجال ، واختبار القواد .

رمى بقتيبة بن مسلم الى ما وراء نهر جيحون ، فأخضع تلك البلاد ، وأوغل فيها ، ونشر الاسلام فى ربوعها ، ثم ضرب فى أسوار الصين ، واستولى

على (كشغر) ثم أخذ الجزية للمسلمين من ملك الصين . هـذا هو سهم الحجاج فى الشرق .

أما سهمه الآخر ، بل الشهاب الذى سطع ثم انقض على الهند ، فهـو صاحبنا محمد بن القاسـم ، لقد رمى به الحجـاج ثغر (مكران) وهى ثغر السند ، وأعدّ له العدة لغزو عظيم ، يستند على جيش برّى ، وأسطول بحرى .

ومن عجب أن الذى أثار ثائرة الحجاج ، وجعله يُصمم على غزو الهند ، ويبعث على الهنود بالعزيز الغالى عنده ، وهو ابن عمه ، والشقة بعيـدة ، والبلاد مجهولة — السبب فى هـذا كرامة عربية ، ونخوة ثقفية ، وغضبة اسلامية ، ذلك — ان امرأة مسلمة ، كانت تقطع البحر فى سفينة ، فلمـا اقتربت السفينة من سِيف الهند ، طلع عليها قرصان هنود ، من رعايا الملك الهندى (داهر) فسلبوها أمتعتها وأمتعة المسافرين ، فاستغاثت واستجارت المرأة المسلمة — بالحجاج — وصاحت واحجاجاه — وانتهى أمرها وأمر صيحتها الى الحجاج ، فما كان أسرعه لغزو السند ، أخذا بالثأر ، واعزازا لكلمة الله .

سار الشابَ الباسل محمد بن القاسم ، من « شيراز » قاصـدا السند وله قوتان ، قوة برية وقد بلغت عشرين ألف مقـاتل ، وفيهم فرسـان من جنود الشام الذين كانوا درعا وغوثا للدولة الأموية .

والقوة الثانية هى قوة بحرية ، سارت تحمل جنود الأسطول وعتاده ومؤونة الجيش ، والآلات الثقيلة المهيأة لحصار الحصون ، وفيها مجانيق ضخمة ، تقذف بالقذائف ، فتدك كل شامخ . لم يدع الحجاج قائده (محمدا) الا وقد أحاطـه وجهزه بكل مايكفل النصر ، ثم نظم المخابرات بين محمد وبينه ، وجعل البريد ينقل مالديهما من أنباء الوقائع ، وشئون العدو كل ثلاثة أيام .

وكان خروج (محمد) الى هذه الفتوح سـنة ٩٠ هجرية ، فى رونق

الشباب وفى فتوة سبع عشرة سنة ، سار يقطع المهامه والقفار ، حتى بلغ ثغر السند فى يوم جمعة ، وهناك وافاه الأسطول الاسلامى الذى أعده الحجاج بالسلاح وآلات الحصار ، فخندق هنالك ، ونصب المجانيق ، وأخذ يحطم أسوار المدينة ، وصعد الرجال فوق معارج أعدت ، فاقتحموا الأسوار ، وفتحوا هذا الثغر ، واندفع المسلمون داخل البلاد يبنون المساجد ، وينشرون الدين ، ويختطونَ المساكن ، وهرب عامل المدينة الذى كان مُوَلى من قبل الملك الوثنى الهندى (داهر) ، فتبعه الجند الاسلامى ، يضرب فى أقفية الجيوش المندحرة ، وقد أخذت البلاد فى السند تسلم صلحا ، وترضى حكم المسلمين اختيارا ، بل أخذت القبائل الهندية تحتشد طواعية ضمن الجيوش الفاتحة وسارع أربعة آلاف من قبائل (الزطّ) وهم جيل من الهند ، عرفوا بالبسالة وحب الغارات — سارعوا فانضموا لجيش (محمد بن القاسم) .

ولقد أصبح هدف الجيوش الاسلامية — بعد كسب المعركة الأولى — أن تظفر بالمَلِك (داهر) نفسه ، بعد أن تمزق ملكه ، فعبرت الجيوش الاسلامية نهر (مهران) السند — ولاقت (الملك) على رأس جيوشه ، وقد أعدوا الفِيَلَة ليُرهبوا بها المسلمين والعرب ، فقذف عليها (محمد ابن القاسم) بالنفط الملتهب ، فنفرت واهتاجت ، واحترقت الحمول التى عليها ، ووقع قتال رهيب ، انتهى بقتل الملك (داهر) فتشتتت جموعه ، واقتُحمت البلاد ، بلدا بلدا ، وفى قتل (داهر) يقول ذلك الذى صرع الملك وأرداه ، من فتيان العرب المسلمين :—

الخيل تشهد يوم (داهر) والقنا ومحمدُ بنُ القاسم بن محمد
انى فَرَجْتُ الجمع غير معرّد حتى علوتُ عظيمَهم بمهند
فتركتهُ تحت العجاج مجندلاً متعفرَ الخدين غير موسد

* * *

ولما قتل (داهر) دانت بلاد السند (لمحمد) حتى بلغ (ملتان) وكانت

أعظم البلدان العُليا ، وبها (بدّ) صنم كبير ، يحج اليه الهنود ، ويقدمون له نفائس القرابين ، ويطوفون به ، ويحلقون عنده .

امتنعت عليه (ملتان) أولا ، ثم استولى عليها ، وظفر بغنائم جسيمة ، كانت فى المعبد البوذى ، وحمل (محمدٌ) الى الحجاج بن عمه ، عشرينَ ومائة الف الف درهم ، فقال الحجاج ، شَفَيْنا أنفسَنا ، وأدركنا ثأرنا ، وذهب رأس (داهر) .

بقى (محمد) يفتح بلادا من الهند فوق ما فتح ، وينشر العدل الاسلامى ، ويسيطر بخُلُقه وحسن سيرته ، فوق ما يستولى بجنده ، فانجذبت اليه القلوب ، والتفت حوله النفوس ، حكومةٌ عادلة ، وسياسةٌ رفيقة ، ولقد ترك هناك من فضائله ، ما جعل أهل السند يتعلقون به ، ويتفانون لأجله .

لقد نشر (محمد) فى عُماله ، منشوره ، أو دستوره القيم الذى يقول فيه (أنصفوا الناسَ من أنفسكم ، واذا كانت قسمةٌ فاقسموا بالسوّية ، وراعُوا فى فرض الخراج مَقْدُرَة الناس على أدائه ، ولا تختلفوا ولا تنازعوا فتشقى بكم البلاد) .

وأرسل (محمد) الى الحجاج طوائف من (الزط) الذين كانوا فى جنده وأرسل اليه فِيَلَةً هندية ، حتى لقد سُميت محلتهم بواسط (مشرعة الفيل) حيث نزلت هناك ، وأرسل جواميس سندية ، أطلقها الحجاج فى كور دجلة ، وكانت سببا فى ثروة اقتصادية بعد ذلك ، وأرسل ببعضها الى الخليفة الأموى ، فأطلقها بانطاقية .

كان عمل (محمد) عظيما ، بل كان عجيبا ، فكل ذلك قد تم فى ست سنين ، فلم تأت سنة ست وتسعين هجرية ، حتى آذنت شمس (محمد) بالمغيب فقد مات الحجاج سنة ٩٥ ، وعملت الضغائن والوشايات عملها ، فشرع الخليفة (سليمان بن عبد الملك) ينكل بكل حجاجى ، وبكل من يتصل بالحجاج ، وفى مقدمة ذلك عَزْلُ محمد بن القاسم ، ومصادرته .

وقد تلقى (محمد) العزل برباطه جأش ، وقوة ويقين ، وطمأنينة الى

ما أسلفه فى خدمة دينه وأمته ، وكان فى مُكنته ، وقد صار له فى السند مكانة تفديها النفوس كلها ، وتحرص عليها قلوب الرعية — كان فى مكنته أن يرفض أمر العزل ، وأن يستقلّ بما فتح من هذه القارة ولكنه أخلد الى الطاعة وعاد الى (واسط) وقد كان أهل السند ، يودعونه بعبرات حرّى ، وقلوب ملتاعة ، بل انهم قد صوروه فى آخر مدينة رحل منها .

لقد كان (محمد) يقول وهو يودع البلاد التى فتحها ، وأعز الاسلام فيها : —

أضاعونى وأى فتى اضاعوا ❊ ليوم كريهة وسداد ثغر

ويقول البلازرى : —

ان الهنود قد بكوا محمدا لسماحته وعدله ، وكرم خلقه ، ولقد قال فيه حمزة الحنفى : —

ان المروءةَ والسماحةَ والندى لمحمدِ بن القاسم بن محمد

ساس الجيوش لسبعَ عشرةَ حِجةً ياقرب ذلك سؤدداً من مولد

ولله ما يقول المؤرخ الشاعر فى محمد بن القاسم : —

قاد الجيوش لسبعَ عشرة حجة ولِداتُه عن ذاك فى أشغال

قعدتْ بهم أهواؤهم وسمتْ به هِمَمُ الملوك وسورة الأبطال

* * *

أيها المستمع الكريم : —

هذه اثارة من حياة شاب بطل عربى اسلامى ، يفعل هذه الأعاجيب ، فيؤسس التوحيد فى بلاد الوثنية ، ويقتحم كل تلك الأهوال والمخاطر ، وعُدّته ، شجاعة ، وعقيدة ، وخلق .

ألا حيا الله البطولة العربية ، وبارك على تلك الشمائل الاسلامية .

حلقة من أعلام الإسلام

بلال بن رباح

الأذان فى الحرم النبوى ـ تمثل (بلال وهو يؤذن) ـ مؤذن اليوم ـ أصل (بلال) ومنشؤه ـ كيف سارع الى الاسلام وهو رقيق ـ سيده ينكل به ـ العذاب يصب فوق رأسه ـ تمسكه بعقيدته ـ (بلال) عقيدة مجسدة ـ أبو بكر يشترى بلالا ـ اعتاقه ـ هجرته الى المدينة ـ أدب الأذان ـ ملازمته لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم ـ جهارة صوته ، حلاوة جرسه ـ بلاؤه الحسن فى بدر ـ تمكين الله له من عدوه ـ أذان (بلال) يوم الفتح فوق ظهر الكعبة ـ اباؤه الأذان بعد موت الرسول ـ حزنه ولوعته عند كل أذان ـ أذانه فى الشام زمن (عمر) ـ تأثر الصحابة من أذان (بلال) ـ آخر أيامه ـ الرئوح الاسلامى يُسوِّدُ بلالا .

* * *

أيها المستمعون الكرام : ـ

سلام عليكم ، موضوع هذا الحديث ، قد تمثل فى خاطرى ، وتهيأ لى فى ليلة من ليالى المدينة المنورة ، وأنا جالس بالحرم النبوى الشريف !!! طافت بى ذكريات" بعثها المكان من اغوار الزمن ...

فبينما أنا أفكر كيف أنبعث من هنا ضياءُ الحق ، يحمله آساد الشرى ، فيتغير وجه الأرض ، وتتحول صحف التاريخ ـ بينما أنا كذلك ـ واذا بصوت المؤذن ، ينبعث من شَرَف عال وسط المسجد ، يسمونه (المُبَلِّغة) واذا بنفسى تهتز من عذوبة النبرات ، وحلاوة الكلمات ، والمؤذن يُنغّم صوته ، ويمدُّه مدا ، فيصَّعَّدُ الى السماء ، يهتف (اللهُ أكبرُ ، أشهدُ

الا ّ اله الا ّ الله أشهد أن محمدا عبده ورسوله) وكأنما تفتحت أبواب ُ السماء ، تتلقى دعوات الداعين ، وصلاة المصلين ، كما تفتحت القلوب أيضا تَنْدى بكل اخلاص وكل اخبات لله رب العالمين .

وعرتْنى حالة ٌ جعلتنى أشفق على نفسى أن تأخذ مكانها ها هنا من الصف ؟؟! وكيف لا أشفق عليها ، ولكأنى الساعة أتمثل ، (محمدا) رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤم الناس ، كما كان يؤمهم فى هذا المكان سنين عدة ، وأتمثل فى الصف صحابة ً صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فعزّوا ، وأعزوا دين الله ، وما تنبهت الا على صوت المؤذن يقيم الصلاة ، بعد الأذان ، وقد علمت أن المؤذن رجل بخارى ّ الأصل ، وان فى مخارج حروفه انحرافا قليلا عن العروبة ، لا يزال هو يعالجها بالبيان العربى ّ ، وما كان أحلى نبرا !! وأروع وقعا !! هتاف هذا المؤذن : — (حى ّ على الصلاة ، حى ّ على الفلاح) وانك لتلمح فى صاده قربا من السين ، وفى حائه اتصالا بالهاء !!! هنا ، فأعجبْ لتداعى المعانى !! لقد عدت أرانى كأنما أستمع الى (بلال) مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم ...!!! .

أولم يكن (بلال) حبشيا يستبدل لسانه حرفا بحرف ، كما يقول الرواة ، أولم يكن مؤذنا بين يدى الرسول حياة َ الرسول صلى الله عليه وسلم ، يهز مشاعر المسلمين ، ويدعوهم الى قرة عيونهم — الى الصلاة ؟؟ ثم ناجيت نفسى :— اذا كان هذا المؤذن البخارى ّ يجعل قلوبنا ومشاعرنا مأخوذة بنبراته ، فكيف كان شأن (بلال) ؟؟ فكرت فى بلال ، وشغلت ببلال ، وها أنا أتحدث الآن عن (بلال) ...

انه بلال بن رباح ، وكان حبشيا فى أصله ، وان كان ولد فى مكة ، وأمه اسمها (حمامة) وكان المشركون يعيبونه ، فينادونه (بابن السوداء) وكانت ولادته قبل الهجرة النبوية من مكة بثلاث وأربعين سنة .

كان (بلال) من السابقين الأولين الى الاسلام ، أسلم مع أبى بكر وخديجة ، وعلى وعمار ، وصهيب والمقداد ، وكان عبدا (لأمية بن خلف)

وأمية يومذاك من أئمة الكفر ، ومن أعنف الصادين عن سبيل الله ، فكيف يرى عبده يسارع الى الاسلام ، ويترك دين سيده ؟ انها لاحدى الكبر فى نظر هذا الطاغية !! فماذا يفعل بذلك الذى أحدث هذا الحدث ، على عين سيده ، لا يباليه ، ولا يحفل به .

لقد طفق (أمية) يفتّن فى تعذيب (بلال) يلقى به فى وقدة الهجير ، ثم يضع الحجارة فوق صدره ، ويريده أن يرجع عن الاسلام ، فيأبى ، ثم يأبى ، ويقذف فى وجه الشرك قوله (الله أحد ، الله أحد) وقد كان أيضا أمية الفاجر يُلْبِس بلالا درعا من الحديد ، ويقذف به فى وَهَج الشمس ، حتى اذا حمى الحديد ، قلّبه فوق جسده ليذوق العذاب ، وهو يقول له : — لا تقل ، الله أحد ، بل اذكر اللات والعزىّ ، فيأبى بلال ذلك عليه ، ويصبر على أذاه ، ويقول ، أحد !! ، أحد !!! .

هكذا تحول هذا الانسان ، الى عقيدة مجسّدة ، هى التوحيد !! هى الايمان بالله وحده لاشريك له !!! ولقد زعم الزاعمون ، أن (بلالا) أسلم لأنه رأى فى الاسلام ما يُنقذه من العذاب الذى يصلاه الأرقاء ، وما يدفع عنه ظلم المشركين ، لكنّ سيرة بلال ، وقصة اسلامه ترينا كيف احتمل فى سبيل عقيدته ، وكيف ناله الأذى بعد الاسلام أضعاف ما كان يجده قبل الاسلام ، اذن ، لم يُسلم « بلال » الا وهو مؤمن بالحق فى ذاته ، محتمل لتبعاته ، صابر فى سبيله .

ولقد عزّ أمره على أبى بكر الصديق ، فطلب من (أُميَّةَ) ، وهو يعذب بلالا ، أن يكف عن تعذيبه ، وأن يبيعه اياه ، فباعه أمية ، واشتراه أبو بكر بسبع أواق من الذهب ، ولقد شاء لؤم (أمية) واستخفافه (ببلال) الرجل المسلم ، ان قال لأبى بكر ، بعد تمام الصفقة : — لو أبيتَ أن تشترىَ بلالا ، الا بأوقية واحدة ، لبعتك اياه !!! فرد الصدّيق هذه الاهانة عن بلال بقوله : — « لو أبيتم أن تبيعوا بلالا الا بمائة أوقية ، لبذلناها واشتريناه » !!! .

ولقد لمح رسول الله صلى الله عليه وسلم ما انطوت عليه نفس (بلال) من خير ، وما يُرجى للاسلام ، وللعقيدة من مثل (بلال) فقال لأبى بكر لو جعلتَ لى نصيبا فى (بلال) تخفيفا عنك من الانفاق عليه ، فقال (أبو بكر) قد تم لى شراؤه !! ثم اعتقته يارسول الله !! فياما أبر نفس الصديق ، وياما أكرم خلائقه وأوفر بذله فى سبيل الله !!! .

* * *

خرج (بلال) عن ربقة الاسترقاق ، كما برئت نفسه من دنس الاشراك ، ولكنّ ايذاءَ المشركين له لم ينقطع ولم يهدأ ، فاذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يهاجر الى المدينة ، فهاجر اليها وفى نفسه نوازع الى وطنه (مكة) وان تلك النوازع ، لتدل على ما لحب الأوطان من سلطان فى الأنفس الزكية ، مهما جارت تلك الأوطان على بنيها ، ومهما نَبَتْ بأهلها وذويها ، لقد كان (بلال) يتشوف الى مكة والى مغانيها ، ويترنم ، وهو بالمدينة يعانى وَعْكَة الحُمّى : —

ألاَ ليتَ شعرى ، هل أبيتنّ ليلةً بفخّ ، وحولى إذخر وجليل
وهل أرِدَنْ يوماً مياه (مجَنّة) وهل يبدُوَنْ لى شامةٌ وطفيل

انه يحن الى وطنه ، وانه يذكر رباه ، ويستطيب نبته ومغناه ، !! ...

ولما هاجر النبى صلى الله عليه وسلم الى المدينة ، لازمه (بلال) بها ، ما فارقه فى سفر ولا فى حضر ، بل لقد كان فى الغزوات ، يضرب له الخيام ، ويظلله من الشمس ، ثم رشّحه للأذان عندما شرعه الله جَهارةُ صوته ، ونداوةُ جرسه ، وحلاوة أدائه .

وكان له أدب فى الأذان ، وأدب فى دعوة الناس الى الصلاة !! كان يؤذّن فى الوقت ، ثم يتريث منتظرا خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة ، فاذا أبطا فى حجراته يذهب بلال ويقف بالباب ، ويقول : — «حىْ على الصلاة حىْ على الفلاح ، الصلاةَ يارسول الله » ولا يقيم الصلاة حتى يخرج عليه السلام ...

وكانت (لبلال) عادة لطيفة لعلّها بقيت الى أزمان متأخرة ، يتناقلها المؤذنون ، وهى أنه كان يردّدُ بعض أبيات وكلمات كلما شرع فى الصعود للأذان ، وهذه الكلمات كلها استغفار ، واسترحام ، واستتابة من الذنوب ، وما أحلاها ، تهيىء النفوس الى اجابة دعوة الداعى للصلاة ...

بقى « بلال » صورةً جليّة للنفس المؤمنة ، الأمينة على عقيدتها ، الصابرة على محن الحياة ، المجاهدة فى سبيل الله ، فلما كانت غزوةُ (بدر) أمكن الله «بلالا» من عدوه ومعذبه الأكبر ، من (أميةَ بنِ خَلَف) فقد رآه منقادا فى ذل الأسر يقوده عبد الرحمن بن عوف ، فصاح بلال :— هذا رأسُ الكفر أمية بن خلف ، لا نجوتُ انْ نجا !! ثم صال به صولةً عنيفة ، فأخذته السيوف ، وخرّ صريعا وراح (أمية الجبار) تلعنه فِعالُه ...

* * *

ولما فتحت مكة ، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالا ، أن يؤذن من فوق ظهر الكعبة ، فأذن ، وأصغتْ الآفاق لهُتاف الحق ، يدوّى واضحا جليا ...

لم يزل (بلال) يؤذن بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى انتهت الحياة الشريفة المحمدية ، واختار الله رسوله الى جواره ، فحزن (بلال) ولم يقو على الأذان ، من بعد (محمد) صلى الله عليه وسلم ، فتأخر وقدّم غيره للأذان ، ويرجع ذلك ، الى أنه أذّن أياما بعد وفاة النبى فكان اذا ماهتف ، (أشهد أن محمدا رسول الله) خنقته العبرات ، وأخذه الاجهاش !!!.. ثم استأذن بلالٌ أبا بكر الصديق، فى أن يشغل نفسه بالجهاد فى سبيل الله ، فأذن له ، وجاهد فى فتح الشام ، وهو فى الستين من عمره ، وبقى هناك ، حتى اذا فتح الله على المسلمين ، وحضر (عمر) الى الشام ، واجتمع الصحابةُ والتابعون ورأوا (بلالا) بينهم ، فما هو الا أن عاد الى الأذان فى حضرة (عمر) ، وبين السابقين الأولين ، بعد أن هجر الأذان ،

وهجر المدينة ، حزنا على الماضى وفرارا بما يحمل من ذكريات محمّديّة !! فلما سمع الصحابة الأذان من (بلال) فى دمشق ، تذكروا رسول الله فبكوا بكاء جليلا رائعا !! وهلْ أروع من جلال الشيخوخة يمتزج برقة القلوب ، وطهارة الوفاء ، فيكون التعبيرُ الصادقُ دموعاً تقطر حنانا الى الماضى ، واكراما لأيامه النضرات ...

* * *

ولقد حضرت (بلالا) الوفاة ، وهو فى السبعين من عمره ، فكان وهو يعالج سكرات الموت ، يستحث أنفاسه ، ليسارع بروحه الى جوار الله ، الى جوار محمد ، فكان كلما صاحت زوجته (واحزناه !!) يَردُّ هو (وافرحتاه !!) غداً ألقى الحبيب ، محمد بن عبد الله !! لقد مات (بلال) بدمشق وقبره هناك معروف .

* * *

يا لله !! ما أكرم تلك الحياة — حياة (بلال) ، وما أعظم أثر الاسلام فى تكوين تلك الشخصية — شخصية (بلال) لقد كان مثالا حيًّا على أن الاسلام هو الذى محا العنصرية ، وبث الاخاء فى الانسانية ، حتى لقد أطلع من (بلال) العبدَ الحبشىَّ ، سيداً كريما وفياً زكياً عظيماً .

واستمعوا اذْ يتحدث أعظمُ المسلمين (عمرُ الفاروق) عن أبى بكر ، وعن بلال ، فيقول :— (أبو بكر سيدَنا وأعتقَ سيّدنا) ، فيالسيادة الاسلام التى خلدت (بلالا) بين الأنام .

المحاضرة الرابعة والعشرون :

حلقة من أعلام الإسلام

الحجاج بن يوسف الثقفى

أثر الحجاج فى صيانة العرش الأموى ـ شهرته فى أمن الدولة ـ ماله وما عليه ـ الحياة مزيج من خير وشر ـ بطولة الحجاج فى نشر الاسلام ـ صيانته لكتاب الله ـ بلاغته وفصاحته ـ حاجة عصره اليه ـ قبيلته وبيئته ـ عظمة آبائه وأجداده ـ ظهوره فى حرس الخليفة ـ تعرف عبد الملك بن مروان بالحجاج ـ حزمه فى علاج الأمور ـ حصافة رأيه ـ الحادثة الأولى فى تاريخه ـ تقديسه لواجب الجندية ـ صفات الجندى البارزة ـ كلماته المأثورة .

* * *

أيها المستمعون الكرام :ـ

سلام عليكم ـ تتحدث الآن عن رجل ، اجتمعت له صفات من العظمة والبطولة ، حتى لقد استطاعت أن تصون الملك للبيت المروانى ، ولولا هذا الرجل لهوى العرش ، ولتحطم التاج ، ولتغير وجه التاريخ .

ولقد اجتمعت لهذا الرجل أيضا صفات من الخير ، ونقائب من الفضل ، كان لها أبعد الآثار فى الفتوحات الاسلامية ، وفى اعلاء كلمة الله ، وفى نشر دينه ، فى بلاد بعدت شقتها ، واستعصى ـ الا عليه ـ اخضاعها ... ومن عجب أن هذا الرجل لا يذكر اسمه الا ويذكر معه الدم المسفوك ، والظلم العبقرى ، والشر العريق ، كأنما هذا الرجل قد وفد على الدنيا شيطانا فى اهاب انسان ، وان هذا لإسراف فى ظلم « الحجاج » ، من أناس ، يرمون الحجاج نفسه بالظلم .

سنتحدث عن هذا الرجل ، عن الحجاج بن يوسف ، فنذكر ماله وما عليه ،

نذكر صفاته وخلائقه ، نذكر آثار هذه العبقرية ، وفضلها على الفتح الاسلامى ، ونذكر ضروبا وألوانا من حذقه ومهارته ، وسياسته ، كما نذكر ألوانا وضروبا من صرامته وشدته وقسوته ، ونبسط بواعث ذلك لديه ، وأسبابها عنده ، ثم نردّدُ دائما :— (ومن ذا الذى ترضى سجاياهُ كلُّها) وأى عظيم ، وأى قائد ، وأى رجل كان وجوده فى الدنيا شرا محضا ، وكانت حياته مجموعة من المآسى والمظالم ؟ !! لا يعرض له الخير فى يوم من الأيام ولا يبدو له أن يحسن زمنا من الأزمان • ان هذه الحياة لهى مزيج من خير وشر ، وان سِيَرَ العظماء ، ليعتورها النقص ويشوبها الانحراف ، ولقد يصدر عن العظيم ما يرفعه الى مستوى الكمال ، ثم قد يصدر عنه مايهوى به الى مستوى الاسفاف ، وهكذا تختلط الأعمال الصالحة بالأعمال السيئة ، ولكن ليس من الحق أن تنطمس كل الحسنات بما يكون من سيئات ، والله أحكم الحاكمين وأعدل العادلين • يقول :— (خَلَطُوا عملاً صالحا وآخرَ سيئاً ، عسى اللهُ أن يتوبَ عليهم) •

فمن أعظم المجازفات أن يُرمى رجل بالكفر والجحود ، وله فى نشر الاسلام هذا الأثر الطيب ، وهذا البلاء الحسن ، وهذا المجد العَطِر ، وله فى صيانة القرآن من التصحيف هذا العمل الباهر الذى لم يُسبق اليه ، وله من بوارع الحكم ، وآيات البلاغة ، وروائع العظات أساليب خالدة فريدة •

ان الحجاج بطل عربى ، وعلم من أعلام الدول الاسلامية ، أنقذ دولة كادت تعصف بها العواصف ، وقضى على فتن — لولاه — لافترست الأمة حروبٌ أهلية لايُعرف مداها ولا عقباها ، فكأنما اختارته العناية الآلهية وندبته لوقته ولزمنه لكى يجمع الشتات ويعالج الفرقة التى تمشت فى جسم المجتمع ، ثم يدفع بالجيوش الاسلامية بعد ذلك فى أنحاء الأرض ، ليحقق وعد الله ، وليظهر دين القيّمة ، على أيدى قواده ، وعترته من أمثال محمد ابن القاسم ابن عمه ، الذى فتح السند ، ونشر التوحيد •

* * *

لم يكن الحجاج من بيئة خاملة ، ولم ينشأ من أصل مغمور ، وانما هو كما يروى (ابن خلّكان) :— الحجاج بن يوسف بن الحكم بن عقيل ، من ثقيف ، وموطن ثقيف (الطائف) وهى واقعة فى شَرَف يانع ممرع من الأرض ، والطائف الى اليوم مصطاف مكة .

وبيت الحجاج من ثقيف فى المكان الشريف العظيم النسب ، فان المبرّد يروى:— أن جده لأمه ، هو عروة بن مسعود الثقفى ، وهو أحد الذين عدتهم قريش" عظماءَ ، جديرين بالنبوة ، وقد حكى القرآن الكريم فى جدال قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم :— (وقالوا لولا نُزّلَ هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) والقريتان هما مكة والطائف ، وأحد الرجلين المقصودين (عروة بن مسعود) جد الحجاج .

* * *

وقد ولد (الحجاج) سنة احدى وأربعين من الهجرة ، أول عهد معاوية ابن أبى سفيان ، وعرف فى حداثته وهو بالطائف — بأنه كان يثقف الشباب ، ويعلمهم القرآن ، وتعليم القرآن يومذاك ، هو آية على نباهة الشأن ، وعلى توفر الرأى والعقل ، والامتياز على الأقران ، وكيف !! وكل ثقافة للمجتمع الاسلامى كانت تنتهى الى القرآن ، والى تعرف أسراره ، وتقويم الألسنة بأساليبه ...

ثم يظهر (الحجاج) بعد ذلك جنديا فى شرطة (روح بن زنباع الجذامى) وروح يومذاك ، هو رئيس الشرطة لعبد الملك بن مروان — يظهر الحجاج — ظهور الجندى الممتاز ، الذى يملأ العين والفؤاد ، ويتوسم فيه رئيسه (روح بن زنباع) مالا يتوسمه فى أمثاله من الجنود ، يتوسم فيه النظام والطاعة ، والفناء فى أداء الواجب ، وفوق هذا يلحظ لديه شجاعة وبسالة واقداما وثقة بالنفس .

وتشاء الأقدار أن يتعرف عبد الملك بن مروان بهذا الجندى ، لكى يعهد

اليه بالخطير الجليل من شؤون الدولة ، التى كانت تمزقها الثورات .

وقصة تعرف عبد الله بالحجاج ، وهو لم يزل جنديا ، قصة طريفة ، تبين أنه اذا ما أراد الله أمرا هيأ له الأسباب والوسائل ، وأبرز للعيان ماقدره من قبل تقديرا .

أخذ عبدالملك يسد الثغرات التى تفتحت فى مُلك بنى أمية ، وأقربها اليه (قنّسرين) التى خرج عاملها عن سلطان الدولة (وهو زفر بن الحارث) ثم تحصن فى شمال العراق ثائرا محاربا ، وخرج عسكر عبد الملك لهذا الأمر الخطير ، غير أن هؤلاء الجند كانوا متخاذلين جامحين ،فكانوا يتثاقلون اذا نزلوا مرحلة من المراحل ، وضجر عبد الملك وشكا الأمر الى روح رئيس شرطته ، فما كان أسرعه الى ذكر (الحجاج) أمام عبد الملك ، ثم بسط صفاته ومواهبه كما عرفها ، فبادر عبدالملك ، وولى الحجاج رئاسة العسكر ، فلما اضطلع الحجاج بهذا الأمر ، أسبغ عليه من صفاته وشدته ، وحزمه ومضائه ، ماردّ على الجنود الطاعة لرؤسائهم ، والخضوع لنظامهم .

* * *

علم الحجاج أن فرقة من أتباع (روح بن زنباع) ما زالت تتباطأ عن اللحاق بالعسكر ، فهى تطيل أمدالراحة ، وتزم أمتعتها متأخرة ، « وروح » ، كان الى وقت قريب رئيسا للحجاج ، فماذا صنع «الحجاج» مع هؤلاء المتثاقلين؟ وقف أمامهم ، وقال : — ما منعكم أن ترحلوا وقد رحل أمير المؤمنين ؟ فردوا عليه ردا غير جميل ، ارتكانا على صلتهم بروح بن زنباع ، فما كان من الحجاج الا أن قال لهم هيهات هيهات !! لقد انتهى ماهنالك !! ثم أمر بهم فجلدوا بالسياط ، وطوّفهم فى العسكر عبرة ومُثلة ، ثم أمر بخيام روح ابن زنباع ، الذى يعتزون بالانتساب اليه ، فحرّق تلك الخيام ، وأباد أمتعتهم جميعا ، حتى لقد بكى (روح) لما فعل الحجاج بأتباعه ، وشكا لعبد الملك ، مافعله الحجاج بذويه وعبيده ، وقد كان من قبل جنديا فى شرطته ،

فتأثر عبد الملك ، وأحضر الحجاج ، وسأله ما حملك على مافعلت ؟ قال يا أمير :— أنت الذى فَعَلَ ذلك ! ؟ وانما كانت يدى يدك ، وسوطى سوطك ، فلا تكسر لى رأيا ، ولا فعلا فى الجند ، وعوّض لروح بن زنباع ما تلف أضعافا مضاعفة .

فأعجب عبد الملك ، من تلك اللحظة ، بهذا الرجل الفذ ، الذى يتفتّق ذهنه عن كل رأى حازم حكيم ، وأمضى رأيه كاملا غير منقوص .

* * *

لقد كان الحجاج يرى أن السمع والطاعة ، أوجب الواجبات ، فمن خرج عن الطاعة ، ومن استخف بقوانين الدولة ، فقد أباح دمه ، لا هوادةَ ولا اغضاءَ ولا غفران !! ولقد كان الحجاج يستشهد لخُطته هذه بقول الله تعالى (فاتّقُوا الله ما استطعتم ، واسْمَعُوا وأطيعُوا) فليس لأحد لديه عذر اذا هو خالف عن أمره . وكان يقول :— لو قلتُ لرجل ادخل من هذا الباب ، فلم يدخل ، لحلّ لى دمه .

* * *

وكان يخطب الناس فيقول : — (من أعياه داؤه ، فعندى دواؤه ، ان للشيطان طيفا ، وللسلطان سيفا ، فمن سقمت سريرته ، صحّت عقوبته ، انما أفسدكم ضعف وُلاتكم ، ان الحزم والعزم سلبانى سوطى ، وأبدلانى به سيفى ، وانه لِمَنْ عصانى) .

أيها المستمع الكريم : —

هكذا كان يرى الحجاج :— الطاعةَ الطاعةَ !! والنظامَ النظامَ !! وسلامة الدولة قبل كل شىء !!! ... وسلام عليكم ...

المحاضرة الخامسة والعشرون :

حلقة من أعلام الإسلام

الفقيه الغازي أسد بن الفرات

امارة الأسطول الاسلامى ـ الروح الاسلامى يدفع بكل مسلم ـ العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ـ الفقهاء ينفرون للجهاد ـ فتح صقلية فتح للعلم وللحضارة وللفنون ـ الاسلام يمزج العناصر ـ مولد أسد بن الفرات ـ تاريخ مولده ـ نشأته العلمية ـ تصدره للتدريس ـ رحلته للتعلم والتعليم ـ روايته لمذهب مالك ـ الموطأ ـ اتصاله بأصحاب أبى حنيفة ـ عودته الى القيروان ـ الدولة الاسلامية ـ بنو الأغلب ـ غزو (صقلية) ـ مسارعته الى الغزو ـ فى حدود السبعين يقود الحملة للفتح ـ خطبته الرائعة فى الأسطول ـ قيادته للمعركة ـ الانتصار ـ حصار العاصمة ـ اتمام فتح الجزيرة ـ استيلاء المسلمين على جنوب ايطاليا ـ بلوغهم ضواحى (رومة) ـ البابا « يوحنا » يدفع الجزية ـ المسلمون سادة البحر ـ آثار المسلمين فى صقلية .

* * *

أيها المستمعون الكرام :ـ

هذا الحديث ، يلمّ المامة سريعة ، بسيرة بطل من أعلام الاسلام ، الذين أحدثوا فى تاريخ الفتح الاسلامى أثر بعيدا ، فقد اجتمع لهذا العظيم الى فقه العلماء ، بطولة الفاتحين ، وهو « أسدُ بنُ الفرات بنُ سِنان » الذى تولى امارة الأسطول الاسلامى ، فى غزو صقلية ، ثم ذهب شهيدا أمام أبواب عاصمتها ، فأتم قوادُه هذا العمل العظيم .

والحديث عن أسد بن الفرات ، حديث ممتع حقاً ، فانه يرينا ما فعلت روح الاسلام ، فى هؤلاء الفاتحين ؟؟ لقد دفعت بهم جميعا علماء وفقهاء ومحدّثين وجندا الى ساحات المجد والفخار ، فى البر والبحر ، يطلبون العزة

لله ولرسوله وللمؤمنين ، لم يقعدهم الدرس ولا ناءت ظهورهم بالفقه ، وانما نفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ...

* * *

انّ فتح (صِقِلِّيَة) بيد المسلمين ، وعلى رأسهم ، الفقيه العالم ، بل شيخ الفتيا (أسد بن الفرات) كان فتحا للعلم وللحضارة ، وللفنون والصناعات فى هذه الجزيرة !! بل لقد كان مؤذنا فيها بنهضة شاملة ، قامت على أيدى الفاتحين ، وسلالة الغازين ، وأبناء المسلمين ، من كل عالم وباحث وشاعر ، وحكيم ، ومهندس ومؤرخ ، وقائد ، ممن أنجبتهم (صقلية) الاسلامية .

ان الاسلام قد مزج الشعوب مزجا عَجَبا ، ودفع بكل مسلم من أى قطر لكى يؤدى رسالة دينه ، ورسالة الحق ، حيثما وجد لذلك سبيلا — (فأسدُ بن ا لفرات — أصله من (حرّان) بديار بكر ، ولد سنة خمس وأربعين ومائة من الهجرة ، ثم انتقل الى (تونس) فكانت هناك نشأته العلمية الفقهية أخذ عن الفقيه المالكى (علىّ بن زياد) ، ثم تزوّد من الحديث والأثر ، وقد ظهرت بوادر نبوغه ، فما لبث أن جلس يعلّم ويتصدر للتدريس (بتونس وبالقيْروان) ، ثم علتْ به همتُه ، ورغب فى الرحلة للقاء العلماء من الأقطار الأخرى .

قصد الى المشرق ، فأدرك الامام (مالكا) ، وسمع منه (المُوَطَّأ) وروى عنه مذهبه ، ثم رأى أن يقارن بين هذا الفقه وبين فقه آخر ، عُرف بفقه الرأى والقياس ، فسافر الي العراق ، ولقى القاضى « أبا يوسف » ، و « محمد بن الحسن » ، صاحبى أبى حنيفة ، فنقل عنهما فقه الحنفية ، وناقش الأصول والقواعد التى جُعلت أساسا للمذهب الحنفى ، وكما نَقَل هو عن أبى يوسف ومحمد ، نَقَلاهما عنه أيضا موطأ الامام مالك . ثم عاد (أسد) الى موطن علمه وفقهه القيروان (بأفريقية) وقد أفاد علما

وفهما وحذفا ومقارنة بين المذاهب ، ثم شرع يضع للمجتمع فى البلاد الافريقية، أساس الفقه فى المعاملات ، ويُبيّن ما قامت عليه الشريعة الاسلامية من أصول وقواعد ، والناس مأخوذون بعلمه عاكفون على درسه ، وبينما هو مشغول بالعلم والتعليم ، فى ظلال الدولة الافريقية الناشئة (دولة بنى الأغلب التميميين) ، الذين استقلّوا بالأمر فى تلك الرقعة ، وكانوا من قبل عمالا عليها للخلفاء العباسيين — بينما الشيخ يعلو صيتُه ، وترتفع شهرته ، حتى لقد أطلقوا عليه (شيخ الفتيا) واذا (بزيادة الله) ابن الأغلب ، يهيىء لغزو (جزيرة صقلية) ويعتزم فتحَها للمسلمين ، والعهدُ عهدُ (المأمون) الخليفة العباسى ، فيَهبُّ الشيخُ « أسد بن الفرات » الى الجهاد والغزو ، تاركا درسه وأقلامه ومحابره ، راغبا فى هذا الشرف المتاح له ، والشيخ يومئذ يضرب فى حدود السبعين من عمره ، فيالله !! ما أبعدَ هذه الهمم ، وماأعز هذه النفوس !! وانظروا كيف طلب الشيخ أسدأن يُقْبَلَ متطوعا ، جنديا من أجناد الأسطول الغازى — لم يطلب غير ذلك ؟! .

لكنَّ (زيادةَ الله) يعرف للشيخ قدره وعزمه ومضاءه ، فيعيّنه أميرا على الجيش الغازى ، وبذلك يجتمع (لأسد بن الفرات) مشيخة القضاة ، وأمارة الجيش ، ثم يخرج (أسد) الى مقر الأسطول الاسلامى الافريقى (بسوسة) فى يوم مشهود ، والناس يتزاحمون من حوله ، ويتنافسون فى طلب الغزو والجهاد معه .

* * *

تجمعت المراكب ، وتكاثفت الجموع ، وحشدت الخيول ، ودقت الطبول ، ونشرت الألوية ، وخفقت البنود ، والناس فى شوق وفرح الى الموقعة ، قد تملكتهم نشوة الفتح ، وتمثل أمامهم مجد النصر ، فلما رأى (أسد) هذا المشهد الرائع ، أخذته الاريحيّة ، وارتقى السفينة التى أعدت له، ووقف خطيبا ، يتحدث عن عصاميته ، ويركّز فى عقول الناس والجند انه

مدين" بما هو فيه من مكانة وعلو" شأن ، وأمارة جيش — مدين فى هذا كلّه لشىء واحد — للعلم والدرس والبحث — فالعلم هو الذى رفعه ، والدرس هو الذى مجّده ، فلم يكن من آبائه قائد ولا حاكم ولا وال ولا أمير ولا سلطان ...

خطب (أسد) هذه الخطبة التى تثير النخوة ، وتبعث على الثقة بالنفس ، فقال :—

(أيها الناس ، واللهِ ما وَلِيَ لى أب" ولا جدّ" ولاية" قطّ" ، وما رأى أحد من سَلَفى ما رأيت ، ولا بلغ ما بلغت ، وكلّ" الذى أعدّنى وهيّأنى ، قلمى وعلمى !! فأجهدوا أنفسكم وأتعبوا أبدانكم فى طلب الحق ، وفى تدوين العلم ، وكابدوا واصبروا على كلّ" الشدائد ، فانكم بذلك تنالون فخر الدنيا وسعادة الآخرة) ...

سار الأسطول مزوّدا بهذا الايمان ، محصنا بهذا اليقين ، حتى بلغ شواطىء (صقلية) ثم شرع (الشيخ أسد) يقود المعركة ، فدك حصون الجزيرة ، وهدم قلاعها ، وما زال يثخن فى الأعداء ، حتى بلغ العاصمة (سرقوسه) فحاصرها ، ومات على حصارها ، تاركا لقواده وجنده اتمام الفتح ، وقد ولى الامارة من بعده على الجيش (ابنُ أبى الجوارى) فأتم الفتح ، وأرضى روح الشيخ (أسد) فى مستقرها ، بجوار ربها .

* * *

لقد انهزم الروم ، أمام جيوش المسلمين هزائم متتابعة ، وتم للمسلمين الاستيلاء على (بلرم) و (مسينة) وكان العرب يسمونها (مَسّينى) وفى ذلك يقول شاعرهم (من ذا يُمَسّينى على مَسّينى ؟؟) .

ولقد كان الفتح سبيلا لانفتاح آفاق جديدة ، أمام عزائم المسلمين ، فاستولوا بعد ذلك على جنوب ايطاليا ، وبلغوا فى تقدمهم ضواحىَ (رومة) ولم يرجعوا الا بعد أن وعدهم البابا (يوحنا الثامن) بدفع جزية لهم ...

وهكذا صار المسلمون سادة البحر المطلقين بفتحهم (صقلية) ، وأهم جزائر ايطاليا ، ولم يَسَعْ (البندقية) الأن تعدل عن محاربتهم لزمن طويل .

* * *

لقد أدخل المسلمون الى (صِقلِّيَةِ) زراعة القطن ، وقصب السكر ، والزيتون ، وحفروا الترع والقنوات ، التى لا تزال باقية ، واستغلوا الثروة الطبيعية فى الجزيرة فاستخرجوا منها بأساليب فنّية ، الفضة والحديد ، والنحاس والكبريت والرخام ، والجرانيت ، وأدخلوا اليها صنع الحرير ، ولايزال بعض المتاحف يحتفظ برداء من الحرير ، كان يلبسه ملوك صقلية ، وهو مطرز بكتابات كوفية مع تاريخ سنة ٥٢٠ هجرية .

ومن المبانى الاسلامية الشامخة الباقية فى (صقلية) (قصر العزيزة) و (قصر القبة) القائمان بالقرب من (بلرم) .

ويروى (جستاف لوبون) صاحبُ « حضارة العرب » (أن أمامة الثقافة والصناعة بقيت للمسلمين حتى سنة ١١٩٤ أربع وتسعين ومائة والف ميلادية ، وكانت المراسيم تكتب بالعربية) .

* * *

أيها المستمع الكريم :—

لقد أنجبت صقلية الشاعر المبدع « ابن حمديس » ، وهو يقول فى موطنه (صقلية) بعد أن عدت العوادى عليها : —

ذكرتُ صِقلِّيـــةً والأسى يهيّج للنفس تذكارها
فإن كنتُ ، أُخرجتُ من جَنّةٍ فإنى أُحـــدّث أخبارها

* * *

أيها المستمع الكريم : —

لقد كان أسد بن الفرات يقول ، (أنا أسدٌ — وهو خير الوحوش ، وأبى الفرات — وهو خير المياه — وجدّى سنانٌ وهو خير السلاح) .

ألاَ حيا الله أسد بن الفرات ، ونضرّ وجهه ، ونفع المسلمين بسيرته ..

المحاضرة السادسة والعشرون :

ذكريات عن سعد (١)

الزعيم الخالد

موت العظيم حياة لأمته ـ خاصة (سعد) ورفقته ـ السفر الأخير الى بساتين بركات ـ تألق (سعد) فى أيامه الأخيرة ـ من بساتين بركات الى مسجد وصيف ـ بدء الوعكة ـ سريان المرض ـ قوة الحياة تقاوم المرض ـ رؤيا منامية يقصها (سعد) ـ توجسى خوفا عليه ـ الأرق يشتد على سعد ـ التفاؤل والتشاؤم ـ الانتقال الى بيت الأمة ـ الساعة الرهيبة ـ الحدث الجلل ـ الوفاة ـ (سعد) أمام عينى ـ (سعد) فى منصة الخطابة ـ نبرات (سعد) ـ خطبة خالدة ـ وصف شعرى للرحلة الأخيرة ـ مطالعات سعد ـ اختبار الرجل قطعة من عقله ـ رحمة الله على (سعد) .

★ ★ ★

أيها المستمعون الكرام :ـ

عشرون عاما ، مرت ، على الليلة الليلاء ، التى غيبت (سعدا) تحت اطباق الثرى ، جسما وصورة وهيكلا ، ونشرته ـ بل خلدته ـ بين جوانح كل مصرى ـ بطولة وعظمة وفكرة وتاريخا ، وهكذا ، قضى ربك أن يجعل من موت العظيم حياة دائمة لفكرته ، وخلودا لسيرته ولسنته .

واذا كان أبناء الوادى جميعا ، قد تقاسموا بينهم الحزن والأسى فى يومه المكفهر العصيب ، فقد نالنا نحن الحواريين الذين صحبوه فى رحلة الوداع ، فى شهر يوليو سنة ١٩٢٧ ، نالنا من المصاب ضعفان ، ونزل بنا من الهم نصيبان ، فليس أنكى من مأتم فى ليلة العرس !! ...

(١) أذيعت هذه المحاضرة فى يوم الذكرى لوفاة « سعد »

صحبنا « سعدا » الى بساتين بركات ، وهو يتألق بيننا فى هالة من مهابة وجلال وبشر وايناس ، يتفكه بأشهى الأحاديث ، ويرسل فى السياسة والتاريخ ، كل حكمة وكل غريبة من مطويات صدره ، ومكنونات عقله وفكره . ويرحم الله « شوقى » اذ يقول فى (سعد) :—

اين منى صفحة ضاحكة تأخذ النفس وتجرى فى مداها ؟!

فهل كنا ندرى ما خُبِّىءَ لنا ، ولمصر ؟؟ بعد أيام من تلك الرحلة المرحة ؟؟ اللهم . لا . « وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت » .

★ ★ ★

رأينا « سعدا » على ظهر الباخرة الى بساتين بركات فى يوليو سنة ١٩٢٧ ، أوفرَ ما كان صحة ، وأبهج ما كان نفسا ، وأطرب ما كان وجدانا ، يشركنا فى دعاباتنا ، ويطيل السهر بيننا فى فكاهاتنا ، لا يمل ولا يضجر ولا يتبرم ، ورأيناه ينتقل من بساتين بركات الى مسجد وصيف لا يحفل (بالحُمْرَ)[1] التى نزلت بأذنه ، بل لقد كان « سعد » يتجلد للوعكة ، ويتغافل عن آلامها ، بل يتحدى فداحة الآلام التى كانت تعاوده ، ثم يمضى فى مسجد وصيف الى ما كان عليه من أنس وبشر وحبور ، حتى يشتد به المرض ، وهو يستعصى على المرض ويصارعه ، ولقد رأيته والمرض يغالبه صبيحة يوم ، ينزل مبكرا ، ويقص علينا ما رآه فى النوم من أحاديث جرت له مع أقربائه وأصدقائه الذين ماتوا من قبل !!!... فيأخذنى لذلك ارتياع ورهب وخوف .

ويقول « سعد » اننى لا أنام ، بل أهوّم تهويما ، فأرى . (قاسما امينا) ، وأرى (أخى فتحيًا) ، وأرى أمواتا لا عهد لى برؤيتهم !!! وليس ذلك بمزعجى ، ولكن جزعى من نفور النوم ، وقلة الراحة ، ويحضر « حافظ ابراهيم » عندئذ ويستمع الى شكوى (سعد) فيقول له ، وهل النوم ضرورى :—

---

(١) هو المرض الذى قضى على الزعيم ....

(ان تحت التراب نوما طويلا) فما يكاد ينتهى « حافظ » مما ظنه ترفيها عن « سعد » حتى يأخذنا جميعاً وجوم واطراق !!!... ثم يحتجب عنّا « سعد » بعد ذلك ويبقى فى مخدعه ، حتى يأتى اليوم الأليم ، الذى ينتقل فيه من (مسجد وصيف) الى بيت الأمة ، وقد اشتد المرض ، وجثم الخطر ، ووضع كل مصرى يده على كبده وعلى قلبه ، من حزّ الألم ، ووقدة الجوى ، ثم تجىء اللحظة الرهيبة ، ونحن نملأ بيت الأمة ، تتسقط تقارير الأطباء ، بل لقد كان كل مصرى ، وكل قاطن فى القاهرة ، يتحسس الأنباء ، ويرجو رحمة الله ، ويستبعد عدوان الموت على « سعد » الذى قهر الأحداث ، وأملى ارادته على الأيام !!!...

وفى برهة حالكة ، تستدعى أم المصريين ، (فتح الله بركات باشا) ليصعد اليها ، فيصعد ، ويمكث غير بعيد ، ثم ينزل الينا ...!!! مهدّم الكيان ، بادى الجزع ، يحاول أن يكفكف الدمع ، فيتفجر الدمع ، ثم تهتز مصر بل تهتز أقطار العالم ، بأن « سعدا » قد انتهى ....

وفى الحق — أن سعدا اذا كان قد انتهى أنفاسا ، وذاق الموت ، كما كتب الله فى محكم الذكر (كل نفس ذائقة الموت) فان سعدا لم ينته ذكرا ، ولم ينته أثرا ، فكل المصريين اليوم (سعود) كما قالها سعد .

ولكأنى الساعة — وبعد عشرين عاما — انظر الى (سعد) وهو رئيس مجلس النواب ، والجلسة الأخيرة تختتم ، والدورة البرلمانية تنتهى ، وذلك فى مساء الخميس الخامس عشر من المحرم سنة ١٣٤٦ (١٤ يوليو سنة ١٩٢٧) — كأنى أرى الآن (سعدا) يغادر منصّة الرياسة ، ويدلف الى منبر الخطابة ، فيتكلم كلاما حكيما ، ويودع وداعا مؤثرا ، ولا يدرى هو ، ولا ندرى نحن !! أن الأقدار بمرصد لنا ، وانه لم يبق من الأجل الا أيام معدودات .

* * *

لكأنى الآن « بسعد » يخطب خطبة الوداع ، بنبراته الحلوة ، وايماءاته

الرائعة ، وصوته القوى المجلجل ، كأنى بقامته المعتدلة ، وصدره البارز !...
ووقاره المهيب ، كأنى به وهو يقول . اخوانى : (جئت الى هـذا المكان
— أى منبر الخطابة — لسببين :—
« الأول — لأنكم تسمعون منه بسهولة أكثر مما تسمعون من كرسى »
« الرياسة . »
« والثانى — لأنى أجد سرورا فوق المنبر ، أكثر مما أجده فى هذا المكان »
« العالى — وأشار الى منصة الرياسة — ثم قال (سعد) : »
« اخوانى — ان مجلسكم فى مركز من أدق المراكز وأحرجها ، بـل »
« لا أعرف فى العـالم مجلسا نيابيا أحرج مركزا منه ، لأنه أحيط من يوم »
« نشأته برؤوس ماكرة ، وعيون غادرة !! ... »
« أحيط بأقلام جرت وستجرى بتشويه سمعته ، وتسوىء سـيرته ، »
« ونسبت كل المعائب اليـه ، وقلبت كل محاسنه سيئات ، وأحيط بألسنة »
« تدور بمعائبه ، وباختـلاق الأكاذيب عليه ، ومن وراء هؤلاء وهؤلاء ، »
« قوى تسند كلا ... »
« الى أن قال (سـعد) : « ... يرمونكم بالخضـوع والخنوع »
« والاستسلام ، بل بالاستعداد لبيع حقوق البلاد !! وما بكم من خنوع »
« ولا خضوع ، ولكنكم لستم أطفالا تلعبون بالسياسة ، وانما أنتم رجال »
« مسؤولون ، يجب أن يكون فى رؤوسكم حكمة ، وفى سيركم اعتدال ، »
« على أنكم تسيرون سـير الحكمة ، ولا تريدون أن تعرضـوا بلادكم »
« للدمار ...!! هذه ليست سيرة الخضوع ، ولكنها سيرة الرجال العقلاء ، »
« الذين يقدرون مواقفهم حق قدرها ، ولا يقدمون على أمر قبل أن يحسبوا »
« حسابه ، ولا يفعلون شيئا الا بمقدار ...!! »
« ما أنتم بتجـار فى الوطنية ، ولا بباعـة أقوال ، بل أنتم رجـال »
« مسؤولون ، يجب عليكم قبل أن تتكلموا أن تحاسبوا أنفسكم وضمائركم »
« على ما تقولون وتقررون ... !! ودعـوا أولئك الذين لا يمثـلون »

« الا أشخاصهم ، والذين لفظتهم الأمة ، وباءوا بالخزى المبين ، دعوهم »
« يتكلمون ما شاءوا ، فهم مهزولون مخذولون ، ولا يمكننا أن نفعل بهم »
« أكثر مما فعل الله بهم ... الى أن قال (سعد) والآن استودعكم الله »
« جميعا وأسأله لكم الصحة والعافية ، وأرجو أن أراكم قريبا ، وأن يهيىء »
« الله جل وعلا لى من القوة ما يعيننى على مشاركتكم فى خدمة البلاد ، »
« حتى نصل بها الى مانوده جميعا . »

* * *

سمعنا من سعد ذلك الخطاب الحار ، وهو يودع به الدورة ، بل القاعة ، بل يودع الدنيا ، وفى تلك الليلة ، أخذنا نتأهب للرحلة فى صحبة (سعد) الى بساتين بركات ، ثم الى مسجد وصيف .

وفى الصباح المبكر ، أقبل الرفاق ، الذين اختارهم « سعد » فى رحلته يأنس بهم ، ويرتاح اليهم ، ويرسل نفسه على سجيتها معهم ، وهم : أحمد ماهر ، والنقراشى ، وفتح الله بركات ، وعبد الله أباظه ، وحافظ ابراهيم الشاعر ، وصبرى أبو علم ، وعبد الرحمن عزام ، وفخرى عبد النور ، وعثمان محرم ، ومحجوب ثابت ، ثم عبد الرحمن الجديلى .

وأقبل سعد ، وأم المصريين فصعدا الى ظهر الباخرة ، والناس يسارعون من كل حدَب ، ويملأون ضفتى الترعة الاسماعيلية ، والمنظر أخاذ ، والدنيا بهجة ، واليوم مشرق ، والبشر ينبعث من صفحات الوجوه .

وبلغنا بساتين بركات ، فاذا نعيم ونعيم عين ، حياة هنيئة ، وعيشة راضية ، وقطوف دانية ، وفاكهة لا مقطوعة ولا ممنوعة ، و « سعد » يطيل المفاكهات والمداعبات ، حتى اذا عسعس الليل . وطلبت أم المصريين من « سعد » أن يستريح قال « سعد » مشيراً لأم المصريين :— هذا هو الرقيب العتيد ... ثم يطلب الينا الا ننصرف نحن ، وان دخل هو الى مخدعه بل نبقى كما كنا نتحدث ونمرح ، وهو يستمع الينا من نافذة حجرته ، امعانا منه فى المشاركة ، ورغبة فى الاستزادة من السمر .

وانى أدع لحافظ ابراهيم تصوير تلك الليالى المترعة بالسرور ، قال حافظ :—

لما مددنا ، بساط اللهو ، وانبعثت نوافح الأنس ، تزرى بالرياحين
أغنت شمائل « سعد » عن معتّقة من العناقيد ، تسرى فى الشرايين
وارتشفنا سجاياه على ظمأ ألذّ ، من رشفات الخرد ، العين
فى أنس « سعد » وفى أوفى دُعابته ترى جلالا ورأياً غير مأفون
لما مَثَلْتُ على « سعد » ورفقته رأيت بين الندامى وجه هرون
رأيت وجهاً صبوحاً حوله نفر من البهاليل ، من شم العرانين
إذا دعاهم إلى الجُلّى ، رأيتهمو على أعاديهم ، مثل الشواهين
وإن دعاهم إلى أنس رأيتهمو مثل الحمائم فى خفض وفى لين
قد كنت فى نعمة ، لو أنها بقيت لخلت أن جنان الخلد تحوينى

* * *

وفى ليلة من ليالى مسجد وصيف ، طلب « سعد » أن أصعد اليه فى حجرته ، فصعدت واذا كتب ومجلدات ، فسلمت وجلست ، فطلب الى أن أفتح المجلد الذى أمامى ، ففتحت فاذا جزء من العقد الفريد واذا علامة على موضع كان (سعد) يقرأه من قبل ، فأمرنى أن أقرأ :— فقرأت :— روى الأصمعى • أن اعرابيا ، وقف عشية عرفة ، وقال ، اللهم ان لك عندى حقوقا فتصدق بها على ، وللناس قبلى تبعات فتحملها عنى ، وقد وجب لكل ضيف قرى ، وأنا ضيفك الليلة ، فاجعل قراى فيها الجنة ••• »

فما كدت أقرأ وأنتهى من هذا الخبر ، حتى قال « سعد » أرأيت هذا البيان الموجز ، والمنطق القاطع ، والدعاء الذى لا يرد ؟؟ ، فقلت يالله !!! ان اختيار المرء قطعة من عقله ، وان الطيور على أشكالها تقع ، وان سعدا

المنطيق ، وان بيان « سعد » لمعجز ، وان دعاء الأعرابى ليتسق مع عقل (سعد) ، ومع صدق سعد ، ومع اخلاص سعد !!! .

* * *

رحمة الله على سعد ، وسقيا لعهود « سعد » ، وان روحه الزكى الطاهر ليحق له اليوم أن ينعم وأن يسعد فى أعلى عليين .

المحاضرة السابعة والعشرون :

مجد المرأة وكرامتها
فى كنف الإسلام

اهتمام المشرع الاسلامى بشأن المرأة ـ القرآن يحمى انسانية المرأة ـ أمثال من تكريم الرسول للمرأة ـ استعداد المرأة للفضائل ـ ينابيع البر فى طبيعة النساء ـ رسول الله وابنة حاتم الطائى ـ نهى الرسول عن زجر النساء ـ مزاحه (عليه السلام) مع مربيته (أم أيمن) ـ سيرة الأم عنوان الأولاد ـ المرأة الصالحة تنجب الأفذاذ ـ حقوق المرأة ـ تفكير المرأة اليوم ـ خطيبة النساء لدى رسول الله ـ تعرف ما للمرأة وما عليها ـ اعجاب الرسول ببيان المرأة ـ بناء المرأة للأبطال .

* * *

أيها المستمع الكريم : —

تلقينا رسالة كريمة من الشام ، بأن نوجّه الحديث الى شؤون المرأة الاسلامية وما لها من آثار فى تكوين الأسرة ، واعداد الأمة ، ويستعدُّون فى تلك الرسالة أحاديثَ الاذاعة لتصدّ عن المرأة المسلمة اليوم الفتنة الطاغية العاتية !!! . وها نحن بعون الله وتأييده نأخذ سبيلنا فى شؤون المرأة المسلمة ، وبيان ما ارتفعت اليه من كرامة ، وما تهيأ لها من كمال ، وما أتيح لها من مجد ، حتى كان لها أبعدُ الآثار فى المجتمع الاسلامى علما وخلقا وحزما ورأيا . هذا الى ما أنجب نساء المسلمين من أبطال سعدت بهم الدنيا . وعزت بهم الفضيلة : —

* * *

أيها المستمع الكريم : —

أولُ ما عُنى به الاسلام فى رفع مكانة المرأة والتعريف بمقامها أنْ

قد قضى على المعنى المَهين الذى أقره الحُمق فى المجتمع قبل الاسلام !! ، وهو استحياءُ الذكور وتقتيل الاناث استهانة بشأن النساء ، واستنكارا لحقوقهن ، ولقد كان قضاء الاسلام على هذه المَأْثَمة قضاء حاسما ، نزل به الوحى السماوى فى أساليبَ شتى ، من كل زاجر رادع ، واستمعوا اذْ يؤنب الوعيدُ وائدَ البنات ، فلا يخاطبه ولا يسائله احتقارا له ولما فعل !! بل يسائل البريئة المظلومة :

« وإذا الموءودةُ سُئِلت بأىّ ذنبٍ قُتِلَت ؟ » .

انه لبيان رائع فى تصوير بشاعة الجريمة واحتقار المجرم ، وتركه مذموما مدحورا !!! انه لبيان لا يتاح لغير القرآن ... ثم يسجل التنزيل الخسران والجهل والغَباء على هؤلاء الآباء الأشقياء :

(قَد خَسِر الذين قَتَلوا أولادَهُم سَفَهاً بغير عِلم وَحَرَّمُوا ما رَزَقَهُمُ اللهُ افتراءً على الله — قد ضَلُّوا وما كانُوا مهتدين) .

ثم كان فعل سيدنا رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وتشريعه العملى يُلقيان على الأمة أبلغَ الدروس فى الرّفق بالفتيات وتقريبهن ومحادثتهن وحياطتهن بالحَدَب والشَّفَق والرَّحمة والحنان ...

* * *

ورد فى البخارى عن أبى قتادة قال : — خَرَجَ علينا النبىُّ صلى الله عليه وسلم يحمل « أُمَامة » بنت (أبى العاص) وامها (زينب) بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى صبية . قال فصلى — عليه السلام — وهى على عاتقه ، يَضَعُها اذا ركع ، ويعيدها على عاتقه اذا قام — وكانت أُمامة من أحب الناس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

* * *

ودخل على أهله — صلى الله عليه وسلم — ومعه قلادةٌ ، فقال :

لأُعطينَّها أحبَّكُن الىّ ؟؟ فقلن يدفعها الى عائشة !! فدعا بنتَ ابنته (أمامة) فعَقَدَها لها بيده الشريفة .

وروت أمُّ خالد بنت خالد بن سعيد قال :— أتيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم مع أبى وعلىَّ قميصٌ أصفر . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . سنه . سنه . وهى باللغة الحبشية حسنة !! قالت ، فذهبتُ ألعب بخاتم النبوة ، فانتهرنى أبى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — دعها — ثم قال عليه السلام :— أبْلى وأخْلِقى !! ثم أبْلى وأخلقى . فعُمّرت بعد ذلك ماشاء الله أن تعمر ..

بتلك الرقائق المحمدية كان يسن عليه السلام للناس معاملة الفتيات والرفق بالنساء والاحسان اليهن . وما زالت نظرة المشرع الاسلامى الأعظم الى المرأة نظرة رحيمة عاطفة . ولقد تكون المرأة على غير دين (محمد) ولقد تكون من أعدائه ثم تَفِدُ عليه أسيرةً ، فلن ترى أعذبَ أسلوبا ولا أرق خطابا ، ولا أحسن استماعا ، ولا أجمل ردا مما يخاطبها به محمد عليه السلام .

أرسل مرة فصيلة على رأسها علىُّ بن أبى طالب . فأعملت فى قبيلة طيء أسرا وقتلا ، فلما سيق الأسرى الى رحاب محمد عليه السلام . وقفت من بينهم (سفَّانةُ) بنتُ حاتم الطائى ، وقالت . يامحمد (هَلكَ الوالد وغاب الوافدُ ، فان رأيتَ أن تُخلى عنى ، ولا تشمت بى أحياء العرب ، فان أبى كان سيد قومه ، يفك العانى ، ويقتل الجانى ، ويحفظ الجار ويحمى الذمار ويفرج عن المكروب ويطعم الطعام ، ويفشى السلام ، ويحمل الكلّ ، ويعين على نوائب الدهر ، وما أتاه أحد فى حاجة فرد خائبا . أنا بنت حاتم الطائى ، فقال محمد عليه السلام ياجارية ، هذه صفات المؤمنين ، فلو كان أبوك مسلما لترحَّمنا عليه ، خلّوا عنها ، فان أباها كان يحب مكارم الأخلاق ! ثم قال :— (ارحموا عزيزَ قوم ذل ، وغنياً افتقر ، وعالماً ضاع بين جهال) ، ثم كرم قومها من أجلها تحيةً لها . فأطلقهم من اسارهم . فاستأذنته فى

الدعاء له ، فأذن لها والتفت عليه السلام الى أصحابه وقال :— (اسمعوا وعُوا ماتقول الجاريةُ) فقالت : أصاب الله ببرِّكَ مواقعَه • ولا جَعَل لك الى لئيم حاجة ، ولا سَلَبَ نعمة عن كريم قوم الا وجعَلك سببا فى ردها عليه !!!•

* * *

ولقد أبانتْ الحكمة النبوية فى تلك القصة عن مقدار ما يحويه قلب المرأة من استعداد كامل لتلقى الدِّين لو أنها صادفت المربى — الحكيم — فان (سفَّانَة) ما كادت ترى صاحب الرسالة ، وتستمع اليه حتى رجعت الى أخيها (عدىّ بن حاتم) — وهو بدومة الجندل — فقالت ياأخى — ايتِ هذا الرجل قبل أن تَعْلِقَكَ حبائلُه (تأتيه مقيدا) ، فانّى قد رأيت هديا ورأيا ، سيغلب أهل الغلبة • ورأيت خصالا أعجبتنى : رأيته يحب الفقير ، ويفك الأسير ، ويرحم الصغير ، ويعرف قدر الكبير ، وما رأيت أجودَ ولا أكرم منه ، وانه لنبى ، فللسابق فضله ، فأصغى (عدىٌّ) الى رأى أخته ، وقَدِمَ على رسول الله مُسْلماً ، ومعه أختُه مُسْلمةً أيضا •••

* * *

ولقد كان عليه السلام لا يألو أن يشرع للناس بفعاله كيف يعاملون الفتيات وان كن خادمات •••

ذهبت جارية بقطيع من الغنم فعدا الذئبُ على واحدة فأكلها ، فشرع مولى الجارية يضربها ثم انتهى أمره الى رسول الله صلى الله عليه وسلم • فاشتدَّ به الغضبُ حتى أحمر وجهه • وهاب أصحابُه أن يكلِّموه ، ووقف الرجلُ واجماً فقال عليه السلام « وما عسى الصبيّةُ أنْ تَفعل بالذئب ؟؟ وما عسى الصبيةُ أنْ تفعل بالذئب ؟؟ » ، وما زال يكررها • ثم قال : « انْ خَدَمكم اخوانُكم ، جعل الله لكم الولاية عليهم » فلم يجد الرجل فى موقفه غير أن يعتِق الجارية •

واستمعوا كيف كان عليه الصلاة والسلام فى جلالة شأنه ، وجِدِّ أمره ، يتنزل فيمازحُ جارية ورثها عن أبيه اسمها « أم أيمن الحبشية » وكانت عسراءَ اللسان وكان عليه السلام يُشرّفها فيدعوها (يا أمِّ) كانت اذا دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم تقول (سلام الاّ أليكم) تريد (سلامُ اللهِ عَلَيكُم) • فرخّص لها عليه السلام أن تقول « السلام » فقط ، ومن سَمرها مع رسول الله عليه السلام • انها قالت له وهو خارج فى جيشه الى « حنين » (سَبّت الله أقدامكم) بالسين • تريد (ثبّت الله) والسبت — القطع • فقال لها عليه السلام : — (اسكُتى يا أمّ أيمن ، فانك عسراء اللسان) •

* * *

أيها المستمع الكريم : —

حول المشرع الاسلامى رأى المجتمع فى المرأة فانقلبت أنفتُه منها ، وامتهانُه لها ، تحنانا عليها وبرّا بها ، وقدراً لشأنها ، وتقويما لأثرها ، وصار عظماء رجاله ينقّبون عن الكريمة تنجب البطل — ينقبون عنها حيثما تكون •••

روى الميدانى • أن عُمر رضى الله عنه مرّ بسوق الليل — فى المدينة — فرأى امرأة معها لبن تبيعه ومعها بنتٌ شابّة • فهمّت العجوز أن تمزج لبنها (تخلطه بالماء) فجعلت الشابة تقول • يا أمُّ ، لا تخلطيه (لا تغشيه) فوقف (عمر) فقال للأم : مَنْ هذه منك ؟ قالت ابنتى • فزوجها من ابنه (عاصما) أتعلمون كيف صارت هذه الفتاة ؟ وكيف صدقت فراسة عمر فيها ؟ لقد صارت جَدّةً لأعدل بنى أمية عمر بن عبد العزيز • فهى جَدته لأمه ، وصدقت فراسة (عمر) فى أن انجبتْ هذه النجيبة نجيبا !! لقد كانت قوية الخلق ، فأورثت ابن عبد العزيز تلك النقيبة •••

* * *

وما برحت مجالى الرحمة بالبنت ، والبر بالمرأة تتجلى من حيث كان صلى الله عليه وسلم ، حتى لقد وسعت رحمته امته نساءها ورجالها وصدق الله العظيم .

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » .

لقد بدأت تتقرر حقوق الانسانة . كما تقررت حقوق الانسان !!! وأخذت مكانة المرأة تكبر فى نفس المجتمع ، وصارت هى تعرف قدر نفسها كما حددها القرآن « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » فكن يدركن وظيفتهن فى تكوين البيوت ، وتدعيم المجتمعات . وكن يعرفن أن تلك الدرجة التى ارتفع اليها الرجل هى درجة حماية الأوطان ، وحياطة الأمة ، والضرب فى اكناف الأرض ، وتزويد الأسرة وامداد الدولة .

واليوم — وقد ارتقى تفكير المرأة المسلمة ، واتسع أفقها حتى صارت تقارن بين وظيفتها ووظيفة الرجل ، فنرجو أن تعرف حدودها ، وأن تكون فى أخذها بنصيبها من اعداد البيت موفورة الأجر ، محمودة الجزاء ، مرضيا عنها . من الله ورسوله مشاركة فيما وعد الله به عباده المجاهدين .

واستمعوا الى (أسماء بنت يزيد) الانصارية التى لقبت بخطيبة نساء العرب ورسولهن الى محمد صلى الله عليه وسلم .

وقفت أسماء عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بين أصحابه فقالت « بأبى وأمى أنت يارسول الله » . أنا وافدة النساء اليك . ان الله عز وجل بعثك الى الرجال والنساء كافة فآمنا بك وبالهك . انا معشر النساء محصورات مقصورات ، قواعد بيوتكم . وحاملات أولادكم ، وانكم معشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات وشهود الجنائز والحج بعد الحج ، وأفضل من ذلك الجهاد فى سبيل الله عز وجل . وان أحدكم اذا خرج حاجا أو متعمرا أو مجاهدا حفظنا لكم أموالكم . وغزلنا أثوابكم ،

وربّينا لكم أولادكم . أفنشارككم فى هذا الأجر والخير ؟؟ فالتفت النبى صلى الله عليه وسلم الى أصحابه بوجهه كله ، ثم قال :— (هَلْ سمعتم مسألةَ امرأة قط أحسن من مسألتها فى أمر دينها ؟ فقالوا يارسول الله ماظننا أن امْرأةً تهتدى الى مثل هذا . فالتفت النبى صلى الله عليه وسلم اليها فقال :— افهَمى أيتها المرأةُ واعلَمى مَنْ خَلفَكِ من النساء ، أن حُسْنَ تبعّل[1] المرأة لزوجها ، يعدل ذلك كلّه) فانصرفت المرأةُ وهى تتهلل ، حتى وصلت الى نساء قومها بين العرب وعرضت عليهن ما قاله لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففرحن جميعهن .

* * *

أيها المستمع الكريم :—

تقررت حقوق المرأة فى المجتمع الاسلامى ، وأخذ المشرع يبنى الأمهات على أساس الدين والفضيلة فَمَجُدَتْ المرأةُ وكَرُمت ، فخرّجت للأمة كل بطل ، وكلّ عظيم ، ولله أمير الشعر الحكيم (شوقى) اذ يقول :—

قم ابنِ الأمهات على أساس ... ولا تَبْنِ الحصونَ ولا القلاعا
فهن يَلِدْنَ للقَصَب المَذاكى[2] ... وهن يَلِدْنَ للغاب السّباعا

---

(١) تبعل المرأة لزوجها ـ قيامها بواجب الزوجية .
(٢) الخيل العتاق .

المحاضرة الثامنة والعشرون:

إكرام اليتيم ومصارف الزكاة

قصة يتيم ـ الغنىُ الطاغى ـ انتقام الله العادل ـ شكر النعمة يديمها وكفرانها يزيلها ـ حافظ ابراهيم وصيانة اليتيم ـ أمراض المجتمع يعالجها الاسلام ـ مصارف الزكاة ـ معنى الفقر ـ من هو المسكين ـ اتقوا سَمَّ الأعين ـ عمَّال الزكاة ـ المؤلفة قلوبهم ـ تحرير العبيد ـ اقتحام عقبات الحياة ـ اعانة المُثقلين بالديون ـ المسافرون الذين أعياهم السفر ـ أبناء السبيل ـ الزكاة طهارة للنفوس ـ الزكاة شفاء للمجتمعات ـ خير الأمم كما يصفها القرآن.

* * *

أيها المستمعون الكرام :ـ

يقول تعالى وهو أصدق القائلين :ـ « فأمَّا الانسان اذا ما ابتلاه ربُّه فأكرمه ونعَّمهُ فيقولُ ربى أكرمَنِ ! ! وأمَّا اذا ما ابتلاهُ فقَدَرَ عليه رزقَه فيقولُ ربّى أهانن !! . كلا . بل لاتكرمون اليتيمَ !! ولاتحَاضُّون على طَعَام المسكين » ـ ويقول تباركتْ أسماؤه « فأمَّا اليتيمَ فلا تقهرْ . وأمَّا السائلَ فلا تنهرْ » .

ويقول تقدست صفاتُه :ـ (أرأيت الذى يُكَذِّب بالدين . فذَلكَ الذى يَدُعُّ اليتيمَ ، ولا يحضّ على طعامِ المسكين) .

لقد قرئتْ علينا تلك الآياتُ الواعظاتُ . فأذكرتنا بقصة من قصص اليتامى مع بخلاء الأغنياء ...

* * *

بدأت القصةُ فى أوائل رمضان . وختمت فصولها فى أواخره . ولقد

تمّت بتمامها كلمة ربك صدقا وعدلاً ، ووقع الجزاء العادل بالغنى الباخل ، الذى أهـان اليتيم وأعرض عن تدبُّر آى الذكر الحكيم ... واليـكم القصة :—

عرفنا والدا ظاهرَ النعمة ، موفورَ الثراء ، تنكرت له الأيام فى تجارته . فلم يزل يتلقى سهما وراء سهم حتى تكاثرت السهام . فتضعضعت نفسه ، وخاب رجاؤه . وانتهت أيامه ، تاركا من خلفه غلاما فى السابعة من عمره ، يقاسى ذُلّ اليُتْم ، وآلام الفاقة ، وكان فى الحىّ الذى يأوى اليه اليتيم فِناء يتصل بدار عامرة آهلة ، وصاحبها غنىٌّ قد أغفل المال قلبَه عن ذكر الله !!! وكان اليتيم يأوى كثيرا الى فناء الدار ، يستروح مَرْحمة ، ويتحسس سعادة من يد تمسح برأسه أو بَسمة تشيع السرور فى نفسه ...

شُوهد اليتيم فى أوائل رمضان مهيضَ الجناح ، معفرَ الوجه ، لايجد من يتعهده . أو يحنو عليه ، وكان يتفرس فى وجوه القادمين والرائحين ، فلا يظفر بتلك النظرة العاطفة ، ولا يجد من بين المارين انسانا يمسح عنه الأوصاب ، أو يغسل عنه الأحزان . فلما جن عليه الليل أوى الى فناء تلك الدار الآهلة ، يلوذ ببعض الجدران ، ويتطلع الى الأنوار تنفذ من صحن الدار ، وتشاء الأقدار فى ليلة من ليالى الشهر أن يتهيأ صاحب الدار وهو ثرىٌّ ذو دنيا عريضة ، وظل ممدود ، ونعمة موفورة — أن يتهيأ لركوب سيارته !! وانه ليجتاز الفناء ، اذ بَصر بالغلام يدرج فى الفناء وبه رِعدة من الخوف ، وعليه كآبة تحزُّ فى القلوب ، وهو لا يتكلم ، ولا يشكو بل تنبعث من نظراته وتضرعاته مرارة الفاقة !!! وألم البأساء !!! فماذا صنع صاحب الثراء ؟؟ ماذا صنع وهو يصوم النهار ويُحيى الليلَ بقرّاء يقرأون كتاب الله فى داره ؟؟! لقد لَوى كشحه ، وأشاح بوجهه ، وانتهر بوابَه وصاح فيه ، كيف تسرب هذا الغلام الى هنا ؟!! وأين كنت حتى واجهنى هذا الوجه الأغبر ؟؟ وما زال بالبواب يعنف فى لومه ويشتدّ فى حسابه ، حتى تجمع حوله الناس ووقفوا يروْن لعنة الله تنصب على هذا الغنىّ الفاجر ، وهو غاضب ثائر ،

وكان أحدُ الواقفين قد ألم بكل شيء وعرف أن هذا الغنى ذا نفس خبيثة ، لم يصلح منها صيام ، ولم يلن من قسوتها تقى ولا خشوع !! فأنذره غضبَ الله وعقابه الذى لا يتخلف !! لكنَّ هذا البخيل الذميم كان أمَّةً وحدَه فى التبجح وسوء القالة !! فقد عبس واللوم يقطر من بين شفتيه ، وكأنما يقول للناس « ان الله يُحبّنى !! ولهذا أغنانى ! وأنتم لاتنقمون منى غضبى على هذا الغلام — بل تنقمون منى اننى كنت مظهر الرضا الالهى !! ان الذى اختصنى بالمال ، ونعّمنى وأكرمنى أراد ذلك لى وحدى !! ولهذا فلا شأن لكم عندى ولاتقربون . غيران لسان الحق كان يرد عليه ويصيح به ...

« أيها الغنىّ . ان غِناك وانت كما ترى لهو نقمةٌ من الله عليك ، ابتلاك به لِيَثقُل حسابُك ، وليطول شقاؤك ، ولقد حدّثنا الله فى كتابه فوصفك لنا قبل أن نراك ، وأخبر عن حديثك قبل أن نسمعك ، وبين لنا انك أنت ومن على شاكلتك تحسَبون المالَ لديكم — دليلا لرضاء الله عنكم . وانكم قد خُصصتم به دون الناس لمزية فيكم ، أو فضيلة عندكم !! . ولهذا فأنتم لا تنتظرون له زوالا !! ، ولا تتوقعون له نفادا !! . ولا تسألون :— أكان ما تعاملون به الناس شرا أم خيرا .. جحوداً أم عرفاناً » ؟؟! ...

أيها الغنىّ الأثيم ، الذى يَدُعُّ هذا اليتيم ، لقد بانت عليك علامةُ الكفران وآذنت نعمتُك بالزوال ، وقد استخلفك الله على المال ليبلوَك ويختبرَك ؟؟ أتشكره باكرام اليتيم !! ، وبذل المعروف أم تكفره بما تقوله الآن ؟؟ من هذا الهذيان !! .

جرى هذا الحديثُ ، ثم لم تدُر الأيام دورتَها حتى نُعِى الى هذا الغنى ابنهُ الأكبرُ !!! وهو يتعلم بأوربا ثم اشتد المخاض بوحيدته فأسلمت رُوحها بعد أن تركت جنينها . لايدرى ماذا ينتظره فى تلك الحياة !! .

ولقد أُقيم سرادق المأتم أمام القصر المشيد ، وشرع القارىء يقرأ « وليخشَ الذينَ لو تَركُوا من خَلفهم ذريةً ضعافا خافُوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديدا » .

وهذا اليتيم صاحبُ القصة الواعظة كان لايزال على عادته يلوذ بأكتاف المكان ، ويمدُّ بصره فى أقطاره !! وكأنه شاهد عَدلِ الله فى أمر هذا الغنىّ الفاجر ، وسَمِع الناس والمعزّون لسان الحال يقول :— هذا أول الحساب!! وستتوالى الأيام السُّود على مقدار ما أسرف الغنىُّ على نفسه ، وأساء الى اليتيم ...

* * *

أيها الأغنياء ، يامن يصومون النهار ، ويقطعون الليل يستمعون القرآن ، هذه قصة يتيم من اليتامى ، واليكم كيف كان العقاب أسرعَ من رَجْع الحديث ، ألاَ وان من أحيا نفس يتيم ، فكأنما أحيا الناس جميعا ...

ويا أيها الأغنياء . ان الشكر على النعم يديمها ، وان جحود الحق الذى للسائل والمحروم مؤذن بالزوال ، دافع الى الهاوية ، مسىء الى المجتمع . ويرحم الله « حافظ ابراهيم » اذ يخاطب المجتمع فى أمر اليتيم اذا هو تعهده ، وأكرمه ، وأصلح نفسه بالبر ، وهذبها بالحكمة ، وغذاها بالاحسان . انه يقول :—

أنت من يدريك لو أنبتّه ؟؟ ربما أطلعتَ بدراً نيّرا
ربما اطلعتَ « سعْداً » آخراً يُحكم القولَ ويرقى المنبرا
ربما اطلعتَ منه « عبدَه » من حمى الدين وزان الأزهرا
ربما اطلعتَ منه شاعراً مثل (شوقى) نابهاً بين الورى
كم طوى البؤس نفوساً لورَعَتْ مَنْبِتاً خِصْبا لكانت جوهرا
كل من أحيا يتيما ضائعا حسبُه من ربه أن يُؤجَرا

* * *

أيها المستمع الكريم :—

اذا كانت الشريعة الاسلامية قد عُنيت باسعاد المجتمع ، ورفع شأن

الانسانية ، بتهذيب النفس البشرية • فهى الى ذلك قد نظرت نظرة فاحصة الى أدواء المجتمعات تعالجها ، وتخفف من آلامها حتى لايتفاقم شرها ، ولا يعضل داؤها ، وأنت ترى أن « الفقر » من أدواء المجتمع ، اذا لم يعالج وتلطف حدته بالتشريعات كان وبالا على المِلكية ، وكان خطراً على النفوس •

ان الفقير الحانق الذى لايجد من المجتمع مواساة ، ولا ترفيها • قد يعضّه الجوع ويدفعه اليأس ، حين لايجد قلبا ينبض بالخير ، ولا يدا تمتد بالاحسان !! • وياويل المجتمع من سورة الفقير المحروم !! وياشدّ ما يفعل الحقدُ بالأرواح البريئة !!• من أجل هذا فرضت الشريعة الاسلامية « الزكاة » تؤخذ من الأغنياء فترد على الفقراء ، ثم حددت مصارف الزكاة تحديدا يكفل للمجتمع السعادة ويقيم دعائمه على أسس ثابتة • يقول تبارك وتعالى :

« انما الصدقاتُ للفقراءِ والمساكين والعاملينَ عَليها والمؤلفة قلوبُهم وفى الرِّقابِ والغارمين وفى سبيل الله وابنِ السبيل » •

* * *

أيها المستمع الكريم :

بُدِئت مصارف الزكاة بصنف (الفقير) ، ولعلّك تعرف أن الفقير فى اللغة هو المكسور الفقار !!! فانظر لهذا الانسان الذى يشركنا فى الانسانية ثم هو لا يجد ما يقيم ظهره • انه يصبح رمزا على ناحية مريضة من المجتمع • وكلما تضاعف عدد الفقراء تضاعف النقص فى نواحى المجتمع وابتعد عن الكمال الذى تنشده المجتمعات • ولسنا فى حاجة لأن نشرح الفقير وأن نحدد المسكين كما يفعل الفقهاء ، ويختلفون فى التعريف فيقولون • الفقيرُ من لا مال له ، ولا حرفة تسد حاجته ، والمسكين من له مال وحرفة لكنهما لا تسدان حاجته • لا • نحن لا نمضى فى هذا السبيل ، فكلنا يعرف من هو الفقير ، ومن هو المسكين •••

ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدع الى ضمير المسلم تعرّف « البِرّ » فلقد سئل ما البرّ ؟ • فقال للسائل (استفت قلبك) غير أننا نلمح اشارة خطيرة فى تقديم صنفى الفقراء والمساكين على غيرهما من الأصناف التى حددتها الآية • وبينهم (الجُباة) — العاملون عليها — وهم الذين تقوم عليهم النظم • وتؤسّسُ بهم الحكومات ، ذلك أن أىّ نظام مهما أُحكم وضعُه ، وأية حكومة مهما علا نوعُها ، اذا لم تعالج أولا داء الفقير ، وتستل سخائم الفقراء ، كان قصاراها انحلال واضطراب •

★ ★ ★

أيها المستمع الكريم : —

رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيرا ينظر اليه وهو يأكل فاقتطع له لقيمات ، والتفتَ الى الصحابة وقال « اتّقُوا سَمّ الأعين !! » فهل علم المسلمون أن رسولهم صلى الله عليه وسلم يُحدّث أن للأعين سَما ؟ نعم بها سَمّ معنوىّ أفعل من السم الذى يداوى بالترياق • انه سَم يسرى فى جسم المجتمع فيرضرض من كِيانه ، ويفتت من أجزائه ، انه سم الحقد • سم الاحن • سم الضغينة ولا دواء له الا بالزكاة •••

★ ★ ★

أيها المستمع الكريم : —

نظرت الشريعة السمحة بعد هذا الى صنف ثالث وهو الذى اشرنا الى أهميته من قبلُ ، وهو ينتظم الجُباةَ والعمالَ وأصحابَ الدواوين الذين يجمعون الزكاة ويسوقونها الى بيت المال ، ويقومون على تقسيمها بين مستحقيها ، وهؤلاء هم عُمُد الحكومات • وحفظة النظام ، فاذا لم يُحدد لهم قسطهم مما يعملون ، كانت الفوضى فى أبشع صورها • فلقد تمتد أعينُهم — اذا لم تحدد أنصبتهم ، الى ما فى بيت

المال ، فيصبح نَهْبا ، ويؤخذ سَرَفا ، ما دام جزاؤهم غير محدود ، وما داموا هم يقلّبون الأموال فى أيديهم ويعملون على جمعها فى بيتها ...

ولقد يقعد بهم الاهمال ، فلا ينشطون لجمع الصدقات من الأغنياء ، ركونا الى أنه لا ينالهم على عملهم أجرٌ ولا جزاء . فكانت حكمةً عالية أن يفرض الله نصيبا من الزكاة لكل عامل عليها جابٍ لها منظم لتوزيعها .

* * *

أيها المستمع الكريم : —

ننتقل الى صنف آخر من مصارف الزكاة . هو صنف (المؤلفة قلوبهم) . فلقد نرى الرجل لا بأس بعقله وفهمه . يترك ماله وذخره . ثم يأتى معتنقا للعقيدة الصالحة طيبةً بها نفسه ، ولكنه ينظر فيرى فرق ما بين حاضره وماضيه . لقد كان بين أهله فى كثير من المال . فصار بعد أن فارقهم فى قلّ منه ... أو ليس من صلاح المجتمع الذى انتفع بعقل الرجل ، واعتز بشخصه أن يرفّه عنه بعض الترفيه ، حتى يندمج فى البيئة الجديدة ، ويجد أسباب المعيشة بينها ؟؟ أليس من صلاح المجتمع أن يؤلّف قلبه على ما اعتقده حقا وصوابا من العقيدة الطاهرة . حتى لا تنفر النفوس من المجتمع الجديد الذى يتألف ويتكون . نعم ، ان ذلك سننُ المجتمعات الناشئة وذلك نهجُ البر ، وسبيل الخير .

* * *

أيها المستمع الكريم : —

يجىء بعد ذلك صنف « الأرقاء » الذين سلبوا الحرية . وفقدوا الأهلية . جاء الاسلام والرّق فاش منتشر . فرغّب فى الاعتاق . وفك قيود الانسانية العانية . ولقد أكثرت الشريعة الاسلامية من التشريعات التى تعالج هذا النقص ، وتحصر الرّق فى أضيق الحدود . وكان من أسمى ما ذكره القرآن

أنه جعل سبيل السعادة لكل مؤمن أن يقتحم عقبةً كبرى . وما هى تلك العقبة التى تقف بين السعادة الأبدية ، وبين النفس البشرية ؟؟ انها فك رقبة عانية ، انها منح الحرية لرقيق مستعبد ، أو احياء نفس أماتها الفقر أو اليتم .

نعم حرّض الله المؤمنين على اقتحام العقبة فى أسلوب قوى حازم لا يدع مسلما مالكا لعبد الا وهو مسارع الى عتقه ، يقول تعالى : « فلا اقتحمَ العقبةَ . وما أدراكَ ما العقبةُ ؟؟ فكُّ رقبة ، أو اطعامٌ فى يوم ذى مَسغَبة يتيماً ذا مقربة ، أو مسكينا ذا متربة » .

وانظر كيف جعل الله سبحانه وتعالى العقبة التى تقف فى طريق السعادة ذات شعاب يستطيع المؤمن أن يقتحمها من نواحيها . فمن شِعابها فكُّ الرقاب . أو اطعام اليتيم من ذوى القربى ، والمسكين اللصيق بالتراب من العَوز والفاقة ...

* * *

وهناك صنف آخر جُعِلَ له نصيبٌ فى الزكاة ذلك الصنف هو « الغارم » الذى أثقله الدين ولزمه أداؤه ، وقد يكون هذا الصنف قد غَرِم مالَه فى سبيل اصلاح ذات البين والتوفيق بين المتنازعين !!! وان من الخير للمجتمع أن يُشجع الشارعُ هؤلاء الذين يعاونون على الاصلاح . ويفضّون الخلافات . بين الجماعات . لهذا شرع لهم القرآن نصيبا فى الزكاة لهم ...

* * *

أيها المستمع الكريم :ـ

اذا انتظم المجتمع بعد ذلك كله وكَملَتْ نواحيه ، وكان من مظاهر رقيه أن يمر به « ابن السبيل » المسافر ، فيجد فى جنَباته سهما يتبلغ به الى وطنه ، ويصل به ما انقطع فى طريقه ، فقد يكون زادُه فقد ، أو راحلته عَجزت وكلّت ، وهو بعدُ على سفر ... فهذه الأصناف تكمل نواحى المجتمع ، وتجعله متماسكا ، يشد بعضه بعضا .

* * *

لقد شفى الله بالزكاة نفوس المسلمين ، وأصلح بمصارفها جماعةَ المؤمنين ، وجعل مجتمعهم بفضل تحديد تلك المصارف أرقى المجتمعات ، وتتبع أصناف المجتمع كلَّها ، فجعل لكلٍّ نصيبا مفروضا ...

* * *

وبعدُ ، فما على المسلمين اليومَ الا أن يذكروا ، ويتدبروا ، فان ماشرعه لهم كتابهم حرى بأن يجعلهم خير أمة أخرجت للناس ...

الى هنا انتهت هذه المجموعة ، وانى لأرى لزاما علىَّ أن أسدى الشكر الموفور ، (لمطبعة مصر) والقائمين عليها ، أولئك الذين سارعوا الى انجاز هذا العمل ، وتعهدوا باخراجه ، فى جودة واتقان ، فكان عملهم ، واخلاصهم فى عملهم ، مثالا طيبا ، واسوة صالحة ، والله المسئول أن يوفق شبيبة البلاد ، لفهم حقيقة الدين الاسلامى ، وأن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب .

محمد عبد الرحمن الجديلى
المراقب العام للشئون الدينية
برياسة مجلس الوزراء

فهرس

صفحة

تقدير ملكى سام ٣

قبس من نور الوفاء ٥

كتاب كريم للمصلح الدينى الكبير فضيلة الأستاذ الأكبر المرحوم محمد مصطفى المراغى . . ٦

خطاب بارع لسعادة الوزير العالم عبد العزيز محمد باشا وزير الأوقاف الأسبق ٧

كتاب عزيز لفضيلة الأستاذ العلامة المرحوم الشيخ عبد المجيد اللبان شيخ كلية أصول الدين (سابقا) . . ٩

من مستشار الاذاعة اللاسلكية الى وكيل وزارة الأوقاف . ١٠

مقال لجريدة الأهرام الغراء فى وصف المحاضرات . . . ١١

رأى شعرى فى المحاضرات لباقعة الأدب واللغة الشاعر الناثر السيد حسن القاياتى ونشرته جريدة المقطم الغراء . . . ١٣

فاتحة وتعريف ـ موضوع الكتاب ١٤

صفحة

المحاضرة الأولى :

أثر العقائد فى اصلاح المجتمع والأفراد ١٧

المحاضرة الثانية :

أسرار العظمة والبطولة فى على ابن أبى طالب . كرم الله وجهه ٢٥

المحاضرة الثالثة :

أين الرجل المؤمن ، وكيف تعرفه ؟ ٣٤

المحاضرة الرابعة :

عيد المولد المحمدى السعيد « من قبل المولد الى بدء الوحى » ٤٢

المحاضرة الخامسة :

محمد رسول الله : فى شبابه وبعثته ٥٢

المحاضرة السادسة :

من قبل الهجرة ، المكافحة فى سبيل الدعوة المحمدية . . ٦٣

صفحة

المحاضرة السابعة :

تألق الدعـوة الاسـلامية فى آفاق الدنيـا ٧١

المحاضرة الثامنة :

بعض أسرار العظمة والبطولة فى عمر الفاروق ٧٩

المحاضرة التاسعة :

نفحات من العهـد العمرى (عظات من الماضى للحاضر) ٩١

المحاضرة العاشرة :

نشوء الدعوة الاسـلامية فى كنف السلام ٩٩

المحاضرة الحادية عشرة :

الأخاء والوفاء فى الاسـلام يكونان عظمة أبى بكر الصديق ١١٠

المحاضرة الثانية عشرة :

عيد الهجرة المحمدية (عظات من الماضى للحاضر) ١٢٠

المحاضرة الثالثة عشرة :

الفضائل والمحامد الاسلامية فى عثمان بن عفان ١٢٩

المحاضرة الرابعة عشرة :

النشـاط الاسـلامى ينهض بالمجتمع ـ أخلاق اسلامية . ١٣٨

صفحة

المحاضرة الخامسة عشرة :

الفاتح الاسلامى الأكبر سعد ابن أبى وقاص ١٥٣

المحاضرة السادسة عشرة :

الحـادثان العظيمان فى تاريخ الدعوة الاسـلامية « الاسراء والمعراج » ١٦١

المحاضرة السابعة عشرة :

أمين الأمة الاسلامية أبوعبيدة ابن الجراح ١٧١

المحاضرة الثامنة عشرة :

زواج المسلمين وزواج نبيهم صلى الله عليه وسلم ١٧٩

المحاضرة التاسعة عشرة :

عود الى زواج النبى صلى الله عليه وسلم زواجه من زينب وأم سلمة وصفية أمهـات المؤمنين ١٨٨

المحاضرة العشرون :

أحسن القصص ـ القصـة القرآنيـة ـ سيدنا ابراهيم الخليل ١٩٧

المحاضرة الحادية والعشرون :

أحسن القصص ـ القصـة القرآنية ـ موسى «كليم الله» ٢٠٧

صفحة

المحاضرة الثانية والعشرون :

حلقةمن أعلام الاسلام : محمد ابن القاسم الثقفى ـ فاتح الهند ٢١٥

المحاضرة الثالثة والعشرون :

حلقة من أعلام الاسلام : بلال ابن رباح ٢٢١

المحاضرة الرابعة والعشرون :

حلقة من أعلام الاسلام : الحجاج بن يوسف الثقفى . ٢٢٧

المحاضرة الخامسة والعشرون :

حلقة من أعلام الاسلام : الفقيه الغازى أسد بن الفرات ٢٣٢

المحاضرة السادسة والعشرون :

ذكريات عن سعد (الزعيم الخالد) ٢٣٨

المحاضرة السابعة والعشرون :

مجد المرأة وكرامتها فى كنف الاسلام ٢٤٥

المحاضرة الثامنة والعشرون :

اكرام اليتيم ومصاريف الزكاة ٢٥٢

م . مصر ٣١٩٣/٤٩/١٣٠٠٠

المكتبة العربية
نابليا
الشيخ وصل نوبا البستاني
شارع الصحافة
مصر

297.04:J21mA:c.1
الجديلى ،محمد عبد الرحمن
محاضرات اسلامية من الاذاعة اللاسك
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01005805

American University of Beirut

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
الجامعة الاميركية في بيروت

297.04
J21mA

General Library

29704
J21mA
c.1